

جیمس جولیس

صوَرۂ الفنانے فی شبابہ



دارالآداب

صورة الفنان
في شبابه

جيمس جويس

صورة الفنان
في شبابه

رواية

ترجمة ماهر البطوي

منشورات دار الآداب - بيروت

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الثانية
١٩٨٦

« وبعث الروح الخفية في الفنون »

أوفيد : « التحولات » ، (٨) ، (١٨) .

في يوم من الأيام ، وكان يوماً جميلاً جداً ، كانت هناك بقرة قادمة عبر الطريق ، وقابلت هذه البقرة القادمة عبر الطريق صبيّاً صغيراً لطيفاً جداً اسمه الطفل « تاكو » .

قص عليه أبوه هذه القصة ، وكان ينظر إليه من وراء نظارته . كان له وجه كثيف الشعر .

أما هو فكان الطفل « تاكو » . وسارت البقرة عبر الطريق إلى حيث تسكن « بيتي بيرن » التي تباع فطائر الليمون .

آه .. الوردة البرية تزهر

في المكان الصغير الأخضر

كان يردد هذه الأغنية دائماً ، فقد كانت أغنيته المفضلة . يغنيها هكذا :

آه ، والدة الخضلاء تزهل

عندما تبل فراشك تشعر بالدفع أول الأمر ، ثم يأخذ في البرودة ، وتضع أمه المشمع الذي كانت له رائحة غريبة .

إن رائحة أمه أفضل من رائحة أبيه ، وكانت تعزف له لحن البحارة لكي يرقص عليه :

ترالالا ، لا لا
ترالالا ، ترالالا دي
ترالالا ، لا لا
ترالالا ، لا لا

ويصفق العم « تشارلس » و « دانتي » له . كانا أكبر سنًا من أبيه وأمه ،
ولكن العم تشارلس أكبر من دانتي . لدانتي فرشاثان في رف الحاجيات .
الفرشاة ذات الظهر المخملي الأرجواني ترمز « لميشيل دافيت » والفرشاة ذات
الظهر المخملي الأخضر « لبارنل » . وكانت دانتي تعطيه بعض الحلوى في كل مرة
يحضر لها قطعة من أوراق اللف . كان أولاد آل « فانس » يقطنون الشقة رقم
٧ ، ولهم أب وأم يختلفان عن أبيه وأمه ، هما والد « إيلين » وأمها . قال إنهم
حين يكبرون فسوف يتزوج إيلين . واختبأ تحت المائدة .

وقالت أمه : - « آه .. سوف يعتذر ستيفن .

وقالت دانتي : - آه .. ستأتي النسور وتنزع عينيه إن لم يفعل .

تنزع عينيه

يعتذر

يعتذر

تنزع عينيه

يعتذر

تنزع عينيه

تنزع عينيه

يعتذر



كانت الملاعب الفسيحة توج بالأولاد ، وكلهم يصيح . ويحتمهم العريفون
بصيحاتهم القوية . وكان هواء المساء غائماً وبارداً ، وبعد كل هجمة أو ضربة

يصوبها اللاعبون تطير الكرة الجلدية كطائر ثقيل يمرق خلال النور المعتم . ولزم هو منطقة فريقه بعيداً عن بصر العريف ، بعيداً عن متناول الأقدام الحشنة ، متظاهراً بالجرى بين حين وآخر . شعر بحسده صغيراً واهناً بين هذا الجمع من اللاعبين وبعينه ضعيفتين دامتين . لم يكن « رودى كيكهام » هكذا ، ويقول الجميع إنه قد يصبح رئيساً للصف الثالث .

كان « رودى كيكهام » زميلاً لطيفاً ، أما « ناستى روش » فرائحته كريهة . و « رودى كيكهام » له غطاء لاساق بين أدواته وسلّة في المطعم ، أما « ناستى روش » فيداه كبيرتان ، وكان يسمى الحلوى التي يقدمونها لهم يوم الجمعة الجرو المغطى بالملاء . وقد سأله ذات يوم :

– ما اسمك ؟

فأجاب ستيفن : – ستيفن ديدالوس .

فقال ناستى روش عند ذلك : – أي نوع من الأسماء هذا ؟

ولما لم يستطع ستيفن الإجابة ، سأله ناستى روش :

– وماذا يعمل والدك ؟

وأجاب ستيفن : – إنه من السادة .

فسأله ناستى روش : – أهو من الحكام ؟

أخذ ينتقل من مكان إلى آخر على امتداد منطقة فريقه ويجري قليلاً من حين لآخر . كانت يده زرقاوين من البرد فأبقاهما في الجيوب الداخلية لصداره الرمادي ذي الحزام الذي يلتف حول جيبه . والحزام يستعمل أيضاً في الضرب . قال أحد زملاء يوماً لكاتويل : « بإمكانى أن أضربك ضربة قاضية في ثانية واحدة » .

وأجاب كاتويل : إذهب وقاتل من هو ندى لك ، فلتضرب سيسل ثندر ، أحب أن أراك تفعل ذلك . بإمكانه أن يرفسك في بطنك .

لم يكن هذا تعبيراً مهذباً . لقد قالت له أمه ألا يتحدث مع الأولاد الوقحاء

في المدرسة . يا للأُم اللطيفة ! لقد رفعت نقابها عن شفتها إلى أنفها لكي تقبله حين كانت تودعه في أول يوم أمام ردهة المدرسة . وكان أنفها وعيناها حمراء ، ولكنه تظاهر أنه لم يلاحظ أنها على وشك البكاء . كانت أماً جَدَّ لطيفة ، ولكنها لا تكون كذلك حين تبكي . وأعطاه أبوه قطعتين من ذات الشلنات الخمسة مصروفاً لجيبه . وقال له أبوه أن يكتب إلى المنزل إذا ما احتاج إلى أي شيء ، كما نصحه ألا يشي بأحد من زملائه معها كانت الأحوال . ثم صافح المدير والده ووالدته على باب المدرسة والنسمات تعبت بردائه . وتحركت السيارة بأبيه وأمه ، اللذين أخذًا يهتفان ويلوحان له بأيديهما :

– وداعاً يا ستيفن ، وداعاً .

– وداعاً يا ستيفن ، وداعاً .

واحتوته دوامة لعبة الرجبي ، وانحنى لينظر من خلال السيقان ، فقد أجفل من العيون البارقة والأحذية الملطخة بالطين . كان التلاميذ يتصارعون وتتصاعد منهم الأناث ، بينما أرجلهم تعرك وتركل وتدق ، ثم راغ حذاء « جاك لوتون » الأصفر بالكرة وتقدم بها ، وجرت خلفه كل الأحذية والسيقان الأخرى ، وجرى هو وراءهم فترة قصيرة ثم توقف : كان من العبث مواصلة الجري . وسرعان ما سيعودون إلى المنزل في الاجازة ، وحين يذهبون لحجرة الدراسة بعد العشاء سوف يغير الرقم الذي كتبه داخل قمطره من ٧٧ إلى ٧٦ .

وفكر انه من الأفضل أن يكون في حجرة الدراسة على أن يكون هنا في البرد . كانت السماء معتمة وباردة ، ولكن كانت تلمع بعض الأضواء في إدارة المدرسة .

وتساءل متعجباً : ترى من أي النوافذ ألقى « هاملتون روان » قبعته على سور الحديقة ، وهل كانت هناك أحواض للزهور تحت النوافذ في ذلك الوقت ؟ عندما استدعوه ذات يوم إلى إدارة المدرسة أراه الساعي الحدوش التي خلفها رصاص الجنود في خشب الباب ، كما أعطاه قطعة من الخبز الذي كانت تأكله

الطائفة الجزويتية .

إن منظر الأضواء في إدارة المدرسة يبعث في النفس الراحة والدفء ،
ويبدو كأنما الأمر شيء في الكتب . قد يبدو دير « ليستر » هكذا ، كما أن
هناك جملاً لطيفة في كتاب الدكتور كورنويل للتهجي تبدو كالشعر ، ولكنها لم
تكن سوى جمل لتعليم التهجي :

مات دولسلي في دير ليستر
حيث دفنه الرهبان
الكانكر مرض النباتات
أما الكانسر^(١) فللحيوانات

كم يكون جميلاً أن يستلقي على بساط المدفأة أمام النار ويتكىء برأسه بين
يديه ويفكر في هذه العبارات . وارتجف كما لو أن ماءً بارداً موحلاً قد مس
جسده . كم كان « ولز » دنيئاً لأنه دفع بكتفه إلى حفرة دورة المياه لأنه لم يقبل
أن يبادل علبة سعوطه الصغيرة بشمرة « أبو فروة » البسيطة التي يملكها ولز
ويسمىها قاهرة الأربعين . كم كانت المياه باردة موحلة ! لقد رأى أحد الزملاء
مرة فأراً يقفز في تلك الرذعة . وتصور أمه جالسة أمام النار مع « دانتي »
تنتظران « بريجيت » لتحضر لها الشاي ، وقد وضعت قدميها على سياج المدفأة ،
ونعلاها في غاية الدفء . كان لها رائحة جميلة دافئة . ودانتي تعرف كثيراً من
الأشياء ، فقد علمته أين يقع مجرى موزامبيق وما أطول نهر في أمريكا واسم
أعلى جبل في القمر . أما الأب « آرنا ل » فهو أكثر علماء من دانتي لأنه قس ،
ولكن أباه والعم « تشارلس » كانا يقولان ان دانتي امرأة ماهرة وقارئة ممتازة .
وأحدثت دانتي ذات مرة ضجة كبيرة بعد الغداء ووضعت يدها على فها . كان
قلبها يضطرم بالغيرة .

(١) مرض السرطان .

ونادى صوت من بعيد في الملعب : « إجمع » .
فرددت أصوات أخرى من الصف النهائي والصف الثالث : « إجمع ،
إجمع ! » .

وتجمع اللاعبون حمر الوجوه قد علام الوحل ، وانضم إليهم سعيداً بالذهاب
إلى الداخل . وحمل « رودى كيكهام » الكرة من شريطها الجلدي ، وطلب
منه أحد زملائه أن يلعبوا بها دوراً أخيراً ولكنه مضى في سيره دون أن يرد
عليه . وقال « سيمون مونان » لرودى كيكهام ألا يفعل ذلك لأن العريف
يراهم . فتحول الزميل إلى سيمون مونان وقال له : إننا جميعاً نعلم لماذا تقول
ذلك . إنك رضيع العريف « ماك جلاذ » .

رضيع : كلمة عجيبة ! لقد دعا الزميل « سيمون مونان » بهذا الاسم لأن
« مونان » اعتاد أن يربط أردان العريف المطلقة وراء ظهره ، فيغضب العريف
لذلك . ولكن وقع الكلمة كان قبيحاً . لقد غسل يديه ذات مرة في دورة المياه
بفندق « ديكلو » ، وبعدها رفع والده سداة الحوض من سلسلتها ، وتسربت
المياه القذرة من فتحة الحوض ، وعندما تسربت كلها ببطء صدر عن الفتحة
صوت يشبه صوت الرضيع هذا : سك (١) ، إنما كان صوتاً أعلى من ذلك .

وشعر بالبرودة ثم بالسخونة عندما تذكر ذلك ، وتمثل منظر دورة المياه
الأبيض . كان هناك صنوبران تديرهما فيتدفق الماء : بارداً وساخنأ . وشعر
بالبرودة ثم بالسخونة ، وكان بإمكانه أن يرى الأسماء المنقوشة على الصنابير ،
كان هذا شيئاً عجيباً جداً .

كذلك سرى هواء الردهة بالبرد إلى جسدي ، كان عجيباً رطباً . ولكن
سرعان ما سيوقدون مصابيح الغاز ، ويصدر عن استعمالها طنين خفيف
كالأغنية الخفيفة لا يتغير أبداً ، وتستطيع سماعه حينما يتوقف التلاميذ عن
الكلام في حجرة الألعاب . كانت تلك حصة الجمع ، وكتب المدرس - الأب

(١) لفظة سك بالانجليزية Suck تعني يرضع .

آرنال - أرقاماً صعبة على السبورة وقال : « والآن ، من سيفوز يا ترى ؟ هيا يا يورك ، هيا يا لانكستر » .

وبذل ستيفن كل جهده ، ولكن الرقم كان صعباً ، وشعر بالارتباك . وأخذت الشارة الحربية الصغيرة ذات الوردة البيضاء المثبتة بالدبوس على صدر سترته تهتز . لم يكن ماهراً في الجمع ، ولكنه بذل كل جهده حتى لا يخسر فريق يورك . وبدأ وجه الأب آرنال شديد السمرة ولكنه لم يكن غاضباً بل كان يضحك . وطرق « جاك لوتون » أصابعه ، ونظر الأب آرنال إلى كراسته وقال : « صح ، برافو يا لانكستر ، الوردة الحمراء تفوز ، هيا الآن ، تقدم يا يورك » .

ونظر جاك لوتون من فوق كتفه ، وظهرت الشارة الحربية الصغيرة وعليها الوردة الحمراء الزاهية لأنه كان يرتدي سترة بحارة زرقاء . وشعر ستيفن بوجه يحمر مثلها عندما جالت بخاطره المراهنات التي عقدت حول من منها سيفوز بالصف الأول في الحساب : هو أم جاك لوتون ؟ كان جاك لوتون يفوز ببطاقة الأولوية عدة أسابيع ، وأسابيع أخرى يفوز هو بها . واهتزت شارته الحربية البيضاء وتماوجت بينما هو يعمل في حل المسألة التالية وصوت الأب آرنال يخترق سمعه .

ثم انطفأت جذوة حماسه . وشعر بوجه شديد البرودة ، وخطر له أن وجهه لا بد وأن يكون شاحباً لأنه كان بارداً . لم يكن باستطاعته حل المسألة ، ولكن هذا لا يهم . الزهور البيضاء والزهور الحمراء : لوان جميلان . وبطاقات الفوز للمرتبة الأولى والثانية والثالثة ذات ألوان جميلة أيضاً : حمراء وبيضاء وصفراء . والزهور الحمراء والصفراء جميلة . ربما كانت الوردة البرية لها مثل هذه الألوان . وتذكر الأغنية التي تدور حول الوردة البرية التي تزهر في المكان الصغير الأخضر . ليست هناك زهور خضراء . غير أنها قد تكون موجودة في مكان ما من العالم .

ودق الجرس ، واصطف التلاميذ خارج الحجرات وعلى طول الردهة نحو المطعم . وجلس ينظر إلى قطعتي الزبد في طبقه ، ولكنه لم يستطع أن يأكل الخبز الرطب . وكان مفرش المائدة رطباً رخوآ . ولكنه شرب الشاي الساخن الخفيف الذي صبه في قدحه صبي الفراش الأرعن ذو المريلة البيضاء حول وسطه . وتساءل عما إذا كانت مريلة الخادم رطبة هي الأخرى ، أو أن كل الأشياء البيضاء تكون باردة رطبة . وكان « ناسي روش » و « سورين » يشربان الكاكو الذي أرسله لهما أهلها في علب صفيحية ، فقد قالوا انها لا يستطيعان شرب الشاي لأنه مثل ماء الخنازير . وكانا يقولان ان والديهما من القضاة .

كان الأولاد جميعهم يبدون في عينيه شديدي الغرابة ، لهم آباء وأمهات وملابس وأصوات مختلفة . واشتاق إلى أن يكون في المنزل ويريح رأسه على حجر أمه . ولكن ليس هذا ممكناً ، لذلك فقد تطلع إلى انتهاء اللعب والمذاكرة والصلاة حتى يدلف إلى فراشه .

وشرب قدحاً آخر من الشاي ، فقال « فلمنج » :

— ماذا بك ؟ أتشعر بألم أم ماذا ؟ .

فقال ستيفن : — « لا أدري » .

فقال فلمنج : « ليست معدتك على ما يرام لأن وجهك يبدو شاحباً .

سيذهب ذلك سريعاً » .

وقال ستيفن : « آه ... أجل » .

ولكن علقته لم تكن هناك ، بل خطر له أن العلة تكن في فؤاده ، إذا كان

من الممكن أن يمرض المرء في هذا الموضع . كان جميلاً من « فلمنج » أن يسأله

عن حاله ، وشعر برغبة في البكاء . وارتكز برفقيه على المائدة ، وأخذ يسد

طاقات أذنيه ويفتحهما براحتيه . وكان في كل مرة يرفع يديه عنهما يسمع ضجة

المطعم التي تشبه زئير القطار عند الليل ، أما عندما يسدهما فكان الزئير يختنق

كالقطار حين يعبر نفقاً . كان القطار يزأر على هذا النحو في تلك الليلة عندما كان في مدينة « دوكي » ، ولكن زئيره توقف عندما دخل النفق . وأغمض عينيه ، وظل القطار يجري في خياله ، يزأر ويتوقف ويزأر ويتوقف . كان جميلاً أن نسمعه يزأر ويتوقف ثم ينطلق زئيره مرة أخرى بعد خروجه من النفق ثم يتوقف .

وأخذ تلاميذ الصف الأعلى يهبطون على البساط الذي في وسط المطعم . كان منهم « بادي راث » و « جيمي ماجي » والأسباني الذي سمحوا له بتدخين السيجار ، والبرتغالي الصغير الذي يرتدي قبعة صوفية . وتلاههم أفراد الصف الثالث ، وكان لكل شخص طريقة مختلفة للمشي .

وجلس في ركن من حجرة الألعاب يتظاهر بمشاهدة مباراة في الدومينو ، وقد تمكن مرة أو مرتين في لحظة خاطفة من سماع الأغنية الخفيفة التي تصدر عن المصباح الغازي . ووقف العريف أمام الباب ومعه بعض الأولاد ، بينما « سيمون موانان » يعقد أطراف أردانه المطلقة ، وكان يحدثهم عن « تولابج » .

ثم ابتعد العريف عن الباب ، واقترب « ولز » من ستيفن وقال له :

— « قل لي يا ديدالموس ، هل تقبل والدتك قبل ذهابك للنوم ؟ » .

وأجاب ستيفن : « أجل » .

فتحول « ولز » إلى التلاميذ وقال : — « أوه .. ها هو زميل يقول انه يقبل والدته كل ليلة قبل أن يذهب للفراش » .

وتوقف التلاميذ الآخرون عن لهوهم والتفتوا اليها وهم يضحكون . وتضرج وجه ستيفن خجلاً من وقع أعينهم وقال : « إني لا أفعل ذلك » .

فقال ولز : « أوه .. ها هو زميل يقول انه لا يقبل والدته قبل ان يذهب

للفراش » .

وضحك الجميع مرة أخرى ، وحاول ستيفن ان يشاركهم الضحك . وشعر بالارتباك والسخونة يغزوان جسده في لحظة خاطفة . ما هو الجواب الصحيح

لهذا السؤال إذن ؟ لقد ردّ بإجابتين وولز يضحك في كل مرة . لا بد ان ولز يعرف الجواب الصحيح ، فقد كان في الصف الثالث بقسم القواعد . وحاول أن يفكر في والده ولز ، ولكنه لم يجرؤ على رفع عينيه إلى وجهه ، فلم يكن يحب وجهه . كان « ولز » هو الذي دفعه أمس بكتفه إلى حفرة دورة المياه لأنه لم يقبل أن يبادل علبة سعوطه الصغيرة بثمرة « أبو فروة » البسيطة التي يملكها ولز ويسمياها قاهرة الأربعين . كان هذا عملاً دنيئاً ، وقد قال جميع زملاء هذا . لكم كانت المياه باردة وموحلة ، وقد شاهد أحد زملاء مرة فأراً يقفز رأساً في تلك الردغة . وشعر بوحد الحفرة الباردة يغطي جسده كله . وعندما دق الجرس معلناً بدء الدراسة وخرجت صفوف التلاميذ من حجرة الألعاب ، شعر بهواء الردهة والسلم البارد ينفذ بين ملابسه . كان ما يزال يفكر في الجواب الصحيح . أصواب أن يقبل والدته أم خطأ ؟ ما معنى ذلك : أن يقبل ؟ يرفع وجهه إلى أعلى هكذا لياقني تحية المساء فتبهط والدته بوجهها عليه . كانت هذه القبلة : أن تضع أمه شفتيها على خده . كانت شفتاها رقيقتين ، وكانتا تبتلان خده ، وتحداث صوتاً خفيفاً رقيقاً . لماذا يفعل الناس هذا بوجوههم ؟

وعندما جلس في الفصل فتح غطاء قمطره وغير الرقم المثبت في الداخل من ٧٧ إلى ٧٦ . كانت إجازة عيد الميلاد بعيدة جداً ، ولكنها لا بد أن تأتي يوماً ما لأن الأرض تدور على الدوام . كانت هناك صورة للكرة الأرضية في أول صفحة من كتاب الجغرافيا ، كرة ضخمة تحيط بها السحب . كان لدى « فلمنج » علبة لأقلام الألوان ، وفي ذات ليلة في حصة الهوايات قام بتلوين الأرض باللون الأخضر والسحب باللون الأرجواني . كان هذان اللونان يمثلان لوني الفرشاتين في رف حاجيات داني . الفرشاة ذات الظهر الحملي الأخضر « لبارنل » والفرشاة ذات الظهر الحملي الأرجواني « ميشيل دافيت » . ولكنه لم يطلب من « فلمنج » أن يلوئها بهذين اللونين ، بل فعل فلمنج ذلك من تلقاء نفسه . وفتح كتاب الجغرافيا لكي يستذكر الدرس ، ولكنه لم يستطع

استذكار أسماء الأماكن في أمريكا . كانت كلها أماكن مختلفة لها أسماء مختلفة ،
وكلها في بلاد مختلفة ، والبلاد في قارات والقارات في العالم والعالم في الكون .
ورجع إلى الصفحة الأولى البيضاء من كتاب الجغرافيا وقرأ ما كان قد كتبه
عن اسمه والمكان الذي يوجد فيه :

ستيفن ديدالوس

قسم الحساب

مدرسة كلونجوز الثانوية

مدينة ساليتر

مقاطعة كلدار

أيرلندا

أوروبا

العالم

الكون .

وكان هو الذي قام بكتابة هذا . وذات ليلة كتب « فلمنج » هذه المقطوعة
على الصفحة المقابلة ليمزح معه :

اسمي ستيفن ديدالوس

وطني أيرلندا

أسكن في كلونجوز

سوف أصعد للجنة .

وقرأ سطور المقطوعة من الخلف للأمام ، ولكنها لم تنتظم شعراً عند ذلك .
وأعاد قراءة الصفحة الأولى من أسفل إلى أعلى حتى وصل إلى اسمه . هكذا هو .
وقرأ الصفحة مرة أخرى حتى نهايتها . وماذا وراء الكون ؟ لا شيء .
ولكن أليس هناك من شيء يحوط الكون حتى يحدد أبعاده ونهايته ويظهر بداية
هذا اللاشيء الذي هو بُعد الكون ؟ لا يمكن ان يكون هذا الفاصل جداراً ، ولكن

من الممكن إحاطة جميع الموجودات بخيط رفيع جداً . من الصعوبة بمكان أن يفكر المرء في كل شيء وفي كل موضع في وقت واحد ، فالله وحده يستطيع ذلك . وحاول أن يتمثل مبلغ الضخامة التي قد تبدو عليها مثل هذه الفكرة الواحدة ، ولكنه لم يستطع التفكير سوى في الله . إن الله هو اسم الله ، تماماً مثلما ستيفن هو اسمه . و Dieu هو اسم الله بالفرنسية وهو من أسماء الله أيضاً ، وحينما يصلي أي شخص لله ويقول Dieu فإن الله يعلم على الفور أن الذي يصلي شخص فرنسي . وعلى الرغم من اختلاف الأسماء التي ترمز إلى الله في اللغات المختلفة ومعرفة الله لكل ما يقوله الناس حين يصلون في لغاتهم المختلفة ، فإن الله يبقى دائماً نفس الإله عندهم كلهم ، واسم الله الأصلي هو الله .

وأنهكاه تفكيره بمثل هذه الطريقة ، فشعر بثقل في رأسه . وقلب الورقة الأمامية البيضاء ثم نظر إلى الأرض الكروية الخضراء في وسط السحب الأرجوانية . وتساءل أيها أكثر صواباً : مناصرة الفريق الأخضر أم الفريق الأرجواني ، فقد نزعت دانتي ذات مرة الظهر الخمي الأخضر لفرشاة بارنل بالمقص وقالت له إن بارنل رجل سيء .. وتساءل عما إذا كانوا يناقشون تلك المسألة الآن بالمنزل . هذا ما يسمونه بالسياسة . وهناك فريقان : دانتي في جانب والده ومستركاسي في الجانب الآخر ، أما أمه والعم تشارلس فلم ينحازا إلى أي من الجانبين ، وفي كل يوم تكتب الصحف عن المسألة .

وآلمه ألا يعرف ما تعني السياسة وأنه لا يدري أين ينتهي الكون . وشعر بضآلته وضعفه . متى يصبح مثل رفاقه في الشعر والخطابة ؟ إن لهم أصواتاً جمهورية وأحذية ثقيلة ويدرسون حساب المثلثات . هذه الأمنية بعيدة المنال ، فيجب أولاً أن تأتي الاجازة ثم الفصل الثاني فالاجازة مرة ثانية ففصل آخر فالاجازة مرة أخرى ، إن الأمر يشبه قطاراً يدخل ويخرج من الأنفاق ، ويشبه بدون ضجة الأولاد وهم يأكلون في المطعم عندما يسد المرء طاقات أذنيه ويفتحها . الفصل ، الاجازة ، النفق ، خارجاً ، الضجة ، يقف .

لكم يبدو ذلك بعيداً : من الأفضل الذهاب للفراش للنوم . لم يبق إلا الصلاة في الكنيسة ثم النوم . وارتجف ثم تشاءب . سيصبح كل شيء جميلاً في الفراش بعد أن يغمر الدفء الأغطية . تكون الأغطية شديدة البرودة في البداية عند النوم . وارتعد عندما مرت بخاطره درجة برودتها في البداية ، غير أنها تأخذ في الدفء ويستطيع النوم . من الممتع أن يكون المرء متمباً . وتشاءب ثانية . صلاة المساء ثم إلى الفراش . وارتجف وأحس برغبة في التثاؤب ثانية . سيصبح كل شيء متمباً بعد لحظات قليلة . ويشعر بالدفء الوهاج يزحف إليه من الأغطية الباردة الراجفة ، ويأخذ في الدفء شيئاً فشيئاً حتى يشعر بكل جسده دافئاً ، ويكتنفه الدفء من كل مكان . ومع ذلك فقد ارتجف قليلاً وما زالت به رغبة إلى التثاؤب .

ودق الجرس مؤذناً بصلاة المساء ، ووقف في الصف خارج الفصل وراء زملائه ، ونزلوا الدرج وساروا في الردهة إلى الكنيسة الصغيرة الملحقة بالمدرسة . وكانت الردهة والكنيسة مضاءتين بنور خافت . سيكتنف الظلام والنوم كل شيء بعد قليل . ويتخلل هواء الليل البارد الكنيسة ، وبها رخام في لون البحر عند الليل . البحر بارد في الليل والنهار على الدوام ، غير أن برودته تشتد في الليل . كان البحر بارداً ومظلماً وراء السور هناك خلف منزل والده حيث تغلي القدر فوق النار وبها مشروب « البنش »^(١) . وتلا عريف الكنيسة الصلاة فوق رأسه ، وتجاوبت الردود في ذاكرته :

ربنا افتح شفاهنا
وستسبح أفواهنا بحمدك
تعال لمعونتنا يا ربنا
وعجل بمساعدتنا .

(١) البنش : مشروب عبارة عن خليط من النبيذ والسكر واللبن والليمون .

وكانت الكنيسة مفعمة برائحة الليل الباردة ، غير أنها رائحة مقدسة . لم تكن مثل رائحة الفلاحين المسنين الذين يحثون في آخر الكنيسة عند قداس يوم الأحد : رائحة الهواء مختلطة برائحة المطر والحشائش والملابس القطنية . غير أنهم كانوا فلاحين شديدي الورع . كانوا يزفرون أنفاسهم خلفه ، في عنقه ، ويتشهدون في صلاتهم . وقد قال له زميل ذات مرة إنهم يعيشون في الأكواخ الصغيرة المنتشرة في « كلين » . وعندما كانت العربية قادمة بهم من « سالينز » شاهد امرأة تقف عند باب كوخ مفتوح وتحمل طفلاً بين يديها . كم يكون جميلاً أن ينام المرء في هذا الكوخ ليلة واحدة وأمامه النيران مستعرة في وقود الحشائش ذي الدخان ، ويكتنفه ظلام تضيئه النيران ، ويشم رائحة الفلاحين ، في الظلام الدافئ ، والهواء والمطر ، والحشائش والملابس القطنية . ولكن ... أوه ... إن الظلمة تكتنف الذي يقع بين الأشجار ، وسوف يضل الطريق في الظلمة . وشعر بالخوف حين جال بفكره ذلك الأمر .

وسمع عريف الكنيسة يردد الصلاة الأخيرة . وردد هو الصلاة أيضاً لتحميه من الظلمة هناك بين الأشجار :

نتضرع إليك يا إلهي أن تزور مودع روحنا هذا ،
وأن تطرد منه أحابيل الأعداء وشراكمهم ،
حتى ترقد ملائكتك المقدسة هنا ليظلموا علينا
السلام ، ولعل بركاتك تنثر علينا دائماً عن طريق
المسيح سيدنا . آمين .

وارتجفت أصابعه وهو يخلع ملابسه في غرفة النوم . وناشد أصابعه الإسراع . كان عليه أن يخلع ملابسه ويتلو صلاته ويذهب للفراش قبل أن يطفئوا ضوء المصباح حتى لا يذهب إلى جهنم عندما يموت . وجذب جوربيه إلى أعلى وارتنى ملابس النوم بسرعة وركع إلى جانب فراشه وهو يرتجف وردد صلاته في عجلة وهو يخشى أن يطفئوا النور . وشعر بكتفيه يرتجفان وهو يتمم :

ربي بارك أبي وأمي واحفظهما لي
ربي بارك إخوتي الصغار وأخواني واحفظهم لي
ربي بارك العمّة دانتي والعم تشارلس واحفظهما لي .

ثم بارك نفسه وصعد إلى الفراش بسرعة وجذب طرف ملابسه حتى قدميه
وكوّم نفسه تحت الأغطية البيضاء الباردة وهو يرتجف ويرتعد . ولكنه لن
يذهب إلى الجحيم عندما يموت ، وسوف يكف جسده عن الارتجاج . نظرة
خاطفة من فوق الغطاء ، وشاهد الستّر الصفراء التي تحيط بفراشه وتحجب
عنه كل ما يحيط به . وخفت النور في هدوء .

وابتعدت خطوات العريف . إلى أين يذهب ؟ إلى أسفل السلم عبر الردهة
أم إلى غرفته في نهاية المبنى ؟ وحدّق في الظلام . أحقّ ما يقال عن الكلب
الأسود الذي يتجول هناك في الليل وله عينان في حجم مصابيح العربة ؟ لقد
قيل إنه شبح قاتل . وغمرت جسده رعدة خوف دامت فترة طويلة . وتمثل
صالة مدخل إدارة المدرسة المظلم . وكان هناك خدم مسنون يرتدون ملابس
عتيقة في غرفة المكواة في أعلى السلم . كان ذلك منذ عهد بعيد ، وكان الخدم
المسنون يلزمون الهدوء . ومع أن النار كانت موقدة هناك فإن الصالة كانت
ما تزال مظلمة . وارتقى شخص السلم قادماً من الصالة وكان يرتدي عباءة
المرشالية البيضاء ؛ ووجهه شاحب غريب ويداه مشدودتان إلى جنبه . ونظر
بعينه الغريبتين إلى الخدم المسنين ، وتطلعوا هم إليه وعرفوا فيه وجه سيدهم
وعبائه وأدركوا أنه لقي حتفه . ولكن لم يكن هناك غير الظلام حيث
شخصوا بأبصارهم . ليس إلا الهواء الساكن المظلم . لقد لقي سيدهم حتفه في
ميدان القتال في « براغ » هناك بعيداً وراء البحر . كان واقفاً في الميدان ويداه
مشدودتان إلى جنبه ووجهه شاحب غريب ، ويرتدي عباءة المرشالية
البيضاء .

آ... يا للبرودة والغرابة التي يبعثها مجرد التفكير في هذا الأمر ! الظلام

كله بارد غريب ، مليء بوجوه شاحبة غريبة ، وعيون كبيرة مثل مريض العربات . كانوا أشباح قتلة وشخوص مارشالات لقوا حتفهم في ميادين نقتل بعيداً وراء البحر . ترى ماذا يبنغون البوح به حتى لتبدو وجوههم غريبة هكذا ؟

نتضرع إليك يا إلهي أن تزور مودع روحنا هذا
وأن تطرد منه كل ...

العودة إلى المنزل لقضاء العطلة ! كم سيكون ذلك جميلاً ، كما قال له أحد الزملاء ذات مرة . الصعود إلى العربات في الصباح المبكر المطير حينما تقف بانتظارهم أمام باب المدرسة ، وتسير العربات على الأرض المغطاة بالحصباء ، ويهتف التلاميذ لمدير المدرسة :

مرحى !... مرحى !... مرحى !!

وتمر العربية على الكنيسة ، ويرفع الجميع قبعاتهم احتراماً ، وتسير بهم على الطريق الزراعي ، ويشير السائقون بسياطهم نحو مدينة « بودنس تاون » ويصيح التلاميذ هاتفين . ويمرون في طريقهم على منزل مزرعة « جولي فارمر » . وينطلق هتاف وراء هتاف يتلوه هتاف . ويسيروا على طريق « كلين » يهتفون ويسمعون الهتافات ، والفلاحات يقفن على الأبواب ، أما الرجال فينتشرون هنا وهناك : وكانت هناك هذه الرائحة الزكية في هذا الجو الممطر ، رائحة « كلين » : المطر والجو الممطر والحشائش المحترقة والملابس القطنية .

وكان القطار ممتلئاً بالتلاميذ ، قطار طويل جداً من الشيكولانة وواجهته مصنوعة من الكريمة ، كما صورته خياله . وكان الحراس يتجولون هنا وهناك يفتحون الأبواب ويفلقونها ، مرتدين ملابس زرقاء داكنة وفضية ، ولهم صفارات من الفضة ، وتصدر عن مفاتيحهم موسيقى خاطفة : كليك ، كليك ، كليك .

وانطلق القطار يجري على الأراضي المنبسطة عبر تلال « آلن » ، وأعمدة

التلغراف تمر وتمر ، والقطار يجري ويجري كما لو كان يدري حقيقة الأمر . هناك مصابيح ومعاطف ذات أردان خضراء في ردهة منزل والده . ويلتف نبات القطم واللبلاب حول مرآة الحائط ، وتنعقد نفس النباتات حول الثريات . وهناك قطم أحمر ولبلاب أخضر حول الصور القديمة المعلقة على الجدران ، قطم ولبلاب ... بمناسبة عودته وبمناسبة عيد الميلاد . بديع ...

كل الناس هناك . مرحباً بعودتك يا ستيفن ! ضجة الترحاب ؛ وتقبله أمه ، أيليق هذا أم لا ؟ وأصبح أبوه الآن مارشالاً ، رتبة أعلى من رتبة القاضي . مرحباً بعودتك يا ستيفن .
ضوضاء ...

وضجت أصوات حلقات الستائر الحديدية وهي ترتفع على قصبتهما ، وصوت رشاش الماء في الأحواض ، وأصوات القيام وارتداء الملابس والاعتسال في غرفة النوم بالمدرسة ، أصوات وتصفيق بالأيدي حين كان العريف يمر هنا وهناك آمراً الأولاد أن يسرعوا . وكشف شعاع الشمس الباهت عن الستائر الصفراء وقد رُفعت ، وعن السرير المهوشة . وكان فراشه دافئاً جداً ، ووجهه وجسده على درجة عالية من الحرارة .

ونفض وجلس على طرف فراشه ، كان متعباً . وحاول أن يرتدي جوربيه ، وشعر بلمسها خشناً مفزعاً ، وشعاع الشمس غامضاً بارداً .

وقال فلمنج : أتشعر بتوعك ؟

ولم يستطع تبين الأمر . وقال فلمنج : « عد إلى فراشك . سوف أخبر « ماك جلاذ » أنك لست على ما يرام » .

- إنه مريض .

- من ؟

- فلتخبر « ماك جلاذ » .

- عد إلى فراشك .

– أهو مريض ؟

وأمسك أحد الرفاق بذراعيه بينما أنزل هو الجورب الذي كان عالقا بقدمه
وعاد إلى الصعود لفراشه الدافئ .

وقبع بين الأغذية مسرورا من توهجها الفاتر . وسمع التلاميذ يتكلمون عنه
أثناء ارتدائهم ملابسهم للذهاب إلى القديس . كانوا يرددون أن « ولز » كان
دينيا لأنه دفعه بكتفه إلى حفرة دورة المياه .

ثم صمتوا ؛ لقد ذهبوا . وارتفع صوت من جانب فراشه قائلا :

– لا تشربنا يا ديدالوس ، إنك لن تفعل ذلك طبعاً ؟

وكان « ولز » هو الذي يتكلم . ونظر إليه وأدرك أنه خائف .

– لم أكن أقصد ذلك . إنك لن تشي بي بالطبع ؟

لقد قال له والده إنه مهما فعل فلا يجب أبداً أن يشي بزميل له ؛ فهز رأسه
وأجاب عليه بالنفي . وشعر بالسرور .

وقال « ولز » : بشر في لم أقصد ذلك ، لقد كنت أمزح معك . إني

أسف .

واختفى الوجه والصوت . لقد اعتذر لأنه خائف . أخاف أن يكون بي
مرض ما . « كانكر » مرض يصيب النباتات أما الكانسر فيصيب الحيوانات ،
أو هو شيء آخر . كان هذا منذ وقت طويل في الملاعب على ضوء المساء ، حين
كان يزحف من مكان إلى آخر على امتداد منطقة فريقه كطائر يطير على ارتفاع
منخفض خلال النور المعتم . وأضيئت « ليستر آبي » . هناك مات « وليسي »
وقام الرهبان بدفنه بأيديهم .

لم يكن « ولز » هو الذي يكلمه هذه المرة بل العريف . إنه لا يتمارض .
كلا ، كلا ، إنه مريض حقاً ولا يتمارض . وشعر بيد العريف تمس جبهته ، وشعر
بها دافئة رطبة تحت يد العريف الباردة الرطبة . كان ذلك نفس الشعور الذي
ينتاب الفأر بالقدارة والرطوبة . لكل فأر عينان يرى بهما ، وشعره رخو

مغطى بالطين ، وقدماه متناهيان في الصغر ، مهيأة للقفز ، وعيناه في لون التراب ليرى بهما . إنها تعرف كيف تقفز . ولكن عقول الفئران لا يمكنها معرفة حساب المثلثات ، وعندما تموت ترقد على ظهورها ، وعندئذ يحف شعرها وتصبح مجرد أشياء ميتة .

وعاد إليه العريف ، وكان هو الذي يقول له إن عليه أن ينهض ، وأن الأب القس قال إن عليه أن ينهض ويرتدي ملابسه ويذهب للمستشفى . وقال العريف بينما كان يرتدي ملابسه على قدر ما أمكنه من السرعة :
- يجب على صغيرنا الذهاب بسرعة إلى الأخ ميشيل لأن صغيرنا مصاب بتعب في المعدة .

كان لطيفاً منه أن يقول ذلك ، وكافياً لبعث الضحك فيه ، غير أنه لم يستطع الضحك لأن خديه وشفتيه كانت ترتجف ؛ فكان على العريف والأمر كذلك أن يضحك بمفرده . وصاح العريف : « بالخطوة السريعة ، شمال ، يمين » .
وهبطا السلم معاً ، ومرّاً في طريقها عبر الردهة بالحمام . وعندما مرّاً ببابه خطرت بباله الرذعة الدافئة المغطاة بالحشائش ، والهواء الدافئ الرطب وأصوات القفز إلى الماء ، ورائحة المناشف التي تشبه الدواء ، كل هذا يخالطه رهبة غامضة .

وكان الأخ ميشيل واقفاً على باب المستشفى . وكانت تنبعث خارج الغرفة المظلمة على اليمين رائحة كالتفوح من الأدوية مصدرها الزجاجات المصفوفة على الرفوف . وتحدث العريف مع الأخ ميشيل ، ورد الأخ ميشيل عليه منادياً إياه بالسيد . وكان شعره ذا لون أحمر وخطه الشيب وذا نظرة غريبة . وكان غريباً أن ينادوه دائماً بالأخ ، وغريباً أيضاً أنك لا تستطيع أن تتأدب بالسيد لأنه قس وله نظرة مختلفة للأمور . ألم يكن على درجة كافية من التقوى ؟ إذن لماذا لا يكون كالأخرين ؟

وكان هناك فراشان في الغرفة ، يرقد أحد التلاميذ على أحدهما ووصاح

هذا عندما دخلا . « هالو ، أهذا أنت يا ديدالوس الصغير ! ماذا هناك ؟ » فقال الأخ ميشيل : هناك ما هناك .

كان التلميذ الآخر طالباً في الصف الثالث بقسم القواعد . وبينما كان ستيفن يخلع ملابسه ، طلب هذا من الأخ ميشيل أن يحضر له بعض الشطائر بالزبد ! وقال « أوه ... أرجو منك ذلك » .

فقال الأخ ميشيل : « عليك اللعنة ! سوف تتسلم تصريح الخروج من هنا حينما يحضر الطبيب في الصباح » .

فقال التلميذ : « هل سأخرج ؟ ولكنني لم أشفَ بعد » .

وكرر الأخ ميشيل : « قلت لك ستسلم أوراق خروجك من هنا » .

وانحنى يحرك النار ، وكان ظهره طويلاً مثل ظهر جواد العربية الطويل وهز محرك النار برزانة وأشار برأسه تجاه تلميذ الصف الثالث بقسم القواعد . ثم خرج الأخ ميشيل من الحجرة . وبعد برهة أدار تلميذ الصف الثالث بقسم القواعد وجهه ناحية الجدار وغط في النوم .

ذلك هو المستشفى ، إذن فهو مريض . ترى هل أرسلوا خطاباً إلى منزله ليخبروا والده ووالدته بذلك ؟ من الأفضل أن يبعثوا واحداً من القسس لإخبارهما بنفسه ؛ ويستطيع أن يكتب خطاباً ويرسله مع القس :
أمي العزيزة :

إني مريض ، وأريد العودة إلى المنزل . أرجوك أن تحضري وتذهبي بي إلى المنزل . إني في المستشفى .

ولدك الحبيب

ستيفن

لكم هما بعيدان ! انتشرت في الخارج أشعة الشمس الباردة ، وتساءل عما إذا كان سيموت ، فمن الممكن أن يموت الانسان في يوم مشمس كأبي يوم آخر . كما أنه قد يموت قبل أن تحضر أمه ، وفي هذه الحالة سيقام له قداس الموتى في

كنيسة المدرسة ، تماماً مثلما أخبره زملاؤه عن إقامته حين مات « ليتل » ،
وسيشهد جميع التلاميذ هذا القداس ، مرتدين السواد ، ويحيم الحزن على
وجوههم . وسيكون « ولز » هناك أيضاً ، ولكن لن يعتني أحد من التلاميذ
بمجرد النظر إليه . وسيكون المدير موجوداً كذلك ، متشجاً بعباءة سوداء
موشاة بالذهب . كما ستوضع شموع صفراء طويلة على المذبح وحول مكان
النعش . ثم يحملون النعش خارج الكنيسة في بطء ويقومون بدفنه في فناء
مقبرة الطائفة الصغيرة على اليمين بعيداً عن الطريق الرئيسي الممتلئ بأشجار
الزيزفون وعندئذ سيصدر « ولز » بالندم على ما فعله معه ، وسيدق جرس
الكنيسة في بطء .

وخيل إليه أنه يسمع أجراس الكنيسة ، وردد لنفسه مراراً الأغنية التي
علمته إياها « بريجيد » :

دنح دونج ! جرس المدرسة .
وداعاً يا أمي !
اودعوني مقبرة فناء الكنيسة .
يجانب أخي الأكبر
سيكون نعشي أسود اللون
وستة من الملائكة يقفون ورائي
إثنان يغنيان وإثنان يصليان
وإثنان يحملان روحي بعيداً .

كم كان ذلك جميلاً وبعثاً على الحزن ، ويا للجمال تلك الفقرة التي تقول
« اودعوني مقبرة فناء الكنيسة » . وشعر برعبدة تتخلل جسده . يا للأسى
ويا للجمال ! وشعر برغبة في البكاء الصامت لم يكن مبعثها شفقتة على نفسه ،
بل من تأثير الكلمات الجميلة الحزينة التي تشبه الموسيقى . الجرس ! الجرس !
وداعاً ! وداعاً !

ووهن شعاع الشمس البسارد ، وكان الأخ ميشيل يقف إلى جانب فراشه وفي يده طبق من حساء اللحم . وشعر بالسرور لأن فيه كان دافئاً وجافاً . وكان باستطاعته أن يسمع زملاءه يرحون في الملعب ، ويمر اليوم المدرسي كما لو كان حاضراً .

وتأهب الأخ ميشيل للخروج من الغرفة ، وطلب منه تلميذ الصف الثالث بقسم القواعد أن يعود ثانية ليخبره بالأنباء من الصحف . وقال لستيفن إن اسمه « آثاي » وأن والده يمتلك عدة جياذ للسباق رشيقة وثابة ، وأن والده يمنح الأخ ميشيل بقشيشاً طيباً كلما أراد لأن الأخ ميشيل دمت الأخلاق ويخبره دائماً بالأنباء من الصحف التي تصل المدرسة كل يوم وبها كافة الأخبار المتنوعة : الحوادث « غرق السفن ، الرياضة ، السياسة .

قال له : السياسة هي حديث الصحف هذه الأيام . هل تتحدث إسرتك في هذا الموضوع أيضاً ؟

فقال ستيفن : « أجل » .

قال : وأسرتي كذلك .

وفكر لحظة ثم أضاف :

— إن اسمك عجيب ، ديدالوس . واسمي عجيب كذلك ، آثاي . إن إسمي على اسم مدينة ، أما اسمك فيشبه الأسماء اللاتينية .

ثم سأله : « أماهر أنت في حل الألفاظ ؟ » .

فأجاب ستيفن : لست على درجة كبيرة من المهارة في ذلك .

فقال الآخر : « هل تستطيع حل ذلك اللغز : لماذا تشبه مقاطعة « كلدار »

ساق الرجل ؟

وفكر ستيفن في الجواب ثم قال : لا أعرف .

فقال : لأن بها فخذاً . أفهمت النكتة ؟ « آثاي » ^(١) مدينة في مقاطعة

(١) يوجد هنا جناس بين كلمة « آثاي » اسم المدينة وكلمة Thigh بالإنجليزية والتي تعني الفخذ.

« كمدار » أما الفخذ فهو المعنى المعروف للكلمة .

فقال : آه ... لقد فهمت .

قال : « إنه لغز قديم » ثم أردف بعد برهة : « إسمع » .

فسأله ستيفن : ماذا ؟

قال : أتعلم أنه بالإمكان إلقاء هذا اللغز بطريقة أخرى ؟

قال ستيفن : حقاً ؟

قال : نفس هذا اللغز . أتعرف الطريقة الأخرى التي يقال بها اللغز ؟

قال ستيفن : كلا .

قال : ألا يمكنك أن تخمن ؟

وكان يرمق ستيفن أثناء كلامه من وراء أغطية الفراش ؛ ثم رقد على الوسادة

وقال :

– « هناك طريقة أخرى ولكنني لن أقولها لك » .

لماذا لم يقلها له ؟ إن والده الذي يمتلك جواد السباق لا بد وأن يكون من الحكام مثل والد « سورين » ووالد « ناستي روش » . وفكر في والده ، وكيف يغني حين تعزف والدته الموسيقى ، وكيف يعطيه دائماً شلناً كاملاً حين يطلب منه ستة بنسات ، وشعر عندئذ بالأسف من أجله لأنه لم يصبح من الحكام مثل آباء الأولاد الآخرين . وإذا كان الأمر كذلك ، فلماذا بعثه إلى هذا المكان معهم ؟ غير أن والده كان قد قال انه لن يشعر بالعربة هناك لأن عم الأب كان قد ألقى مرة خطاباً في معمل المدرسة منذ خمسين عاماً . من الممكن تمييز الأشخاص الذين عاشوا في تلك الفترة من ملابسهم القديمة . وبداله أن في ذلك الزمن كان زمناً وقوراً . وتساءل عما إذا كان ذلك أيام كان تلاميذ كلونجوز يرتدون معاطف زرقاء ذات أزرار نحاسية وصدارات صفراء وقبعات من جلد الأرانب ويشربون البيرة كالكبار ويقتنون كلاباً لصيد الأرانب .

وشخص ببصره إلى النافذة ، ورأى ضوء النهار يخفت . لا بد وأن الضوء الرمادى يتخلل الملاعب الآن من وراء السحب . لم تكن هناك أي ضجة تصدر عن الملاعب ، لا بد وأن الفصل منهمك الآن في حل المسائل أو ربما كان الأب أرنال يقرأ من الكتاب .

عجيب أنهم لم يعطوه أي دواء ، أو ربما يُحضره له الأخ ميشيل عندما يعود . يقال إنهم يعطون المريض الذي يدخل المستشفى مادة ذات رائحة كريهة ليشربها . ولكنه يشعر الآن بتحسن عن ذي قبل ، من الجميل أن تتحسن صحة المرء بالتدريج ، وعند ذلك يسمحون له بالقراءة . في المكتبة كتاب عن هولندا وبه أسماء أجنبية جميلة وصور مدن وسفن غريبة المنظر تبعث البهجة في النفس .

يا لشحوب الضوء عند النافذة ! غير أن ذلك جميل . وظلال النيران ترتفع وتنخفض على الحائط وتتخذ هيئة الأمواج . لقد وضع أحدهم بعض الفحم فيها ، وكان يسمع بعض الأصوات ، إنهم يتحدثون . إنها ضجة الأمواج ، أو حديث الأمواج فيما بينها حين ترتفع وتنخفض .

وشاهد الأمواج المتلاطمة ، أمواجاً طويلة مظلمة ترتفع وتنخفض ، مظلمة ، تحت ستار الليل المظلم . وتلألأ ضوء خافت عند رصيف الميناء حيث ترسو السفن . ورأى جمهرة من الناس تتجمع عند حافة الماء ليشاهدوا السفينة التي تدخل ميناءهم . ووقف رجل طويل على ظهر السفينة يشخص ببصره إلى الأرض الممتدة المظلمة ، واستطاع أن يرى وجهه على ضوء رصيف الميناء ، وجه الأخ ميشيل الحزين . وراه يرفع يده إلى الناس وسمعه يقول في صوت مرتفع أسيف عبر المياه : - « لقد مات . رأيناه طريحاً على خوان النعش »

وارتفع عويل الحزن من قلوب الناس : - « بارنل ! بارنل ! لقد مات » .
وارتموا على ركبهم ينوحون ويعولون . وشاهد « دانتى » في رداء على

القطيفة الأرجوانية وحول كتفها عباءة من القطيفة الخضراء ، تسير في كبرياء وصحت أمام الناس الذين جثوا إلى جوار حافة الماء .

* * *

توهجت النار وارتفعت في المدفأة ؛ ونصبت مائدة عيد الميلاد تحت الثريات المزدانة بأغصان اللبلاب . لقد عادوا إلى المنزل متأخرين بعض الوقت ولم يكن الطعام قد أعد بعد ، ولكن أمه قالت سيكون جاهزاً بعد لحظة .
وكانوا جالسين في انتظار فتح الباب ودخول الخدم حاملين الأطباق الكبيرة وعليها أغطيتها المعدنية الثقيلة .

الجميع ينتظرون : العم « تشارلس » الذي جلس بعيداً في ظل النافذة ، « دانتي » ومستر « كاسي » اللذان جلسا على المقاعد المريحة على جانبي المدفأة ، وستيفن جالس على مقعد بينهما وقدم قدميه على سياج المدفأة الذي لامسته النيران . ونظر المستر ديدالوس في امرأة رف المدفأة ، وعقص طرفي شاربه ثم وقف مديراً ظهره للنار المستعرة وقد رفع ذيل معطفه بيده ، وبين حين وآخر كان يرفع يده من على ذيل معطفه ليعقص طرفاً من شاربه ، وكان كاسي يميل برأسه إلى ناحية واحدة ويربت بأصابعه على لغد رقبتة مبتسماً . وابتسم ستيفن كذلك ، فقد أدرك الآن أن مستر كاسي ليس له كيس من الفضة في حلقه . وابتسم عندما جال في خاطره كيف خدعه الرنين الفضي الذي يصدر دائماً عن مستر كاسي . وعندما حاول أن يفتح يد مستر كاسي ليرى ما إذا كان قد خبأ الكيس الفضي هناك وجد أن أصابعه متقلصة لا تنبسط . وقد أخبره مستر كاسي أن أصابعه الثلاثة المتشنجة قد عرضت على الملكة فكتوريا كهديّة في عيد ميلادها . وربت مستر كاسي على لغد رقبتة وابتسم لستيفن بعينين يرين عليهما النوم ، وقال له مستر ديدالوس :

— أجيل ، حسن ، بالضبط . لقد تنزهنا نزهة جميلة ، أليس كذلك

يا جون؟ أجل... إني أتساءل عما إذا كنا سنتناول العشاء هذه الليلة على الإطلاق! حسن... لقد استنشقتنا عبير «الأوزون» في نزهتنا اليوم، أجل بحق الإله.

والتفت إلى «داني» وقال لها: ألا تخرجين للنزهة أبداً يا مسز ريووردان؟ وعبست داني وقالت باقتضاب: كلا.

وأنزل مستر ديدالوس ذيل معطفه وسار إلى مائدة الطعام. وأخرج دنا فخارياً كبيراً من الويسكي من الصوان وملاً الأبريق ببطء وهو ينحني بين فترة وأخرى ليرى مقدار ما صبّه فيه. وبعد أن أعاد الدنّ إلى مكانه بالصوان، أفرغ بعض الويسكي في قدهين وأضاف إليهما قليلاً من الماء وعاد بهما نحو المدفأة وقال:

— قليل من الشراب ليفتح شهيتك يا جون.

فتناول مستر كاسي القدح وجرعه ثم وضعه بجانبه على رف المدفأة ثم قال:
— حسن، لا أستطيع أن أمنع نفسي عن التفكير في صديقنا «كريستوفر» الذي يصنع...

ثم انفجر في نوبة من الضحك والسعال ثم أضاف:
— ... الذي يصنع هذا النوع من الشمبانيا لأولئك الرجال.

وضحك مستر ديدالوس بصوت مرتفع وقال: — أهو كريستي؟ إن الخبث الذي يشع من أحد تآليل رأسه الأصلع يفوق خبث مجموعة كاملة من الثعالب. ومال برأسه، وأغمض عينيه وأخذ يلمع شفقيه بنهم ثم بدأ يتكلم بصوت بدت فيه نبرة صاحب النزل: إن فمه يبدو رقيقاً حين يتحدث إليك، ألا تعلم ذلك، وزمننا رقبته دائماً رطبتيان ومنطتان بالعرق، فليباركه الله.

وكان مستر كاسي ما زال يحاول التغلب على نوبة الضحك والسعال. وضحك ستيفن لأنه تبين أن صوت أبيه ووجهه يبدو أن كصوت صاحب النزل وهيشته. وارتندي مستر ديدالوس نظارته وقال في هدوء وحنان عندما وقعت عليه

عيناه : - علام تضحك أيها الجرو الصغير ؟
ودخل الخدم ووضعوا الأطباق على المائدة وتبعتهم مسز ديدالوس ورتبت
أماكن الجلوس ثم قالت : هيا إلى أماكنكم .

وتوجه مستر ديدالوس إلى طرف المائدة ثم قال :
- الآن ، إجلسي هناك يا مسز ريوردان ! إجلس يا عزيزي جون .
ونظر حواليه إلى حيث جلس العم تشارلس وقال له : هنا طير مطبوخ
في انتظارك .

وعندما اتخذ الجميع أماكنهم وضع يده على الغطاء ثم قال بسرعة وهو
يسحبها : - هيا يا ستيفن .

فوقف ستيفن في مكانه ليتلو الصلاة قبل تناول الطعام :

فلتباركنا يا إلهي ، وبارك عطايك

هذه التي سنتناولها من كرمك

عن طريق سيدنا المسيح . آمين .

وبارك الجميع أنفسهم ؛ وصعد مستر ديدالوس زفرة تعبر عن سروره وهو
يرفع الغطاء الثقيل عن الطبق وقد رصعت القطرات المتلألئة حوافه . ونظر
ستيفن إلى الديك السمين الذي يتصدر مائدة المطبخ وقد فُصل جناحاه وقطعت
أجزاؤه . كان يعلم أن والده قد اشتراه بجنيه من سوق « دي أوليير » ، وأن
البائع قد وخزه حتى عظمة الصدر ليظهر مدى جودته ، وتذكر صوت البائع
حين قال :

- خذ هذا الديك يا سيدي ، إنه « آلي دالي » الحقيقي .

لماذا يسمي مستر « بارت » المدرس في كلونجوز التلميذ الذي يضربه بالديك
الرومي ؟ ولكن كلونجوز بعيدة عن هنا ، وتفوح رائحة الديك ولحم الخنزير
والكرفس الدافئة من الأطباق والصحاف ، وتستعر النار متوهجة عالية في
المدفأة ، ويُسبغ اللبلاب الأخضر والقطيم الأحمر السعادة في النفس . وعندما

ينتهون من العشاء، يأتي البودنج الكبير الضخم وقد رصع باللوز المقشر وأغصان القطم وحوله بعض النيران الزرقاء وعلى القمة راية صغيرة خضراء .
كان هذا أول حفل عيد ميلاد يحضره . وطاف بخاطره إخوته وأخواته الذين ينتظرون في غرفة الأطفال حيث كان ينتظر هو مراراً حتى يأتي البودنج. وأشاعت فيه الياقظة الواطئة العريضة وسترة كلية « إيتون » شعوراً بالغرابة والزهو . وحينما صحبتته أمه هذا الصباح إلى الردهة وقد ارتدى ثياب القداس بكى والده لأن أباد جال بخاطره بدوره آنذاك ، وقد قال العم تشارلس هذا أيضاً .

وكشف مستر ديدالوس الغطاء عن الطبق وبدأ يأكل في شهية ، ثم قال :
- يا لكريستي العجوز المسكين ، لقد جر عليه الخداع والتدليس كثيراً من الاضطرابات .

فقالت مسز ديدالوس : إنك لم تناول مسز ريوردان بعض الحساء يا سيمون .

فأمسك مستر ديدالوس بطبق الحساء وصاح :

- أحقاً؟ أرجو عفوك يا مسز ريوردان .

فغطت دانتي طبقها بيديها وقالت : - كلا ... شكراً .

فتحول مستر ديدالوس نحو العم تشارلس :

- كيف تجد الطعام يا سيدي ؟

- حسناً جداً يا سيمون .

- وأنت يا جون ؟

- على أتم ما يرام ، التفت أنت إلى طعامك .

- وماري ؟ هاك يا ستيفن هذا ليساعد شرك على التجمد .

وصب كثيراً من الحساء في طبق ستيفن ثم أعاد الطبق إلى مكانه على المائدة، ثم سأل العم تشارلس إن كان الطعام ليناً في فمه، ولكن العم تشارلس لم يتمكن من الكلام لأن فمه كان محشواً فhez رأسه بالإيجاب .

وقال مستر ديدالوس : لقد رد صديقنا على قوانين الكنيسة رداً مفجعاً .
ماذا تقول ؟

فقال مستر كاسي : لا أظن أن هذا من خصاله المميزة .
« - سوف أعطيكم ما تستحقونه يا أبي حين تكفون عن تحويل بيت الله إلى
سرادق انتخابات » .

فقالت دانتي : يا له من رد مفجع على أحد القسس من رجل يدعو نفسه
كاثوليكياً .

فقال مستر ديدالوس في هدوء : لا يلومنّ إلا أنفسهم . إذ أخذوا بنصيحتي
فليقتصروا اهتماماتهم على شؤون الدين .

فقالت دانتي : ان ما يقومون به يدخل ضمن نطاق عملهم . ان تحذير الناس
من اختصاصات عملهم .

فقال مستر كاسي : إننا نتوجه إلى بيت الله وملئنا الخشوع للصلاة لخالقنا
وليس للاستماع إلى خطب الانتخابات .

فعدت دانتي تقول : هذا يدخل ضمن نطاق الدين ، انهم على حق ، فمن
واجبهم توجيه رعيّتهم .

فسأل مستر ديدالوس : ويبشرون بالسياسة من على المحراب ، أيصحّ هذا ؟
فقالت دانتي : بالطبع . ان الموضوع موضوع الأخلاق العامة . لا يكون
القس قساً ما لم يبين لرعيّته الصحيح من الخطأ .

فأنزلت مسز ديدالوس سكينها وشوكتها وقالت : بحق السماء ، دعونا من
المناقشات السياسية ، خاصة في هذا اليوم من أيام السنة .

فقال العم تشارلس : تماماً يا سيدتي . والآن ، كفى هذا يا سيمون ، لا
تزيدوا حرقاً .

فقال مستر ديدالوس بسرعة : أجل ، أجل .
وكشف غطاء الطبق في إقدام وقال : والآن ... من يريد مزيداً من الديك

الرومي ؟

ولم يجب أحد ، وقالت دانتي :

يا لها من لغة مهذبة ينطق بها كاثوليكي !

فقال مسز ديدالوس : أتوسل إليك يا مسز ريوردان أن تتركي هذا الموضوع .

فالتفت دانتي إليها وقالت : وهل أجلس هنا وأسمع سخريتهم من رعاة

كنيستي ؟

فقال مستر ديدالوس : لن يسهم أحد بكلمة طالما لم يتدخلوا في السياسة .

فقال دانتي : لقد قال قسس ايرلندا وأسأفتها كلمتهم ، ولا بد أن

يطيعهم الناس .

فقال مستر كاسي : فليتركوا السياسة وشأنها ، وإلا فسيتترك الناس كنائسهم

ويبتعدون عنها .

فقال دانتي وهي تلتفت نحو مسز ديدالوس : أسمعين ؟

فقال مسز ديدالوس : فلتنها هذه المسألة يا مستر كاسي وأنت يا مستر

ديدالوس الآن .

وقال العم تشارلس : هذا شيء مؤسف ، مؤسف جداً .

فقال مستر ديدالوس : ماذا ؟ أكان يليق بنا أن نتخلى عنه تنفيذاً لأمر

الشعب الانجليزي ؟

فقال دانتي : لم يكن جديراً بالقيادة ، وقد أصبحت خطيئته معروفة

للجميع .

فقال مستر كاسي في برود : كلنا خطاة ، وذوو خطايا سوداء .

فقال مسز ريوردان : ويل للرجل الذي تأتي العثرة على يديه ، لخير له أن

يربط في عنقه حجر الرحي ويفرق في أعماق البحر من أن يُعثر على أحد هؤلاء

الصغار المؤمنين . هذه لغة المسيح عليه السلام .

فقال مستر ديدالوس ببرود : لو سألتني لقلت لك انها لغة سقيمة للغاية .

فقال العم تشارلس : سيمون ، سيمون ... الطفل .
فقال مستر ديدالوس : أجل ، أجل ... إنما كنت أعني الـ... لقد خطرت
ببالي لفة حمال المحطة السقيمة ... حسناً . هذا جميل . أرني طبقك يا ستيفن ،
يا عزيزي الصغير ، فلتأكل هذا الآن ، هيا .

وكوم بعض الطعام في طبق ستيفن وتناول العم تشارلس ومستر كاسي
قطعة كبيرة من الديك الرومي وعدة ملاعق من الحساء . ولم تأكل مسز ديدالوس
إلا القليل ، بينما جلست دانتي ويدها على حجرها وقد احمر وجهها . وأخذ مستر
ديدالوس ينبش بالشوكة في نهاية الطبق وقال : - هنا قطعة لذيدة الطعم نسميها
« أنف البابا » ، فإذا أراد أيُّ من السادة أو السيدات أن ...

وأمسك بقطعة من لحم الدجاج على طرف الشوكة ، ولكن أحداً لم يتكلم ،
فوضعها في طبقه وهو يقول :

- حسناً ، لن يلومني أحد لأنني لم أقدمها له . واني أعتقد أنه يجدر بي أن
أكلها لأن صحي ليست على ما يرام هذه الأيام الأخيرة .

وغمز بعينه لستيفن وأخذ في الأكل مرة أخرى بعد أن أعاد وضع
غطاء الطبق .

وساد الصمت بينما كان منهمكاً في الأكل . ثم قال :
- حسناً ، لقد ظل الطقس على صفائه على كل حال ؛ كذلك فقد وفقد على
المدينة كثير من الغرباء .

ولم يتكلم أحد ، وعاد يقول : أظن أن من حضروا إلى البلدة هذه المرة أكثر
من حضروا إليها في عيد الميلاد السابق .

وتطلع إلى الآخرين الذين أحضوا وجوههم على أطباقهم ، ولما لم يردّ عليه أحد
قال بعد لحظة في مرارة : - حسناً ، لقد نُقص علي عيد الميلاد على كل حال .
فقال دانتي : لا يمكن أن يكون هناك حظ أو بركة في بيت لا يحترم قسس
الكنيسة .

فألقي مستر ديدالوس سكينه وشوكته في الطبق بعنف وقال :
- إحترم ! أنحترم « بيللي ذا الشفتين » أم « وعاء الأمعاء » في « أرماج »؟
إحترام !

وقال مستر كاسي في رنة احتقار : لأمرء الكنيسة !

وقال مستر ديدالوس : لسائق عربية اللورد « ليتريم » .

فقال دانتى : إنهم رسل المسيح ، إنهم فخر بلادهم .

فقال مستر ديدالوس بفظاظة : وعاء الأمعاء ، إن وجهه يبدو وسيماً في
أوقات الراحة . آه لو رأيت هذا الرجل وهو يلحق قطعة من لحم الخنزير وبعض
الكرنب في يوم من أيام الشتاء الباردة . وقلب سحنته في حركة بهيمية وأخذ
يلحق شفتيه بصوت عال .

- ينبغي ألا تتحدث بهذه الطريقة أمام ستيفن يا سيمون ، ان ذلك
ليس طيباً .

فقال دانتى : سوف يتذكر كل هذا حين يكبر ، سيتذكر الكلام الذي قيل
في بيته ضد الله وضد الدين والقسس .

فصاح بها مستر كاسي عبر المائدة : فليذكر أيضاً الكلام الذي حطم به
القسس وأعوان القسس قلب « بارنل » ، وقادوه ككلاب الصيد إلى حتفه ،
فليذكر هذا أيضاً حين يكبر .

فصاح مستر ديدالوس : أولاد البغي . تضافروا عليه عندما سقط وباعوه
ومزقوه كالفئران في البالوعة . يا للكلاب الوضعاء ! وقد حضروا ما حدث
حضروا ما حدث بحق الإله !

فصاحت دانتى : لقد تصرفوا التصرف السليم ، لقد أطاعوا الأساقفة
والقسس ، يحق لهم الفخر بذلك .

فقال مسز ديدالوس : حسناً ، من البشاعة أن أقول انه لا يمكننا التخلص
من هذه المناقشات المنزعجة حتى ولو يوماً واحداً في السنة .

ورفع العم تشارلس يديه في وداعة وقال : هيا ، هيا ، ألا يمكننا الاحتفاظ
بأرائنا مهما كانت بدون إظهار الطبع السيئة والكلام السيء ؟ انه لشيء
يؤسف له .

وتحدثت مسز ديدالوس إلى دانتي في صوت خفيض ، ولكن دانتي أجابت
بصوت مرتفع : لا يمكنني السكوت ، سأدافع عن كنيسة وديني إذا ما أهانها
الزنادقة الكاثوليكيون وبصقوا عليها .
فأبعد مستر كاسي طبقه إلى منتصف المائدة وارتكز برفقيه أمامه وقال
في صوت خشن لمضيفه :

— قل لي ، هل قصصت عليك قصة البصقة المشهورة ؟
فقال مستر ديدالوس : كلا ، انك لم تفعل يا جون .

فقال مستر كاسي : انها قصة يجدر بالمرء أن يتعلم منها . لقد حدثت منذ
وقت ليس بالبعيد في مقاطعة « ويكلو » التي كانت تقع في نفس هذا المكان الذي
نحن فيه الآن .

وقطع حديثه والتفت إلى دانتي وقال في حنق هادئ :
— يحق لي أن أقول لك يا سيدتي انك إذا كنت تعنيني بما قلت ، فأنا لست
زنديقاً كاثوليكياً . انني كاثوليكي مثلما كان والدي من قبلي وجدي من قبله ووالد
جدي من قبله ، عندما كنا نبيع أرواحنا ولا نبيع إيماننا .

فقال دانتي : يزيد من عارك هذا الكلام الذي تقوله الآن .
فقال مستر ديدالوس مبتسماً : القصة يا جون ، فلتعض في قصتك على
أية حال .

فرددت دانتي في سخرية : كاثوليكي حق !. إن أحقر بروتستانتي لم يكن
ليقول هذا الكلام الذي سمعته هذا المساء .
فأخذ مستر ديدالوس هيز رأسه إلى الأمام وإلى الخلف ويدندن كما يفعل المعني
الريفني . وقال مستر كاسي وقد احمر وجهه :

— يحق لي أن أخبرك مرة أخرى انني لست بروتستانتياً .

وأخذ مستر ديدالوس وهو سادر في هز رأسه ودندنته، يغني في نغمة صادرة من أنفه :

تعالوا يا أتباع الكاثوليكية الرومانية
يا من لم تحضروا قداساً واحداً .

ثم تناول سكينه وشوكته في مرج ، وأخذ في تناول الطعام وهو يقول لمستر كاسي : فلنسمع القصة يا جون ، فسوف تساعدنا على الهضم .

ونظر ستيفن في مودة إلى وجه مستر كاسي الذي كان يتطلع عبر المائدة خلال ذراعيه المتشابكتين . كان يحب أن يجلس بقربه عند المدفأة وينظر إلى وجهه المكفهر القاسي .

ولكن عينيه السوداوين لم تكونا أبداً قاسيتين ، وكان صوته البطيء محبباً للأصماع ، ولكن لماذا يهاجم القسس الآن ؟ لا بد وأن تكون دانتي على حق . غير انه سمع والده يقول ذات مرة انها راهبة ضالة، وانها قد تركت دير «ألفانيا» عندما حصل أخوها على بعض النقود من المتوحشين في مقابل بعض الخلى والمصوغات. وربما يكون هذا هو سبب مغالاتها في عداؤها لبارنل. وهي لم تكن تحب أن تراه يلهو مع «إيلين» لأنها بروتستانتية ، ولأنها كانت في طفولتها تعرف أطفالاً تعودوا اللهو مع البروتستانت الذين يسخرون من بعض ابتهالات العذراء المقدسة . كانوا يقولون وهم سادرون في سخريتهم بالمذهب الكاثوليكي انها البرج العاجي والبيت الذهبي . كيف يمكن أن تتسم امرأة بالبرج العاجي أو البيت الذهبي ؟ ومن يكون على حق إذن ؟ وتذكر ذلك المساء في المستشفى في مدرسة «كلونجوز» ، المياه الخالكة ، والضوء عند الميناء ، وعويل الأسف يصدر من الناس عند سماعهم النبأ .

يدا «إيلين» طويلتان بيضاوان . عندما كانا يلعبان ذات مرة معاً، وضعت يديها على عينيه ، يدان طويلتان بيضاوان ، رفيعتان باردتان ورقيقتان، هذا ما

يسمونه بالعاج ، شيء بارد أبيض ، وهذا ما يعنونه بالبرج العاجي .
قال مستر كاسي : القصة قصيرة جداً وطريفة أيضاً ، حدثت في أحد الأيام
هناك في مدينة «أركلو» في يوم قارس البرد قبل موت زعيمنا بقليل ، رحمه الله .
ثم أغمض عينيه في إرهاق وتوقف عن الكلام ، وتناول مستر ديدالوس
إحدى العظام من طبقه ونزع عنها اللحم بأسنانه ثم قال : تعني قبل أن يقتلوه .

وفتح مستر كاسي عينيه وتهد ثم واصل كلامه : حدثت القصة ذات يوم في
«أركلو» ، وكنا هناك لحضور أحد الاجتماعات . وكان علينا بعد نهاية الاجتماع
أن نشق طريقنا خلال الزحام إلى المحطة . وبالأصوات الامتعاض وثرغاء الماعز
الذي كان يتصاعد من كل مكان ! لقد أطلقوا علينا الشتائم بكل ما يعرفون
من ألفاظ السباب . وكانت هناك سيدة عجوز ، وبها من عجوز سكيرة شطءاء
بمعنى الكلمة ، كانت تلقي بكل اهتمامها إليّ . وأخذت تندافع يجاني في الوحل
تصرخ وتصيح في وجهي : « يا صائد القسس ، اعتمادات باريس المالية ! مستر
«لوكس» ! « كيتي أوشي » !

فسأل مستر ديدالوس : وماذا فعلت يا جون ؟

فقال مستر كاسي : تركتها تصخب ، فقد كان اليوم بارداً ، ولكي أنعش
فؤادي ، كنت أمضغ - مع عدم المؤاخذه يا سيدي - قطعة من التبغ في فمي ،
ولهذا لم يكن بإمكانني أن أتكلم على الاطلاق ، لان فمي كان مليئاً بلعاب التبغ .
- وماذا حدث بعد ذلك يا جون ؟

- حسناً ، تركتها تصخب حتى تريح ما في نفسها عن « كيتي أوشي » وبقية
ما تتحدث عنه ، حتى أطلقت هذه السيدة سباباً لن أدنس حفل عيد الميلاد
الليلة ولا أذنيك يا سيدي ولا شفتي بتريديه ثانية .

وتوقف عن الكلام ، وسأله مستر ديدالوس وهو يرفع رأسه عن العظيمة :
- وماذا فعلت يا جون ؟

فقال مستر كاسي : فعلت ؟ لقد رفعت إليّ وجهها المعجوز القبيح وهي

تقول هذا ، وكان فمي مليئاً بلعاب التبغ فملت نحوها وبصقت عليها ، هكذا .
والتفت جانباً وقام بالبصق .

– بصقت عليها هكذا ، في وسط عينيها تماماً .
ورفع يديه إلى عينيه يغطيها بهما وأطلق صيحة ألم حادة .
– وصرخت السيدة بعدها : يا يسوع ، يا ماري ، يا يوسف ! لقد أغشي
بصري ، لقد أغشي بصري وغرقت .

وأوقفته نوبة سعال وضحك ، ثم ردد :
– لقد أغشي بصري تماماً .

وضحك مستر ديدالوس عالياً ، واضطجع في مقعده بينما أخذ العم تشارلس
يهز رأسه يمنة ويسرة .

وبدت دانتي في شدة الغضب ، وأخذت تردد بينما هم يضحكون :
– جميل جداً .. ها .. جميل جداً .

لم تكن تلك البصقة في عيني المرأة بالشيء الجميل أبداً . ولكن ما هو ذلك
السبب الذي أطلقته المرأة على « كيتي أوشي » والذي رفض مستر كاسي أن
يقوله ؟ وتمثل في خاطره صورة مستر كاسي وهو يسير بين جماعات الناس ويلقي
الخطب من العربية الصغيرة ، لقد دخل السجن من جراء ذلك ، وانه يذكر ان
الجاويش « أونيل » حضر إلى المنزل في إحدى الأمسيات ووقف في الردهة
يتحدث في صوت خفيض مع والده ويمضغ شريط قبعته في عصبية . ولم يذهب
مستر كاسي هذه الليلة إلى دبلن بالقطار ، بل حضرت عربية إلى باب المنزل وسمع
والده يذكر بعض الكلام عن طريق « كابنتيلي » .

كان مستر كاسي ووالده من مناصري إيرلندا « وبارنل » ، وكذلك دانتي ،
فذات ليلة حين كانت الفرقة الموسيقية تمزف في أرض الاحتفالات ضربت رجلاً
على رأسه بمظلتها لأنه خلع قبعته حين عزفت الفرقة لحن « حفظ الله الملكة » في
نهاية العرض .

وأطلق مستر ديدالوس زفرة احتقار وقال : - آه يا جون ، انهم على حق ،
اننا شعب سيء الحظ يتحكم فينا القسس ، وكنا دائماً كذلك وسنبقى دائماً هكذا
حتى نهاية الكون .

وهز العم تشارلس رأسه وهو يقول :

- شيء مؤسف ، شيء مؤسف .

وردد مستر ديدالوس : شعب يتحكم فيه القسس وينبذه الرب .

وأشار إلى صورة جدّه المعلقة على الحائط على يمينه وقال :

- أترى هذا الرجل العجوز يا جون ؟ لقد كان ايرلندياً معتزلاً بوطنه في
وقت كان ذلك الاعتزاز لا يجلب شيئاً على صاحبه . وقد حكم عليه بالإعدام لأنه
كان عضواً في الجماعة السرية . وقد قال مرة عن « أصدقائنا » القسس انه لا
يمكن أبداً أن يسمح لأحد منهم أن يضع قدمه تحت سقف بيته .

فصاحت دانتى في غضب : - إذا كنا شعباً يتحكم فيه القسس فيجب علينا
أن نفخر بذلك . انهم عين الله ، وقد قال المسيح عنهم « لا تتسوهم بأذى ، فإنهم
قرة عيني » .

فسأل مستر كاسي : ولكن أليس لنا أن نحب وطننا إذن ؟ أليس لنا أن
نتبع الرجل الذي خلق لزعامتنا ؟

فأجابت دانتى : إنه خائن لوطنه ، انه خائن زان . ان القسس على حق
لتخليهم عنه ، لقد كان القسس دائماً أصدقاء ايرلندا المخلصين .

فقال مستر كاسي : « أكلنا كذلك حقاً » . وألقى بقبضة يده على المائدة ،
ثم أخذ يبسط أصبعاً وراء آخر وهو يعبس غاضباً مستطرداً :

- ألم يحنُتاً أساقفة ايرلندا في وقت الاتحاد حين انحاز الاسقف « لاينجان »
إلى جانب الماركيز (كورنواليس) ؟ ألم يبع الأساقفة والقسس مطالباً بلدهم عام
١٨٢٩ مقابل تحرير الكاثوليكية ؟ ألم يهاجموا الحركة « الغنيانية » من على المنابر
وفي حجرات الاعتراف ؟ ألم يمثلوا برفات « ترنس بيلو ما كانوس » ؟

وكان وجهه متوهجاً من الغضب ، وشعر ستيفن بالوهج يرتفع في وجنته هو ، فقد هزته هذه الكلمات . وأطلق مستر ديدالوس ضحكة احتقار شديد وصاح :
أوه يا إلهي ، لقد نسيت «بول جولن» العجوز ، عين أخرى من عيون الله !
ومالت دانتي عبر المائدة وصاحت في مستر كاسي : - على حق ، على حق ،
انهم على حق دائماً ، الله والأخلاق والدين أولاً وقبل كل شيء .
وقالت مسز ديدالوس لها بعد أن لاحظت غضبها : - لا تثيري غضبك بالرد
عليهم يا مسز ريبوردان .

وصاحت دانتي : الله والدين قبل كل شيء . الله والدين قبل الدنيا كلها .
فرفع مستر كاسي يديه المنقبضتين وضرب بها على المائدة وصاح في حدة :
- حسناً جداً ، إذا كان الأمر كذلك فليس هناك إله لايرلندا .

فصاح مستر ديدالوس وهو يمسك بردن معطف ضيفه : جون ! جون !
وشخصت دانتي بعينها عبر المائدة وخداها يرتجفان . وحاول مستر كاسي
النهوض من مقعده ومال على المائدة نحوها وهو يلوح أمامه في الهواء بإحدى
يديه كأنما يمزق أستار أحد العناكب ، وصاح قائلاً :
- ليس لايرلندا إله ، لقد ضقنا ذرعاً بالإله ، فخذوه بعيداً .

فصرخت دانتي وهي تقفز على قدميها وتكاد تبصق في وجهه : أيها الكافر ،
أيها الشيطان .

وجذب العم تشارلس ومستر ديدالوس مستر كاسي وأعادوه إلى مقعده مرة
أخرى وهما يتحدثان إليه من كلا الجانبين محاولين تهدئته . وكان يتطلع أمامه
بعينه السوداوين الحادثتين مردداً : ابعدوا الإله عنا .

وأزاحت دانتي مقعدها في عنف وغادرت المائدة . وقلبت أثناء ذلك حلقة
المنشفة فتدحرجت في بطء على البساط حتى استقرت بجانب أرجل أحد المقاعد
الكبيرة . ونهض مستر ديدالوس في عجلة وتبعها إلى الباب . وعند الباب التفتت
دانتي في حدة وصاحت وقد توهجت وجنتاها وارتعشتا من فرط الغضب :

— أيها الشيطان الجهنمي ! لقد انتصرنا ، لقد قهرناه حتى مات ، أيها الشيطان .
وانصفق الباب خلفها .
وبعد أن خلس مستر كاسي ذراعيه من كانا يسكانه ، أحنى رأسه فجأة على
يديه وأجهش بالبكاء من الألم ، وصاح بصوت مرتفع باك :
— أيها المسكين بارنل ، يا مليكي الذي مات .
وبكى بصوت عال مرير . وعندما رفع ستيفن وجهه الذي ارتسم عليه الهلع
رأى عيني والده وقد اغرورقتا بالدموع .

* * *

كان التلاميذ يتحدثون في جماعات صغيرة ؛ وقال أحدهم :
— لقد أمسكوهم بالقرب من تل « ليونز » .
— من الذي أمسكهم ؟
— مستر « جليسون » والقس ، كانا يركبان إحدى العربات .
وأضاف نفس هذا التلميذ :
— لقد سمعت هذا من أحد تلاميذ الصف الأعلى .
وسأل « فلمنج » : ولكن لماذا هربوا ؟
فقال « سيسبل تندر » : أنا أعرف السبب . لقد سرقوا بعض النقود من
غرفة المدير .
— ومن الذي سرقها ؟
— شقيق « كيكهام » ، واشترك الجميع في ذلك .
— ولكن هذه سرقة ، كيف استطاعوا أن يفعلوا ذلك ؟
وقال « ولز » : انك تعرف قسماً كبيراً من الموضوع يا تندر ، أما أنا فأعرف
لماذا هربوا !
— اخبرنا اذن عن السبب .

فقال ولز : ليس لي أن أفشي ذلك .

فقال الجميع : أوه ... أخبرنا يا ولز ، أخبرنا على ألا نقول لأحد شيئاً .

ومد ستيفن رأسه إلى الأمام ليسمع . ونظر ولز حوله ليرى ما إذا كان أحد قادماً ثم قال في سرية : أتعرفون نبيذ الهيكمل الذي يحتفظون به على أحد الرفوف في أحد المقدسات ؟

— أجل .

— حسناً ، لقد شربوا ذلك النبيذ . وقد اكتشفوا من شربه عن طريق الرائحة . وقد هربوا لذلك السبب .

فقال التلاميذ الذي تكلم أول مرة : أجل ، هذا ما سمعته أيضاً من تلميذ الصف الأعلى .

وصمت جميع التلاميذ ، ووقف ستيفن بينهم منصتاً وهو يخشى أن يتكلم . وغمره شعور واهن بالرهبة جعله يشعر بضعفه . كيف استطاعوا أن يفعلوا ذلك؟ وجالت بفكره غرفة المقدسات المظلمة الهادئة ، هناك رفوف خشبية سوداء بسطت عليها الأوشحة الكهنوتية المطوية . وعلى المرء أن يتحدث عنها في رهبة ووجل ، فرغم أنها ليست الكنيسة إلا أنها مكان مقدس . وتذكر تلك الأمسية في فصل الصيف حين ذهب إلى هناك ليرتدي ملابس حامل « القارب » في مساء الذهاب إلى الهيكمل الصغير في الغابة . مكان غريب مقدس . وكان الصبي الممسك بالمخزرة قد رفعها عالياً من سلسلتها الوسطى حتى يظل الفحم مشتعلًا ، إنه يُسمى الفحم النباتي ، وقد اشتعل في هدوء حين أخذ الصبي يهزه في رفق وصدرت عنه رائحة حادة خفيفة . وعندما ارتدى الجميع ملابسهم للاحتفال تقدم هو بالقارب إلى المدير فوضع هذا فيه ملء ملعقة من البخور الذي أخذ يثر على الفحم المشتعل .

كان التلاميذ يتحدثون في جماعات صغيرة هنا وهناك في الملعب . وبدأ

التلاميذ صغار الحجم في عينيه ، ذلك لأن أحد المتسابقين وهو تلميذ في الصف الثاني يقسم القواعد قد اصطدم به وألقاه أرضاً نهار أمس ، حين ألقته دراجة التلميذ برفق على أرض السباق فكسرت نظارته إلى ثلاث قطع ، ودخل بعض الحصى ورماد الطريق في فمه . ولهذا السبب بدا له التلاميذ على هيئة أصغر وعلى مسافة أبعد ، وبدت له قوائم المرمى في الملعب رفيعة بعيدة والسماء الرمادية الهادئة على علو شاسع . ولم يكن هناك أحد في ملاعب كرة القدم ، فقد كانوا يعمدون للعبة الكريكت ؛ وقد قال البعض إن « بارنز » سيكون رئيس الفريق وقال البعض الآخر إنه سيكون « فلاورز » .

كان التلاميذ يلعبون بالكرة ويسددون الضربات على امتداد أرض الملعب . ومن هنا وهناك كانت تتردد أصوات مضارب الكريكت خلال الهواء الرمادي الهاديء ، وكانت أصداؤها : « بيك باك بوك بك » تبدو كقطرات ماء الينبوع تتساقط في بطن على القدح الممتلىء حتى حافته .

وقال أثنائي في هدوء ، وكان ملازماً الصمت : - كلكم على خطأ .

فالتفت الجميع نحوه في فضول .

- لماذا ؟

- أتعلم أنت ؟

- من قال لك ؟

- أخبرنا يا « أثنائي » .

فأشار أثنائي نحو الملعب حيث يسير « سيمون موانان » وحده يتسلى بركل الأحجار التي أمامه ، وقال : أسأله .

فنظر التلاميذ إليه وقالوا : - لماذا نسأله ؟

- أهو مشترك معهم ؟

وخفض أثنائي من صوته وقال :

- أتعلمون لماذا هربوا ؟ سوف أخبركم ولكن عليكم ألا تفشوا ما ستعرفونه .

— أخبرنا يا أثنائي ، هيا ، عليك أن نخبرنا إذا كنت تعلم .

فصمت لحظة ثم قال بغموض :

— لقد ضبطوا مع « سيمون موانان » و « تسكر بويل » في دورة المياه في

إحدى الليالي .

فنظر إليه التلاميذ وسألوه :

— ضبطوا ؟

— ماذا كانوا يفعلون ؟

فقال أثنائي : يفعلون شيئاً سخيفاً .

وصمت جميع التلاميذ . وقال أثنائي : — وهذا سبب هربهم .

ونظر ستيفن إلى وجوه التلاميذ ، غير أنهم كانوا يتطلعون ناحية الملعب .
وشعر برغبة في سؤال أحدهم عن هذا الموضوع . ماذا يعنون بفعل شيء سخيف
في دورة المياه ؟ ولماذا هرب تلاميذ الصف الأعلى الخمسة من أجل ذلك ؟ وخطر
بباله أن الأمر مجرد مزاح . إن سيمون موانان يرتدي ملابس جميلة ، وقد أراه
ذات ليلة كرة بها بعض الحلوى كان بعض تلاميذ الفريق الخامس عشر لكرة
القدم قد ألقوا بها إليه على البساط وسط المطعم عندما كان يجلس بجانب الباب .
كان ذات ليلة المباراة ضد فريق « بيكتيف رانجرز » ، وكانت كرتة على هيئة
تفاحة حمراء وخضراء وبالامكان فتحها وهي مليئة بالحلوى . ذات يوم قال
« بويل » أن الفيل له نوبان بدلاً من نابين ولهذا فقد أطلقوا عليه « نوبي بويل »
ولكن بعض الزملاء أطلقوا عليه اسم مدام بويل لأنه كان مشغولاً على الدوام
بتقليم أظافره .

لإيلين أيضاً يدان طويلتان نحيلتان باردتان بيضاوان لأنها فتاة ، وكانتا
شبهتين بالعاج ، غير أنها رقيقتان ، وهذا هو معنى البرج العاجي . ولكن
البروتستانت لم يتمكنوا من فهم ذلك وسخروا منه . وقف ذات مرة بجانبها
يتطلعان إلى فناء الفندق . كان هناك خادم يرفع أعلاماً مزينة على السارية بينما

يعدو كلب من كلاب الصيد مذعوراً هنا وهناك على الحشائش المشمسة . وضعت يدها في جيبه حيث كانت يده ، وشعر بيدها باردة نحيلة رقيقة . قالت إن الجيوب شيء مضحك حقاً ثم انطلقت فجأة تجري عبر منحني المر المنحدر . وتطاير شعرها خلفها كأسلاك الذهب تحت أشعة الشمس . البرج العاجي ، البيت الذهبي . تستطيع فهم الأشياء ب مداومة التفكير فيها .

ولكن لماذا ضربوا في دورة المياه ؟ إن المرء يذهب إلى هناك إذا ما أراد القيام بعمل ما . كان بناؤها بكتل أحجار الأردواز ، وتنسرب المياه طوال اليوم من بين البلاط الصغير ، وهناك رائحة غريبة للمياه الراكدة بها . وخلف أحد أبواب إحدى الدورات رسمٌ بالقلم الأحمر لرجل ذي لحية يرتدي ملابس رومانية ويحمل حجراً في كلتي يديه ، وقد كتب تحت الرسم :

« كان باليوس يبني جداراً »

لا بد أن تلميذاً رسمها هناك للمزاح . فقد كان للرسم وجه مضحك ، غير أنه شبيه برجل ذي لحية . وعلى جدار دورة أخرى كتب في خط جميل :

« كتب يوليوس قيصر الكالينكو بيللي »

قد يكون هذا هو سبب ذهابهم هناك ، فهو المكان الذي يكتب فيه بعض التلاميذ نكاتهم . ومع ذلك فإن ما قاله « أائي » غريب وكذلك الطريقة التي قاله بها . لم يكن ما فعلوه من قبيل المزاح لأنهم هربوا . وتطلع مع الآخرين إلى الملعب وشعر بالخوف يتملكه .

وأخيراً قال « فلمنج » :

– وهل يعاقبوننا على ما جناه غيرنا !

وقال « سيسل تندر » : لن أعود للمدرسة ثانية ، وسترون ذلك . ثلاثة أيام دون كلام في المطعم مع الضرب بالمسطرة لأقل شيء .

فقال ولز : أجل ، وكذلك فإن « فبارت » العجوز اتخذ طريقة جديدة لثني أوراق الجزاءات حتى لا تتمكن من فتحها لنرى كم ضربة سيعاقبنا بها ،

إني لن أعود كذلك .

فقال سيسل تندر : أجل ، كما أن العريف كان عند الصف الثاني قسم القواعد هذا الصباح .

فقال فلمنج : فلنقم بتمرد ، ألا توافقون ؟

وظل جميع التلاميذ صامتين . وكان الهواء ساكناً ، وأصوات مضارب كرة الكريكت تتردد أكثر بطئاً عن ذي قبل : بيك ، بوك . وسأل ولز :

— ماذا سيفعلون بهم ؟

فقال أثنائي : سيجلدون « سيمون مونان » و « تسكر » أما تلاميذ الصف الأعلى ، فقد خيروهم بين الجلد وبين الفصل من المدرسة .

وسأل التلميذ الذي تكلم أولاً : — وماذا سيختارون ؟

فأجاب أثنائي : لقد اختار الجميع الفصل ما عدا « كوريجان » الذي سيقوم مستر « جليسون » بجلده .

فقال سيسل تندر : إني أعرف السبب . إنه على حق ، في حين أخطأ الآخرون لأن ألم الجلد سيزول بعد قليل ولكن التلميذ الذي يفصل من المدرسة سيظل دائماً موصوماً بما حدث له ... وإلى جانب هذا فإن « جليسون » لن يجلده بشدة .

فقال فلمنج : يحسن به ألا يفعل .

وقال تندر : إن « سيمون مونان » و « تسكر سيسل » في موقف لا يحسدان عليه . ومع ذلك فأنا لا أظن أنها سيُجلدان . قد يضربونها بالمسطرة عدة مرات .

فقال أثنائي : كلا ، كلا ، سوف يُجلد كلاهما على عجيزتيهما .

فأخذ ولز يحك جسده ويقول مقلداً صوتاً باكياً : أرجوك أن تتركني يا سيدي .

فكشر أثنائي عن أسنانه وشمّر عن ردفني سترته وهو يقول :

لا مناص من ذلك
لا بد من هذا العمل
فيها إنزل سراويلك
لتضرب على عجيزتك

وضحك التلاميذ ، ولكنه شعر بالخوف. يراودهم . وكان يسمع أصوات مضارب كرة الكريكت من هنا ومن هناك خلال سكون الهواء الرمادي العليل : بوك . هذا مجرد صوت يتطرق إلى سمعه ، أما إذا كان الأمر يتعلق بالضرب ، فسوف يشعر بالألم . وللضرب بالعصا صوت أيضاً ، غير أنه يختلف عن هذا الصوت . يقول التلاميذ إن العصا قد صنعت من عظام الحيتان والجلد وحشيت بالرصاص من الداخل . وتساءل متعجباً عما يكون عليه الألم . هناك أصوات عديدة مختلفة ، فمثلاً للعصا الطويلة الرفيعة صوت صافر مدوّ . وتساءل كيف يكون الألم الناتج عن ضربة مثل هذه العصا . وشعر بالرعدة والبرودة من جراء تفكيره في ذلك الأمر ، ومما سمعه من أثاي أيضاً . ولكن ما الذي أضحكهم في ذلك الموضوع ؟ سبب له هذا رجفة ، ذلك لأننا نشعر دائماً بالرجفة حين نزل سراويلنا ، تماماً كما يحدث في الحمام حين ننزع ملابسنا. وتساءل عن سيقوم بإنزالها ؛ المدرّس أم التلميذ بنفسه . أوه ... كيف يضحكون على ذلك بهذه الطريقة ؟

ونظر إلى أردان أثاي المرفوعة لأعلى ، وإلى يديه المعروقتين الملتطختين ببقع الخبر . لقد شمر عن أردانه ليمثل كيف سيقوم مستر جليسون بالجلد . ولكن أردان مستر جليسون مستديرة براقة ومعصمه نظيفان أبيضان ويديه سميتان بيضاوان كما أن أظافره طويلة مدببة . قد يكون معنياً بتقليم أظافره كما يفعل ليدي بويل ، ولكنها كانت أظافر طويلة مدببة بصورة مزعجة . إنها تبدو طويلة قاسية مع أن اليدين البيضاوين السميتين لم تكونا قاسيتين بل رفيفتين . وعلى الرغم من رعدة البرد والخوف التي أحس بها عند تفكيره في الأظافر الطويلة

القاسية وصوت العصا الصافر المدوي ، والرعدة التي نحس بها عند نهاية القميص عندما نخلع ملابسنا ، فقد كانت تخامر فؤاده بهجة غريبة هادئة حين تخطر بباله اليدان السمينتان البيضاوان لنظافتها وقوتها ورفقهما . وفكر فيما قاله سيسل تندر عن أن مستر جليسون لن يجد كوريجان بشدة . وقد قال فلمنج إنه لن يفعل ذلك لأنه يحسن به ذلك ؛ غير أن هذا ليس هو السبب .

وصاح صوت من أقصى الملعب : « إجمع » .

وصاحت أصوات أخرى : إجمع ! إجمع !

وجلس في حصة الكتابة ضاماً ذراعيه ، منصتاً إلى احتكاك الأقلام البطيء على الورق . وكان مستر هارفورد يحاول هنا وهناك ، يضع علامات صغيرة بالقلم الأحمر ، ويجلس أحياناً بجانب أحد التلاميذ ليبريه كيف يمسك بالقلم . وحاول أن يتهجى حروف العنوان المكتوب على السبورة بنفسه ، وكان يعرفه قبلاً لأنه كان آخر موضوع في الكتاب : « الحماس بدون تبصر كالسفينة الجانحة » ولكن الحروف بدت له خيوطاً خفية ، ولم يكن يستطيع أن يتبين ملامح الحرف الكبير كاملة إلا بإغماض عينه اليمنى تماماً والنظر من خلال العين اليسرى . غير أن مستر هارفورد كان لطيفاً جداً ولم يفضب مطلقاً ، مع أن جميع المدرسين الآخرين تجتاحهم نوبات جاححة من الغضب . ولكن... لماذا يتحملون هم مغبة ما فعله تلاميذ الصف الأعلى ؟ قال ولز : إنهم شربوا بعض نبيذ الهيكل من على رف غرفة المقدسات وإنهم قد كُشفوا من شربه عن طريق الرائحة . لعلمهم سرقوا مشهدة الكنيسة ليهربوا بها ويبيعوها في مكان ما . لا بد أنها خطيئة رهيبة : يتسللون هناك بهدوء في الليل ، ويفتحون قمطراً ويسرقون ذلك الشيء المضيء الذهبي حيث يوضع الإله على الهيكل وسط الزهور والشموع عند طلب البركة ، بينما يتصاعد البخور كالسحب من كلا الجانبين حين يهز التلميذ البخرة ، ودمونيك كللي يعني أول جزء بنفسه مع الكورس . ولكن الإله لم يكن فيها بالطبع حين سرقها التلاميذ . ومع ذلك فمجرد لمسها خطيئة كبرى وغريبة . وفكر في ذلك

برهبة شديدة ، خطيئة غريبة هائلة . وشعر بهزة الإنارة عند التفكير في ذلك خلال السكون الذي يشقه صوت احتكاك الأقلام في رفق . ولكن شرب نبيذ الهيكلمن على القمطر واكتشاف ذلك عن طريق الرائحة خطيئة كذلك ، ولكنها ليست خطيئة هائلة أو غريبة ، كل ما تثيره هو إحساس خفيف بالسقم من رائحة النبيذ . عندما تناول القربان المقدس لأول مرة في الكنيسة أغمض عينيه وفتح فمه وأخرج لسانه قليلاً . وعندما انحى المدير لكي يناول القربان المقدس اشم رائحة نبيذ خفيفة تصدر عن أنفاس المدير من بعد نبيذ القداس . يا لجمال تلك الكلمة : نبيذ . إنها تحمل أفكارك إلى اللون الأرجواني الداكن لأن العنب أرجواني داكن يزرع في اليونان أمام منازل تشبه المعابد البيضاء . ولكن أنفاس المدير الخفيفة جعلته يشعر بإحساس سقيم صباح يوم تناول القربان لأول مرة . يوم تناول القربان المقدس لأول مرة هو أسعد أيام حياتنا . وذات مرة سأل القواد نابليون عن أسعد يوم في حياته ، وكانوا يظنون أنه سيقول إنه اليوم الذي ربح فيه معركة عظيمة أو اليوم الذي نُصّب فيه إمبراطوراً ، غير أنه قال : إن أسعد يوم في حياتي أيها السادة هو اليوم الذي تناولت فيه القربان المقدس لأول مرة .

ودخل الأب أرنال الفصل وبدأ درس اللغة اللاتينية . وظل ساكناً وهو منحني على القمطر وقد طوى ذراعيه ، ووزع الأب أرنال كراريس الواجبات وقال إنها شيء مشين وإن عليهم أن يعيدوا ما كتبوه مع التصحيحات في الحال . وكان أسوأها جميعاً هو كراس فلننج لأن صفحاته كانت ملتصقة بعضها ببعض الآخر بلطخ الخبر . وأمسكها الأب أرنال من طرفها وقال : إن تقديم مثل هذه الكراسة إلى المدرس إهانة له . وبعد ذلك طلب من جاك لوتون أن يصرف الاسم Marc ، وتوقف جاك عند المفرد القابل ولم يستطع تعريف الجمع . فقال الأب أرنال في صرامة : يجب أن نخجل من نفسك وأنت قائد الفصل . ثم سأل تلميذاً آخر ، وآخر ، وآخر .

ولم يعرف أحد . وهذا الأب أرناك ، وكان هدوءه يزداد كلما يحاول تلميذ
الاجابة ثم يعجز . ومع أن صوته كان هادئاً إلا أن وجهه كان مكفهرًا وعينيه
تبرقان . ثم سألت فلمنج ، وأجاب فلمنج أن الكلمة ليس لها جمع . وفجأة أغلق
الأب أرناك الكتاب وصاح فيه :

— إركع هناك في أقصى الفصل ، فأنت واحد من أبلد من صادفت في حياتي .
أما الآخرون فليعيدوا كتابة الواجب ثانية .

وتحرك فلمنج في تشاقل خارجاً من مكانه وركع بين القمطرين الأخيرين .
وانحنى التلاميذ الآخرون على كراريس الواجبات وبدأوا في الكتابة . وملاً
السكون غرفة الدراسة ، ولاحظ ستيفن وهو ينظر في خوف إلى وجه الأب
أرناك المكفهر أن الحمرة قد شابهته قليلاً من تأثير الغضب الذي انتابه .

أيكون الأب أرناك قد أخطأ حين ثار غضباً ، أم يُسمح له بأن يغضب حين
يكون التلاميذ بلداء ، حتى يحملهم ذلك على أن يحسنوا استذكار دروسهم ، أم
يكون قد تعود على الغضب ؟ لا بد أن ذلك مسموح له ، لأن القس يعرف
الخطيئة ولا يرتكبها . ولكن ، لو أنه وقع فيها مرة عن طريق الخطأ ، ماذا
يفعل كي يعترف بها ؟ ربما يُسر باعترافه إلى راعي الكنيسة في هذه الحالة . ولو
وقع راعي الكنيسة في الخطيئة فإنه يعترف للمدير ، والمدير لزعيم الإقليم ، وزعيم
الإقليم لزعيم الجزويت . يسمون هذا بالنظام الجزويتي ، وقد سمع والده يقول
ذات مرة إنهم كلهم رجال ماهرون . كان بإمكانهم أن يصبحوا رجالاً ذوي
مكانة في الدنيا لو لم يختاروا الانضمام للجزويت . وتساءل عما كان من الممكن أن
يصبح عليه الأب أرناك وبادي باريت ، وكذلك مستر ماك جلاذ ومستر جليسون
لو لم ينضموا للطائفة الجزويت . من الصعب تصوّر هذا ، لأن عليك في هذه الحالة
أن تتصورهم على حالة مختلفة ، بمعاطف ملونة وسراويل مختلفة ولحى وشوارب ،
وأنواع مختلفة من القبعات .

وفتح الباب في هدوء ثم أغلق .

وسرت همهمات سريعة بين أرجاء الحجره ... العريف . وساد الفصل
سكون تام أعقبه صوت ضرب بالعصا عند آخر قمطر .
وقفز قلب ستيفن من الخوف .

وصاح العريف : ألا يوجد أحد هنا يستحق الضرب أيها الأب أرنال ؟ ألا
يوجد كسول بليد يستحق الجلد في هذا الفصل ؟
وتوجه إلى منتصف الحجره وأبصر فلمنج راكعاً على ركبتيه .

وصاح : هوه ... من هذا الصبي ؟ لماذا يركع هكذا ؟ ما اسمك أيها الفتى ؟
- فلمنج يا سيدي .

- هوه ... فلمنج ! أحد الكسالى طبعاً ، إني أرى ذلك في عينيك . لماذا
يركع على ركبتيه أيها الأب أرنال ؟

فقال الأب أرنال : لقد كتب واجب اللاتيني غاية في السوء ، ولم يستطع
الإجابة على أي سؤال في القواعد .

فصاح العريف : لقد فعل ذلك بالتأكد ، لقد فعل ذلك بالتأكد . إنه
كسول بفطرته . إني أرى ذلك في طرف عينه .

وهبط بالعصا على القمطر محدثاً دويماً عالياً وصاح : إنهض يا فلمنج ، إنهض
يا فتى .

ونهض فلمنج في بطاء .

وصاح العريف : إفتح يدك .

ومد فلمنج يده ، وهبطت العصا عليها في صوت عال : واحد ، اثنين ،
ثلاثة ، أربعة ، خمسة ، ستة .

- اليد الأخرى !

وهبطت العصا مرة أخرى في ست ضربات سريعة عالية .

وصاح العريف : إركع هناك .

وركع فلمنج وهو يعتصر يديه تحت إبطيه ، وقد تقلص وجهه من الألم .

وكان ستيفن يعلم مبلغ قدرة يدي فلمنج على تحمل الألم ، لأنه كان يدهنها بالزيت . ولكن ربما كان الألم الذي شعر به عظيماً لأن صوت العصا كان مهولاً . وأخذ قلب ستيفن يبدق ويخفق .

وصاح العريف : هيا إلى عملكم جميعاً ! لا تزيد كسالى بلداء هنا ، هؤلاء الكسالى المبلدين المحتملين ، إلى عملكم . سيحضر الأب دولان ليراكم كل يوم ، سيحضر الأب دولان غداً .

ثم وخز أحد التلاميذ في جنبه بعصاه وقال له :
- أنت أيها الصبي ، متى سيحضر الأب دولان ثانية ؟
فأجاب صوت توم فيرلونج : - غداً يا سيدي .
فقال العريف : غداً وغداً وغداً . إجملوا ذلك في حسابكم ، سيحضر الأب دولان كل يوم . هيا إلى كتابتكم . أنت أيها الصبي ، من أنت ؟
وقفز قلب ستيفن بغتة :

- ديدالوس يا سيدي .
- ولماذا لا تكتب كالأخرين ؟
- أنا ... إن ...
ولم يستطع الكلام من فرط الخوف .
- لماذا لا يكتب هذا الصبي أيها الأب أرنال !
فقال الأب أرنال : لقد انكسرت نظارته ، وقد أعفيتها من الكتابة .
فقال العريف : انكسرت ؟ ما هذا الذي أسمعه ؟ ما هذا الذي تقول ، انه اسمك ؟

- ديدالوس يا سيدي .
- أخرج من هنا يا ديدالوس ، أيها المخادع الصغير الكسول . إني أرى الخداع في وجهك . أين كُسرت نظارتك ؟
وتعثر ستيفن في وسط الفصل وقد أعماه الخوف والمجلة .

وأعاد العريف قوله . أين كُسرَت نظارتك ؟

فصاح العريف : أوه ... طريق السباق ؟ إني أعرف هذه الحيلة .

فرفع ستيفن عينيه في دهشة وشاهد في لحظة خاطفة وجه الأب دولان الرمادي الذي تجاوز سن الشباب ، ورأسه الرمادي الأصلع وقد ملأ الزغب جوانبه ، وأطراف نظارته الحديدية ، وعينيه اللتين لا لون لهما تتطلعان من وراء النظارة . لماذا قال إنه يعرف هذه الحيلة ؟

وصاح العريف : أيها المتبلد الصغير الكسول ! كسرت نظارتي . حيلة قديمة يلجأ إليها التلاميذ . إبسط يديك حالاً .

فأغمض ستيفن عينيه ومد ذراعه المرتجفة في الهواء ورفع راحته إلى أعلى . وشعر بالعريف يمسها مساً خاطفاً بعصاه عند الأصابع ليقومها . ثم شعر بردن السترة يشق الهواء حين رفع العصا ليضربه بها . ونزلت عليه ضربة حارقة واخزة مجلجلة كصوت مدوّ لعصا تنكسر ، جعلت يده المرتجفة تتقلص مثل ورقة الأشجار في النيران . وبعث الصوت والألم بالدموع الحارقة إلى عينيه ، وأخذ جسده يرتجف من الخوف ، وذراعه ترتجف ، ويده المتقلصة المحترقة الزرقاء ترتجف كورقة شجر يتلاعب بها الهواء . وارتفعت صرخة كالصلاة إلى شفثيه ، وكان على وشك إطلاقها ، ولكنه أمسك بدموعه الساخنة وحبس الصرخة التي أحرقت حلقة رغم الدموع التي تحرق عينيه وارتجاف الألم والخوف في أطرافه .

وصاح العريف : يدك الأخرى .

فسحب ستيفن ذراعه اليمنى العاجزة المرتجفة ومد يده اليسرى . وشق رदन السترة الهواء ثانية عند رفع العصا . وحوّل الصوت الساحق والألم القاسي الجنوبي الحارق المجلجل يده وراحته وأصابعه إلى كومة زرقاء راجفة . وانهبجست الدموع الحارقة من عينيه ، وسحب ذراعه المرتجفة في رعب وهو يحترق بالخبزي والحزن والخوف . وانفجر يعول من آلامه . وأخذ جسده يرتجف

رجفة الخوف . وفي موجة الخزي والغضب شعر بالصرخة الحارقة تنطلق من حلقه والدموع الحارقة تتساقط من عينيه على خديه المتوهجين .

وصاح العريف : إركع هناك .

وركع ستيفن بسرعة وهو يعتصر يديه المضروبتين بين جنبيه . وبعث تفكيره في يديه وقد ضربتا وتورمتا من الألم في لحظة خاطفة شعور الأسف في نفسه كالم تكونا يديه بل يدي شخص غيره يشعر بالأسف لهما . وبينما هو راكع يهدى غصصه الأخيرة في حلقه ويشعر بالألم الحارق المجلجل مدفوناً بين جنبيه ، جالت بخاطره اليدان اللتان مدّهما في الهواء براحتين مرفوعتين، ولمسة العريف الثابتة لهما ليقوّم الأصابع المرتجفة، وكومة الراحة والأصابع المضروبة المتورمة المحمرة التي كانت ترتجف في يأس في الهواء .

وصاح العريف من عند الباب : هيتا إلى عملكم جميعاً . سيحضر الأب دولان كل يوم ليري ما إذا كان أي صغير كسول بليد يحتاج للجلد ، كل يوم ، كل يوم . وأغلق الباب خلفه .

واستمر التلاميذ في صمتهم يكتبون الواجب . ونهض الأب أرنال من مقعده وأخذ يتجول بينهم ، يساعد الصبية بكلمات لطيفة ويصحح لهم الأخطاء التي وقعوا فيها . كان صوته لطيفاً جداً ورقيقاً . ثم عاد إلى مقعده وقال فلمنج وستيفن :

— عودا أنتما الاثنان إلى مكانكما .

ونهض فلمنج وستيفن ، وسارا إلى مقعديهما وجلسا ، وفتح ستيفن كتاباً بيد واحدة ضعيفة — وقد احمر وجهه من الخجل — وانحنى عليه مقرباً وجهه من الصفحة . كان ما حدث ظلماً وقسوة ، لأن الطبيب قال له ألا يقرأ دون النظارة ، وقد كتب إلى والده هذا الصباح ليرسل له نظارة جديدة . وقد سمح له الأب أرنال بالأيستدكر دروسه حتى تحضر النظارة الجديدة ... ثم يلقبه العريف بالمخادع أمام التلاميذ ويضربه في حين أنه يحصل دائماً على المرتبة الأولى

أو المرتبة الثانية وهو قائد فريق يورك! وكيف يستطيع أن يعرف أنها خدعة؟
وشعر بلمس أصابع العريف حين كان يقوّم يده... في البداية ظن أنه سيصافحه
لأن أصابعه كانت رقيقة ثابتة ، ولكن بعد لحظة قصيرة سمع رذن السترة يشق
الهواء وصوت الضربة يجلجل . إن ركوعه في وسط الفصل أمر ظالم قاس ،
وقد طلب منها الأب أنال العودة إلى مكانيهما هما الاثنان دون أي تمييز بينهما .
وأنصت إلى صوت الأب أنال الخفيض اللطيف وهو يصحح الواجبات للتلاميذ؛
ربما يكون قد شعر بالأسف ويرغب أن يكون رقيقاً . ولكن هذا ظلم وقسوة .
إن العريف قس ديني ورغماً عن ذلك فإن ما فعله ظلم وقسوة ، وكان وجهه
الرمادي وعيناه اللتان لا لون لهما تبديان نظرات القسوة من وراء النظارة ذات
الإطار المعدني لأنه مدّ أصابعه اللينة الثابتة ليقوّم من يده أولاً لكي تكون
الضربة شديدة وذات صوت داوٍ .

قال فلمنج في الردهة حين كان التلاميذ يمرون في الصفوف إلى المطعم : - يا
له من فعل ديني، حقير أن يضرب تلميذ لا ذنب له .

وسأل ناستي روش : إن نظارتك قد كسرت بحض الصدفة ، أليس كذلك ؟
وشعر ستيفن بقلبه يغص بما قاله فلمنج ولم يرد .

فقال فلمنج : طبعاً ؛ لو حدث لي ذلك ما احتملت ، بل ذهبت وشكوته
للمدير .

فقال سيسل تندر بحماس : أجل ، وفوق ذلك فقد رأيت يرفع العصا فوق
مستوى كتفه ، وليس مصرحاً له أن يفعل ذلك .

فسأل ناستي روش : هل آلمتك الضربات كثيراً ؟
فقال ستيفن : جداً .

فعاد فلمنج يقول : لم أكن لأتحمل ذلك ممن في مرتبة الأب دولان أو ممن
على شاكلته ، إنها حيلة دنيئة قدرة منحطة ، بل كنت أذهب إلى المدير وأخبره
بذلك بعد الغداء مباشرة .

فقال سيسل تندر : أجل ، إفعل ذلك ، أجل .
وقال ناستي روش : أجل ، إفعل ذلك ، أجل . إذذهب وأشكته للمدير
يا ديدالوس ، لأنه قال إنه سيأتي غدأ مرة أخرى ليضربك .
فقال الجميع : أجل ، أجل ، قل للمدير .

وكان بعض تلاميذ الصف الثاني قسم القواعد ينصتون للحديث وقال أحدهم :
— لقد أعلن مجلس الشيوخ والشعب الروماني أن ديدالوس قد عوقب ظلماً .
هذا خطأ ! هذا ظلم وقسوة . وطوال جلسته في المطعم كان يعاني المرة تلو
المرة نفس الإذلال حين يتذكر ما حدث ، حتى بدأ يتساءل عما إذا كان هناك
شيء في وجهه يجعله يبدو كالخادع ، وود لو أن لديه مرآة ليرى فيها ذلك .
غير أن هذا لم يكن ممكناً ، ولم يكن ما حدث سوى ظلم وقسوة وجور .

ولم يستطع أن يأكل شرائح السمك السوداء التي كانوا يقدمونها لهم يوم
الاربعاء في أيام الصوم الكبير ، كما أن إحدى حبات نصيبه من البطاطس كانت
تحمل علامة المحرفة . أجل ، سيفعل ما أشار عليه به زملاؤه .

سيذهب ويخبر المدير بأمر العقاب الذي نزل به دون وجه حق . لقد حدث
في التاريخ شيء مثل هذا قبلاً قام به شخص عظيم قرأ عنه في كتب التاريخ .
وسيلن المدير أنه قد عوقب بدون وجه حق لأن مجلس الشيوخ والشعب
الروماني دائماً يعلنون أن الرجال الذين يحدث لهم ما حدث له قد عوقبوا دون
وجه حق ، كانت أسماء هؤلاء الرجال العظماء مدونة في كتاب « اسئلة ريتشمال
ماجنال » . إن التاريخ كله يدور حول هؤلاء الرجال وعن أعمالهم ، وكذلك
تدور قصص « بيتر بارلي » عن اليونان وروما حول الموضوع نفسه . وهناك
صورة لبيتر بارلي نفسه في أول صفحة من الكتاب . ويجانب صورته طريق في
أعلى مرج مليء بالحشائش وبعض الشجيرات الصغيرة . وليتر بارلي قبعة عريضة
مثل التي يرتديها القسس البروتستانت وعصا ضخمة ، ويبدو في الصورة مغدأ
السير نحو اليونان وروما .

إن ما عليه أن يفعله سهل للغاية . ليس عليه بعد انتهاء الغداء وخروجه إلا أن يواصل السير ليس خارج الردهة بل إلى الدور الأعلى على اليمين في الطريق المؤدي لإدارة المدرسة . ما عليه إلا أن يقوم بهذا : أن يعرج يمينا ويغد السير نحو الدور الأعلى ، وفي نصف دقيقة سيكون في الردهة الواطئة المظلمة الضيقة التي تؤدي إلى حجرة المدير عن طريق مبنى المدرسة . وقد قال التلاميذ جميعهم إن هذا ظلم ومنهم تلميذ الصف الثاني بقسم القواعد الذي ذكر في حديثه مجلس الشيوخ والشعب الروماني .

ماذا سيحدث ؟

وسمع أصوات تلاميذ الصف الأعلى ينهضون في أقصى المطعم من الأمام وسمع صوت خطواتهم وهم يعبرون أرض الغسل : « بادي رات » و « جيمي ماجي » والاسباني والبرتغالي ، أما الخامس فكان كوريجان الكبير الذي سيقوم مستر جيسون بجلده . كان هذا سبب دعوة العريف له بالمحادثة وضربه له بدون سبب . ويجهد من عينيه الضعيفتين اللتين أرهقتها الدموع شاهد كنفى كوريجان الكبير العريضتين ورأسه الكبير الأسود المعلق بينهما تمر في الصف . ولكن هذا التلميذ ارتكب خطأ ما ، ويجانب ذلك فإن مستر جيسون لن يجلده بشدة . وتذكر مبلغ الضخامة التي يبدو عليها كوريجان في الحمام . إن جلده في مثل لون ردة المياه المغطاة بالحشائش في طرف الحمام الضحل ؛ وعندما يسير على أحد الجوانب تصطقق قدماه بصوت عال على أحجار القرميد المبتلة ، ويهتز فخذه قليلاً عند كل خطوة لأنه كان سمينا .

خلا المطعم من نصف التلاميذ وما زال الباقي يخرجون في الصفوف . في إمكانه الصعود للدور الأعلى إذ لا يوجد قسوس ولا عريفون خارج باب المطعم . ولكنه لن يستطيع الذهاب ، سوف ينحاز المدير إلى جانب العريف ويظن أنها مجرد حيلة تلاميذ ، وحينئذ سيأتي العريف كل يوم وسيكون الأمر أسوأ من ذي قبل لأنه سيكون شديد القسوة على أي تلميذ يشكوه للمدير . لقد نصحه

زملاؤه بالذهاب غير أنهم لم يكونوا ليذهبوا هم أنفسهم ، وقد نسوا كل شيء عن الأمر الآن . كلا ، من الأفضل نسيان الأمر تماماً ، ولربما لم يكن العريف يعني بأنه سيحضر كل يوم سوى مجرد القول فقط . كلا ، من الأفضل الابتعاد عن طريق العاصفة لأن المرء حين يكون صغيراً في السن والحجم ففي إمكانه تجنب ذلك .

ونفض التلاميذ الجالسون إلى منضدته ، ونفض هو وسار إلى الخارج بينهم في الصف . لا بد له أن يحزم أمره . إنه يقترب من الباب . وإذا استمر في السير مع التلاميذ فإنه لن يتمكن من الصعود للمدير مطلقاً لأنه من المستحيل بعد ذلك أن يترك الملعب لذلك الغرض . ولو أنه ذهب للمدير ثم ضرب رغباً عن ذلك فسيهزأ به التلاميذ جميعهم وسيحدثون عن ديدالوس الصغير الذي صعد للمدير ليشكو العريف .

كان يسير عبر الغل ، وشاهد الباب أمامه . هذا مستحيل ، إنه لا يستطيع الذهاب . وخطر بباله رأس العريف الأصلع وعيناه القاسيتان اللتان لا لون لهما ، تتطلعان إليه ، وسمع صوت العريف يسأله مرتين عن اسمه . لماذا لم يتذكر الاسم عندما قال له أول مرة ؟ ألم يكن منتبهاً أم كان يريد أن يسخر من اسمه ؟ إن عظماء التاريخ لهم مثل هذه الأسماء ومع ذلك لم يسخر منهم أحد . وإذا كان يريد أن يسخر من شيء فليسخر من اسمه هو : دولان ، إنه شبيه بأسماء الفسالات .

ووصل إلى الباب ، وانحرف بسرعة نحو اليمين ثم صعد السلم ودخل الردهة الواطئة المظلمة الضيقة التي تؤدي إلى الإدارة قبل أن يتمكن من التفكير في العودة . وبينما هو يعبر مدخل باب الردهة - وبدون أن يدبر رأسه لينظر - شاهد جميع التلاميذ يتطلعون بأبصارهم خلفه وهم يسرون في صفوفهم .

وعبر الردهة الضيقة المظلمة بعد أن مر على بعض الأبواب الصغيرة ، أبواب غرف أفراد الطائفة . ونظر أمامه وعلى يمينه ويساره خلال العتمة وخطر بباله

أن أمامه بعض الصور . كان الاظلام والصمت يكتنفان المكان ، وعيناه ضعيفتين أتعبتهما الدموع ، ولذلك لم يتمكن من الرؤية ، غير أنه كان يظن أنها صور قديسين وكبار رجال الجزويت الذين كانوا ينظرون إليه من عل في صمتهم وهو يمر بهم : القديس اغناطيوس لويولا ، ممسكاً بكتاب مفتوح ويشير إلى ما كتب فيه من كلمات : « إلى مجد الله وعظمته » ، والقديس « فرانسيس إكسافير » يشير إلى صدره ، و « لورنزو ريتشي » وعلى رأسه البيريه كأحد عريفي الفصول ، ثم مناصري الشباب المقدس الثلاثة : القديس « ستانيلوس كوستكا » والقديس « ألويسيوس جونزاجو » والمقدس « جون بير شمانز » ، وكلهم ذوو وجوه شابة لأنهم ماتوا في شبابهم ، ثم الأب « بيتر كيني » جالساً على مقعد مرتدياً عباءة فضفاضة .

وخرج إلى مهبط الدرج الذي يقع فوق ردهة المدخل ونظر حوالبه .. لقد قُتِل « هاملتون روان » في هذا المكان ، وما زالت علامات رصاص الجنود ظاهرة . وفي هذه المنطقة أيضاً شاهد الخدم المسنين الشبح الذي يرتدي عباءة الماريشال .

وكان هناك خادم يكنس الأرض عند مهبط السلم ، فسأله عن مكان حجرة المدير . وأشار الخادم العجوز إلى باب في الطرف الأقصى وشخص إليه بعينه حين ذهب نحوه وقرع الباب .

ولم يأته أي رد ، فقرع الباب ثانية بصوت أعلى وقفز قلبه حين سمع صوتاً مكتوماً : - ادخل !

وأدار المقبض وفتح الباب وأخذ يتلمس مكان مقبض الباب الداخلي المكسو بالقطنية الخضراء ، وعثر عليه وفتحه ودخل .

وشاهد المدير جالساً إلى المكتب منهمكاً في الكتابة ، وكانت هناك جمجمة على مكتبه ، بينما رائحة عجيبة وقورة كرائحة جلد المقاعد تملأ الغرفة . وأخذ قلبه يدق في سرعة حين دخل هذا المكان الوقور وبسبب السكون

الذي يسود الغرفة . ونظر إلى المجموعة وإلى وجه المدير الطيب .
وقال المدير : حسناً أيها الرجل الصغير . ماذا تريد ؟
وازدرد ستيفن لعابه وقال : - لقد كسرت نظارتني يا سيدي .
ففتح المدير فمه وقال : « أوه » ثم ابتسم وقال :
- حسناً ، إذا كسرنا نظارتنا فيجب أن نكتب لمزملنا حتى يبعثوا لنا
بنظارة جديدة .
فقال ستيفن : لقد كتبت للمنزل يا سيدي ! وقد سمح لي الأب أرنال بعدم
الاستذكار حتى تأتي النظارة الجديدة .
فقال المدير : حسناً جداً .
وازدرد ستيفن لعابه مرة ثانية وحاول جهده أن يمنع ساقبه وصوته من
الارتعاد : - ولكن يا سيدي ...
- ماذا ؟
- لقد حضر الأب دولان اليوم وضربني لأنني لم أكن أحل واجبي .
ونظر المدير إليه في صمت ، وشعر بالدم يصعد إلى وجهه والدموع توشك على
الانبجاس من عينيه .
وقال المدير : إن اسمك هو ديدالوس ، أليس كذلك ؟
- أجل يا سيدي .
- وأين كسرت نظارتك ؟
- في أرض السباق يا سيدي ، حين كان أحد التلاميذ منطلقاً من مكان
الدراجات فسقطت وكسرت النظارة ، كما أنني لا أعرف اسم هذا التلميذ .
ونظر إليه المدير ثانية في صمت ، ثم ابتسم وقال : - أوه ... حسناً ،
لقد حدث هذا عن طريق الخطأ ، إني واثق أن الأب دولان لم يكن يدري
ذلك .
- ولكنني أخبرته أنها كسرت يا سيدي وقد ضربني رغم ذلك .

فسأله المدير : وهل قلت له إنك كتبت لمنزلك في طلب نظارة جديدة ؟
- كلا يا سيدي .

فقال المدير : حسناً إذن . إن الأب دولان لم يفهم ذلك . يمكنك أن تقول
إنني أعفيك من دروسك بضعة أيام .
فقال ستيفن بسرعة خوفاً من أن يمنعه ارتعاده من الكلام . أجل يا سيدي ،
ولكن الأب دولان قال إنه سيأتي في الغد لكي يضربني على ذلك مرة
أخرى .

فقال المدير : حسناً جداً ، إنها غلطة وسوف أتحدث إلى الأب دولان
بنفسي . أيكفي هذا الآن ؟
وشعر ستيفن بالدموع تبلبل عينيه وتمتم :
- أوه ... أجل يا سيدي ، شكراً .

ومدّ المدير يده عبر جانب المكتب الذي وضعت عليه الجمجمة ، وشعر
ستيفن براحة يده الباردة الرطبة وهو يضعها في يده للحظة خاطفة .
وقال المدير وهو يسحب يده وينحني : والآن ، طاب يومك .
فقال ستيفن : طاب يومك يا سيدي .

وانحنى ثم سار في هدوء خارج الحجرة وهو يفتلق الأبواب في حرص
وبطء .

ولكنه بدأ يسير في سرعة أكثر فأكثر حين خلف الخادم المعجوز وراءه
على مهبط الدرج ودخل ثانية في الردهة الواطئة المظلمة الضيقة . وزاد في سرعته
أكثر وأكثر خلال العتمة ، وضرب الباب القصي بكوعه وأسرع هابطاً الدرج
ثم سار بسرعة عبر الردهتين وخرج إلى الهواء الطلق .

وترددت في سمعه صيحات التلاميذ في الملاعب . وأخذ يجري ، وأسرع
أكثر وأكثر في جريه ، وجرى عبر أرض السباق ووصل إلى ملعب الصف
الثالث وهو يلهث .

وشاهده التلاميذ وهو يجري ، والتفوا حوله في حلقة وهم يتدافعون لكي يسمعوا .

– أخبرنا ، أخبرنا !

– ماذا قال ؟

– هل دخلت ؟

– ماذا قال ؟

– أخبرنا ! أخبرنا !

وأخبرهم بما قاله ، وبما قاله المدير .

وبعد أن أخبرهم بذلك ، قذف جميع التلاميذ بقبعاتهم في الهواء وصاحوا :
– مرحى ...

وأمسكوا بقبعاتهم ثم قذفوها عالياً مرة أخرى إلى عنان السماء وصاحوا
ثانية :

– مرحى !... مرحى !

وتشابكت أيديهم على شكل حلقة ورفعوه فيما بينهم وحمله حتى اضطروا إلى مقاومتهم ليتركوه . وحين نجح في الهرب منهم تفرقوا في كل ناحية وهم يقذفون بقبعاتهم عالياً في الهواء مرة أخرى ويصفرون أثناء ذلك ويصيحون :
– مرحى ...

ثم أطلقوا بعض صيحات السخوط على القس دولان وثلاث هتافات « لكونمي » وقالوا إنه أطف مدير جاء « لكلونجوز » .

وماتت الصيحات في الهواء الرمادي الهادي . وأصبح وحيداً . كان سعيداً حراً ، ولكنه لم يكن بأي حال مزهواً بما فعله بالأب دولان . سيكون في منتهى الهدوء والطاعة ؛ وود لو يفعل شيئاً طيباً له كي يثبت له أنه ليس مزهواً بما فعله .

كان الهواء هادئاً رمادياً رقيقاً ، وكان المساء يوشك على الهبوط ، والهواء

يعبق برائحة المساء ، رائحة الحقول في الريف حيث ينبشون الأرض بحثاً عن رؤوس اللفت يقشرونها ويأكلونها حين يذهبون للنزهة إلى « هيجور بارتون » ، وتلك الرائحة تنبعث هناك من الغابة الصغيرة الواقعة خلف المنطقة المليئة بجوز العفص .

وكان التلاميذ يتدربون على قذف الجلة الطويل وعلى لعب الكرة والعقد البطيء . وفي السكون الرمادي الهاديء كان يسمع وقع ضربات الكرات ، ومن هنا وهناك كانت تتردد أصوات مضارب الكريكيت خلال الهواء الساكن : بيك ، ياك ، بوك ، يك ، مثل قطرات ماء الينبوع تتساقط في رقة على قسح ممتلىء حتى الحافة .

إعتاد العم تشارلس تدخين نوع رديء من التبغ ، حتى أن ابن أخيه اقترح عليه آخر الأمر أن يستمتع بتدخينه كل صباح في الكوخ الصغير الذي يقع في نهاية الحديقة . وقال العجوز في هدوء : « حسناً جداً ، يا سيمون ، وهو كذلك يا سيمون ، في أي مكان تريد . سيناسبني الكوخ الصغير تماماً ، فهو صحي للغاية » . فقال مستر ديدالوس دون مواردية : علي اللعنة... آه لو أعرف كيف تدخن مثل هذا التبغ الخفيف ، انه شبيه بالبارود وحق الإله » . فأجاب العجوز : إنه لطيف جداً يا سيمون ، هادىء ومسكن .

وعلى ذلك ، أخذ العم تشارلس يختلف إلى كوخه الصغير كل صباح بعد أن يلمع شعر قداله ويمشطه ، ثم ينظف قبعته الطويلة ويرتديها . وحين ينهملك في التدخين ، لا يبدو منه وراء باب الكوخ غير حافة قبعته العالية وطرف غليونه . وكان قد اعتاد أن يفني في « خميلته » وهو الإسم الذي أطلقه على الكوخ الصغير الذي يشارك فيه القطة وأدوات الحديقة . كان يندندن صباح كل يوم في سعادة بإحدى أغانيه المفضلة مثل : « أوه... إزرع لي خميلة » أو « عيون زرقاء وشعر أصفر » ، أو « أدغال بلارني » ، وترتقع في أثناء ذلك طيات الدخان الرمادية والزرقاء ببطء من غليونه وتحتفي في ثنايا الهواء النقي .

وكان العم تشارلس رفيق ستيفن الدائم أثناء الشطر الأول من الصيف في « بلاك روك » . والعم تشارلس رجل عجوز قوي أسمر البشرة جامد الأسارير ،

أبيض العارضين . وكان قد اعتاد إنجاز بعض المهام بين المنزل الذي يقع في شارع « كاريسفورت » والمحلات التي تتعامل معها العائلة في الشارع الرئيسي للمدينة . وقد سعد بصحبته في هذه الجولات ، لأن العم كثيراً ما كان يغترف له في سخاء من كل ما هو معروض في المحل في الصناديق والبراميل المفتوحة إلى جانب مائدة الصراف ، فقد يحدث أن يمسك بحفنة من العنب ومخلفات النشارة ، أو ثلاث تفاحات أو أربع ، ويدسها بسخاء في يد ابن أخيه ، في حين يتسم البائع لذلك في قلق . وحين يتصنع ستيفن التردد في أخذها يعبس العم ويقول : « خذها يا بني ؟ أتسمعي ؟ إنها تفيد معدتك » . وحين يفرغان من شراء كل ما تتضمنه القائمة ، يذهبان إلى المنتزه حيث يحدان « مايك فلن » وهو صديق قديم لوالد ستيفن - جالساً على أحد المقاعد ينتظرهما ، وعند ذلك يبدأ ستيفن في الجري حول المنتزه ، ويقف « مايك فلن » عند البوابة قريباً من محطة السكة الحديدية ، مسكاً بالساعة في يده . ويجري ستيفن حول الحديقة بالطريقة التي يفضلها « مايك فلن » : الرأس إلى أعلى ، والركبتان مشدودتان جيداً ، واليدان ملتصقتان بالجنبين . وحين ينتهي هذا التمرين الصباحي ، يبدأ المرء في سرد تعليقاته ، ويعمد أحياناً إلى تصوير ما يقوله فيسير بسرعة في حركات مضحكة ياردة أو ياردين وفي قدميه زوج من الأحذية المطاطية الزرقاء . ويتجمع أحياناً بعض الصبية والمربيات يرقبانه في دهشة وقد يبقون لمشاهدته عندما يجلس ثانية مع العم تشارلس يتناقشان في الرياضة والسياسة . ومع أن ستيفن قد سمع والده يقول إن مايك فلن قد أخرج بعضاً من أفضل رجال السباق من تحت يديه ، إلا أنه غالباً ما كان يتطلع إلى وجه ممرنه السمين المغطى بالقش وقد انحنى فوق أصابعه الطويلة المتربة التي يلف بها سيجارته ويرمق في عطف عينيه الوادعتين المنطفئتين اللتين قد تتركان متابعمة الأصابع حين تنتهي من لف السيجارة وتحملقان بغموض في الفضاء الأزرق ، ويعيد ما تبقى من أليفة التبغ إلى الكيس ثانية . وغالباً ما يعرج العم تشارلس في زيارة للكنيسة في طريق العودة إلى

المنزل . وكان الحوض الذي يحتوي على الماء المقدس عالياً ، فكان الرجل العجوز يدفع بقبضته إلى الماء وينثره برشاقة على ملابس ستيفن وعلى أرض الرواق .
وحيثما كان العم يصلي كان يركع على منديله الأحمر ويتلو الصلاة بصوت منخفض من كتاب صغير أسود اللون ، طبعت الكلمات الهامة في ذيل كل صفحة منه لجذب الانتباه . وكان ستيفن يركع إلى جانبه احتراماً لورعه ، وإن كان لا يشاركه هذا الورع . وكثيراً ما تساءل ستيفن متعجباً لم كان يصلي بكل هذا الخشوع . ربما كان يصلي للأرواح التي تعبر المطهر أو لكي يمن الله عليه بنهاية سعيدة ، أو ربما كانت صلاته لله عسى أن يرد إليه جزءاً من الثروة الضخمة التي بددها في « كورك » .

وفي يوم الأحد ، يخرج ستيفن مع والده وعمه العجوز في تريضهم المعتاد . وكان العجوز يسير في خفة على الرغم من الدماامل التي تملأ قدميه . وكانوا عادة يقطعون عشرة أو إثني عشر ميلاً . وكانت قرية « ستيلورجان » تقع في مفترق الطرق ، فكانوا يميلون إما إلى اليسار نحو جبال دبلن أو إلى طريق « جوتستون » ومنه إلى مدينة « دندرم » ، ثم يعودون إلى المنزل عن طريق « ساندي فورد » . وعندما يغذون الخطى على الطريق أو يقفون عند أحد المحلات العامة الكنيبة في الطريق ، كان الكبار يتحدثون دوماً عن الموضوعات المحببة إلى قلوبهم ، عن السياسة الأيرلندية ، وعن « مانستر » وعن الأساطير الشائعة عن عائلتهم ، وكان ستيفن يصغي إلى هذه الأحاديث بأذن نهمة . وكان يعيد الكلمات التي لا يفهمها مراراً وتكراراً حتى يحفظها عن ظهر قلب ، ويستشف عن طريقها بعض لمحات الدنيا الحقيقية التي تحوطه . وبدا اليوم الذي سيتخذ فيه مكانه في حياة هذه الدنيا يقترب ، وأخذ يستعد خفية لتأدية الدور الهام الذي شعر أنه ينتظره ، والذي لا يتفهم من طبيعته إلا أثراً غامضاً .

وأما الأمسيات فكان حراً فيها ، فينكب على قراءة نسخة ممزقة من ترجمة لرواية « الكونت دي مونت كريستو » . وكانت شخصية هذا المنتقم الغامض

تمثل في ذهنه رمزاً لكل شيء غريب مرعب سمعه أو جال بخاطره . وفي الليل ، كان يبني على مائدة حجرة الاستقبال صورة لكهف الجزيرة الرائعة من أوراق صكوك المبيعات والزهور الصناعية وورق اللف الملون وشرائط الورق الذهبي والفضي الذي تلف فيه الشيكولاتة . وحين كان يهدم ما بناه بعد أن يمل جماله الزائف تخطر على باله صورة مرسلينا ، والتكعيبات المشمسة ، ومرسيدس بطله الرواية . وعلى الطريق الذي يفضي إلى الجبال خارج « بلاك روك » ، يقع منزل صغير أبيض اللون في الحديقة التي تغص بها أشجار الورد ، وقال لنفسه إن مرسيدس أخرى تسكن في هذا البيت . وكان يقيس المسافة في ذهابه وإيابه بهذه العلامة . وقد عاش في سلسلة طويلة من المغامرات يزدحم بها خياله ، تبلغ في غرابتها مغامرات تلك الرواية ، وكانت تنتهي بصورة له وقد أضحى أكبر سناً وأكثر رصانة ، تقف في حديقة يضيئها القمر مع مرسيدس التي استهانت بحبه سنين كثيرة من قبل ، وهو يقول لها في حركة إباء حزينة ذات كبرياء : « إني لا آكل هذا النوع من الأعناب يا سيدتي » .

وصادق ولدأ يدعى « أوبري ميلز » ، وكون معه عصابة للمغامرات في شارعهم . وكان أوبري يحمل صفارة تتدلى من ثقب زره ومصباحاً صغيراً مشدوداً إلى حزامه ، في حين حمل الآخرون عصياً قصيرة مشدودة إلى أحزمتهم على هيئة الخناجر . وقد اختار ستيفن - وكان قد قرأ عن طراز ملابس نابليون المعادي - أن يظل بدون رسميات ، وقد ضاعف بذلك من مسرة استشارة الضباط له قبل إصدار الأوامر . وكان أفراد العصابة يغيرون على حدائق النسوة العجائز ، أو يذهبون إلى القلعة ويتحاربون هناك على الصخور المغبرة التي تنمو عليها الأعشاب ، ويعودون بعدها كالجوالين المتعبين ورائحة الشاطئ العفنة تملأ خياشيمهم وزيت البحر في أيديهم وعلى شعرهم .

وكان البائع الذي يحضر اللبن لعائلة أوبري وعائلة ستيفن واحداً ، وغالباً ما كانا يذهبان في عربته إلى « كاريكانيز » حيث الأبقار ترعى بين الحشائش .

وبينما الرجال منهمكون في حلب اللبن، يركب الأولاد الفرس الصغير كل بدوره حول الحقل . ولكن الأبقار دخلت حظائرها مع مقدم الخريف ، وأصبح منظر فناء البقر القدر عند « ستراد بروك » المليء بالبرك الخضراء القبيحة والروث السائل المتخثر وأجران النخالة ذات البخار يملاً فؤاد ستيفن بالأسى . أصبحت هذه الأبقار التي كانت تبدو في الريف غاية في الجمال في الأيام المشمسة تثير تقززها لدرجة لا يحتمل معها النظر إلى اللبن الذي تدره .

ولم يزعجه قدوم سبتمبر هذه السنة ، فلم يكن سيذهب ثانية الى كلونجوز . وتوقفت التمرينات التي كان يؤديها في الحديقة عندما ذهب « مايك فلن » الى المستشفى ، أما أوبري فكان مشغولاً في مدرسته وليس له من فراغ إلا ساعة أو ساعتان عند المساء ، لذلك فقد تفرقت العصابة ولم تعد هناك أي غارات في المساء أو معارك فوق الصخور .

وكان ستيفن يركب العربة التي تحضر اللبن في بعض الأحيان . وقد أزلت هذه الزهات الباردة ذكريات فناء البقر القدر ، ولم يشعر بأي تقزز عند مرأى شعر الأبقار والتبن المتناثر على معطف اللبان . وحينما تتوقف العربة أمام أي منزل كان ينتظر حتى يلمح مطبخ المنزل المصقول أو الردهة الخافتة الأنوار ، ولكي يلاحظ الطريقة التي تحمل بها الخادم الجرة والتي تغلق بها الباب . وجمال بخاطره أن الرحلة بالعربة كل مساء لتوزيع اللبن حياة جميلة ، لو كان لديه قفازات دافئة وكميات كبيرة من حبات الزنجبيل في جيبه يأكل منها أثناء الطريق . ولكن ذلك الارهاص الذي أسقم فؤاده والذي جعل ساقيه تنحنيان فجأة وهو يجري حول الحديقة ، ونفس هذا الاحساس الذي جعله ينظر في ريبة الى وجه مدربه السمين المغطى بالقش حين كان ينحني على أصابعه الطويلة الملوثة ، كل هذا بدد كل رؤى خطرت له عن المستقبل . وقد شعر بطريقة مبهمة أن والده يعاني بعض المتاعب ، وأن هذا هو سبب عدم عودته الى مدرسة كلونجوز . كما كان يشعر أحياناً بتغيير طفيف في منزله . وكانت هذه التغييرات

التي حدثت في الأشياء التي يؤمن بثباتها تمثل صدمات صغيرة لمفهومه الصبياني
للدنيا . ولم يكن الطموح الذي يشعر به أحياناً في ظلمات روحه يسعى إلى
إيجاد منفذ له . وأفعم ذهنه بظلام مثل الذي يملأ العالم الخارجي ، عند سماعه
وقع حوافر الحصان التي تضح عبر طريق العربة العامة على طريق « روك » ،
والعلبة الصفيحية الضخمة تتأرجح مجلجلة خلفه .

وعاد بذهنه إلى مرسيدس ، وزحف قلق غريب على دمانه حين كان يعكف
على صورتها . وأحياناً ، كانت تدفعه حمى عنيفة لأن يطوف وحيداً في المساء
عبر الطريق الساكن . وكان هدوء الحدائق والأنوار العطوفة في النوافذ تصب
الرقعة في قلبه المضطرب . وضايقته ضجة الأولاد وهم يرحون ، ودفعته أصواتهم
لأن يشعر – بأكثر حدة عما كان يشعر به في كلونجوز – أنه يختلف كثير
الاختلاف عن الآخرين . لم يكن اللهو هو ما يرغب فيه ، بل كان يريد أن يصادف
في العالم الواقعي الصورة المجسدة للبطل مرسيدس التي طالما تأقت إليها روحه .
ولم يكن يعرف المكان أو الطريقة التي ينشد بها هذه الصورة ، ولكن أنباء
شعور داخلي أنها ستصادفه دون أن يفعل شيئاً من جانبه . سوف يتقابلان في
هدوء كأنما يعرف أحدهما الآخر منذ مدة طويلة . وقد يحدث ذلك عند واحدة
من هذه البوابات ، أو في مكان آخر أكثر سرية . سيكونان وحدهما يحيط بهما
الظلام والسكون ، وسوف تعمل الرقعة العلوية على تغييره في هذه اللحظة ،
سيتحول تحت تأثير عينيها إلى شيء غير محسوس ثم يتغير كلية في لحظة واحدة ،
سيفارقه الضعف والخوف والسذاجة في هذه اللحظة السحرية .

* * *

توقفت قافلة العربات الصفراء ، ذات صباح أمام الباب ، ودخل المحالون
إلى المنزل لينقلوا الأثاث . وأخرجوا الأثاث عبر الحديقة الأمامية التي انتشرت
فيها أكوام القش وأطراف الحبال ووضعوه في العربات الضخمة الرابضة إلى

جانب البوابة . وعند ما تم ترتيب كل شيء تحركت العربات إلى الطريق في ضجة شديدة . وشاهد ستيفن هذه العربات تتناقل على طريق « الريون » من نافذة عربة القطار التي جلس فيها مع أمه دامعة العيينين .

لم تشعل النار في ذلك المساء ، وأسند مستر ديدالوس المحرك على قضبان سياج المدفأة الحديدية حتى يتم الاشتعال . وأخذ العم تشارلس إلى النعاس في ركن من أركان الغرفة ذات الأثاث الثقيل والخالية من الأبسطة ، وصورة العائلة مسندة إلى الجدار على مقربة منه . وألقى ضوء الصباح من فوق المنضدة نوراً واهناً على الأرض الخشبية المغطاة بالوحل الذي تخلف عن أقدام المحالين . وجلس ستيفن على مقعد يجوار والده ، ينصت إلى حديث طويل مفكك . لم يفهم منه في البداية إلا القليل أو لم يفهم شيئاً على الاطلاق ، ولكنه بدأ يدرك تدريجياً أن لوالده أعداء وسيقع شجار بينه وبينهم . وشعر أيضاً أنه سينضم إلى مثل هذا الشجار ، وأن بعض واجب قد ألقى على كاهله . ونفت تحوله عن الراحة والنعيم في « بلاك روك » ، وطوافه خلال المدينة المقبضة المغطاة بالضباب وتفكيره في المنزل العاري الكئيب الذي سيعيشون فيه الآن ، نفت كل ذلك الكآبة والحزن في قلبه ؛ ومرة أخرى انتابه شعور داخلي بما ستكون عليه الأيام القادمة . فهم كذلك سر تهامس الخدم معاً في الردهة ، وسبب وقوف والده على سياج المدفأة مولياً ظهره إلى النار وهو يتحدث بصوت مرتفع مع العم تشارلس الذي كان يحثه على الجلوس لتناول غدائه . وقال مستر ديدالوس الأب وهو يحرك النار في نشاط : « ما زال في نفسي بقية يا ستيفن ، لم نمت بعد يا بني العزيز . كلا ، وبحق السيد المسيح (وليغفر لي الله) لم نقرب حتى من الموت » .

وكانت دبلن بالنسبة له إحساساً جديداً معقداً . كانت السنون قد أثقلت على العم تشارلس حتى لم يعد قادراً على الخروج لشراء ما يحتاجون إليه من الخارج . وأتاحت ضجة الانتقال إلى المنزل الجديد لستيفن بحرية أكبر مما كانت

له في « بلاك روك » ، وقنع في البداية بالتجوال في حذر حول الميدان المجاور لمنزلهم ، أو بالسير حتى منتصف شارع جانبي على الأكثر . ولكن حين رسم في ذهنه خريطة للمدينة الجديدة ، اخترق شارع من شوارعها الرئيسية انتهى به إلى مبنى المحرك . ومضى يسير بين المرافىء والموانىء متعجباً من كثرة قطع الفلين التي تهتز وتتأرجح على صفحة المياه يحيطها الزبد الأصفر الثقيل ، ومن جموع حمالي الميناء وضجة العربات ورجل البوليس الملتحي ذي الملابس غير المناسبة . وأيقظت الحياة العريضة الغربية التي أوحتها إليه بالات البضائع التي رصت تجاه الجدار أو ألقيت بعيداً عن البواخر ، أيقظت مرة أخرى في نفسه ذلك القلق الذي بعث به جائلاً في المساء من حديقة إلى حديقة بحثاً عن مرسيدس .

وأحياناً ما يحدث وسط هذا الجو الصاحب أن يتخيل نفسه في مرسيليا التي جاء ذكرها في الرواية ، لولا أنه كان يفتقد السماء الساطعة وتكلمييات العنب التي تغمرها الشمس . وحين تطلع إلى الموانىء والبحر والسموات الخفيفة نما في نفسه شعور غامض بالسخط ، ومع ذلك فقد واصل تجواله هنا وهناك يوماً بعد يوم كأنما ينشد شخصاً براوغه .

وذهب مرة أو مرتين مسع والدته لزيارة بعض أقاربه . ومرّاً في الطريق ببعض المحلات الجميلة التي أضيئت وزينت احتفالاً بعيد الميلاد . ورغم ذلك لم تفارقه نوبة الصمت المرير . وكانت هناك أسباب كثيرة لهذه المرارة التي يشعر بها ، أسباب بعيدة عنه وأخرى متعلقة به ، كان يشعر بالسخط على نفسه لاستسلامه لبعض الدوافع القلقة التافهة وهو في هذه السن ، ساخطاً كذلك على تغيرات الأحوال التي تشكل العالم من حوله إلى رؤى من القذارة والخيانة . ومع كل هذا ، فلم يغير سخطه شيئاً من هذه الرؤى . ودأب على تسجيل ما يراه حوله في صبر ، مبقياً ذاته على مبعدة ، ومتذوقاً نكهته المميّنة خفية .

كان يجلس ذات مرة على مقعد المطبخ الصغير بمنزل عمته ، وكان هناك

مصباح ذو طاسة معلقاً على جدار المدفأة ذات الطلاء اللامع ، وعمته تقرأ على ضوءه صحيفة المساء وقد أسندتها إلى ركبتيها . وشخصت ببصرها مدة طويلة إلى صورة باسمة في الصحيفة وقالت في تأمل : « ما بل هنتر الجميلة » .

ووقفت فتاة مصفوفة الشعر على أطراف أصابعها لتتنظر إلى الصورة وقالت في رقة : أتقف في وسط الطين ؟

— إنها في مشهد تمثيلي صامت يا عزيزتي .

وأحنت الطفلة رأسها المصفف الشعر على رदन أمها وهي تحملق في الصورة وتمتت مخلوبة اللب : — « ما بل هنتر الجميلة » .

واستقر بصرها طويلاً على هاتين العينين الرصينتين الزاجرتين وتمتت في حرارة : — يا لها من مخلوقة بديعة .

وسمع كلماتها الصبي القادم من الطريق حاملاً كيس الفحم ، فأنزل حمله على الأرض وهرع إلى جانبها ليرى ، فأتلف أطراف الصحيفة بأصابعه الملونة بالأحمر والأسود ، وأخذ يزيح الفتاة شاكياً أنه لا يرى شيئاً . ومرة أخرى ، كان جالساً في حجرة الطعام الضيقة في أعلى المنزل القديم ذي النوافذ المعتمة ، والنيران الواهنة تلقي ظلها على الجدران ، بينما تتجمع عتمة كثيفة على النهر عبر النافذة . وانهمكت سيدة عجوز في عمل الشاي أمام النار . وقصت أثناء انهاكها في العمل ما قاله الطبيب والقس عن حالتها في صوت خفيض ، وعن تغيرات لاحظها عليها مؤخراً وعلى أحوالها وأقوالها الغريبة . وجلس ينصت إلى كلامها ويتتبع في خياله مسارب المغامرات المفتوحة أمامه على أكوام الفحم وعلى القناطر وفي السرايب وبين الأروقة المترجعة وفي الكهوف المثلومة .

وشعر فجأة بوجود شخص أمام مدخل الباب ، وظهر رأس تغلفه الغبشة التي تهيمن على المدخل . وكانت هناك مخلوقة شبيهة بالقردة ؛ أقبلت على هدى الأصوات التي تتحدث أمام النار . وانطلق صوت من عند الباب يقول : — أهذه جوزفين ؟

فأجابت المرأة المشغولة أمام النار في مرجح : كلا يا إيلين ، إنه ستيفن .
- أوه ... أوه ... مساء الخير يا ستيفن .

فرد التحية ، ولمح بسمه بلهاء على الوجه الذي يقف أمام الباب .
وعادت المرأة العجوز تسأل : أتريدن شيئاً يا إيلين ؟

ولكنها لم ترد على السؤال وقالت : لقد ظننت أنها جوزفين ؛ لقد ظننتك جوزفين يا ستيفن . وأخذت تردد ذلك مرات عديدة ثم أخذت تضحك في وهن .

ومرة أخرى كان يجلس وسط حقل للأطفال في « هارولد كروس » وقد ازدادت طبيعته الصامته اليقظة حدّة ، حتى أنه لم يشترك في أي من الألعاب . وكان الأولاد يرقصون ويمرحون هنا وهناك ، حاملين عليهم آثار ما تبقى من ألعابهم النارية . ورغم أنه حاول أن يشاركهم جذلم فقد شعر بنفسه شخصاً كئيباً وسط القبعات وأغطية الرأس المرحّة .

ولكنه بدأ يشعر بمتعة الوحدة بعد أن أدى أغنيته في الحفل وتراجع إلى ركن الغرفة المنزوي . وفعل المرح فعل النسبات الهادئة فيه ، بعد أن بدا له في بداية الحفل زائفاً تافهاً ، وعبر حواسه في بهجة ، سترأ عن أعين الآخرين فورة دمائه الشديدة التي تنتابه حين تمر نظراتها من خلال حلقات الراقصين والموسيقى والضحك إلى ركنه المنزوي ، محذرة مداهنة منقبة مثيرة فؤاده .

وفي نهاية الحفل ، وقف الأطفال الذين بقوا في الردهة يرتدون ملابسهم ؛ وألقت هي بوشاح على كتفها ، ثم ذهباً سوياً إلى العربية العامة ، ورذاذ من أنفاسها الطيبة الحارة يتطاير في جذل أمام رأسها المدثر ، بينما يدق حداؤها في سعادة على الطريق الزجاجي . واستقلا العربية العامة الأخيرة في هذه الليلة ، وكانما عرفت الجياد العجفاء الداكنة ذلك فأخذت تهز أجراسها في تلك الليلة الصافية تنبيهاً للناس . وكان التذكري يتحدث مع السائق ويومئ بأن برأسها مراراً على ضوء المصباح الأخضر . وانتشرت بعض أوراق التذاكر الملونة على

مقاعد العربية الخالية ، وتلاشى كل صوت على الطريق ، ولم يقطع سكون الليل شيء إلا حين تحك الجياد أنوفها بأنوف بعضها البعض فتتهتز أجراسها لذلك .

وبدا عليها الإنصات للأجراس ، وهو يقف على الدرجة العليا وهي على السفلى . وصعدت إلى درجته مرات عديدة وعادت إلى درجتها ثانية حين كانا يتبادلان الحديث . ووقفت مرة أو مرتين يجواره في الدرجة العليا بضع لحظات ناسية أن تنزل ، ثم تهبط ثانية . ورقص فؤاده لمشهد حركاتها كما تتراقص قطعة الفلين على الموج . وسمع ما تقوله له عيناها من وراء أجفانها ، وأدرك أنه سمع ما تقولانه قبل ذلك في ماضٍ سحيق في الحياة أو في الخيال . ورأها تستعرض فتنتها ، رداءها الجميل ووشاح زينتها ، وجواربها السوداء الطويلة ، وأدرك أنه استسلم لها آلاف المرات . ومع ذلك كان صوت داخل نفسه يتحدث حديثاً يعلو على ضجة فؤاده الراقص مسائل إياه : أياخذ هديتها ؟ وما كان عليه إلا أن يمد ذراعه ليأخذها . وتذكر يوم وقف هو وإبلين في فناء الفندق ، يراقبان الندل يرفعون أعلاماً على سارية من الخشب ، بينما كلب من كلاب الصيد يجري مذعوراً هنا وهناك على الحشائش المشمسمة ، وكيف أنها انفجرت فجأة في نوبة من الضحك وجرت تهبط على منحني الممر ، بينما وقف هو بلا حراك في مكانه - كما هو الآن - شاخصاً في هدوء لما يجري أمامه . وجمال بخاطره أنها تريده أن يمسك بها أيضاً ، ولهذا جاءت معه إلى العربية ، « إن باستطاعتي أن أمسك بها بسهولة حين تصعد إلى أعلى ، ولا أحد يرانا ، إن باستطاعتي أن أمسك بها وأقبلها » .

ولكنه لم يفعل شيئاً . وحين جلس وحيداً في العربية المهجورة ، مزق تذكرته إلى قطع صغيرة وحملق في وجوم في أرضية العربية المغضنة .

وجلس في اليوم التالي إلى مائدة الغرفة العارية عدة ساعات ، وقد وضع أمامه قلماً جديداً وزجاجة من الخبز ودفتر تمرينات جديداً . وكتب في أعلى الـ فحة الأولى - بدافع العادة - الحروف الأولى لشعار طائفة الجزويت :

« ا. م. ع. (١) » ، وظهر عنوان القصيدة التي كان يعالج كتابتها عند أول سطر من الصفحة : إلى إ. س. ؛ وكان يعلم أن هذه هي البداية الصحيحة ، فقد شاهد عناوين كثيرة مشابهة في ديوان شعر اللورد بايرون . وبعد أن كتب هذا العنوان ووضع تحته خطأ ، استغرق في أحلام يقظته وأخذ يرسم خطوطاً على غلاف الدفتر . تراءى لنفسه جالساً على المائدة في « براي » صبيحة النقاش الذي حدث في يوم عيد الميلاد على الغداء وهو يحاول أن يكتب قصيدة عن « بارنل » على ظهر إحدى مفكرات والده . ولكن ذهنه رفض حينذاك أن يعالج هذا الموضوع ، وحين توقف عن الكتابة ، غطى الصفحة بأسماء وعناوين بعض زملائه المعينين :

رودريك كيكام .

جون لوثون .

أنتوني ماكسويني .

سيمون موانان .

والآن ، يبدو أنه سيفشل مرة أخرى في الكتابة ، ولكن تركيز الفكر على الحادثة التي يريد الكتابة عنها جعله يشعر بثقة أشد ، وأبعد عن ذهنه خلال تلك العملية العناصر التي اعتبرها عادية عديمة الأهمية ، ولم يعد هناك أثر للعربة العامة نفسها أو رجال العربة أو الجياد ، بل ولم يعد هو أو هي يظهران في وضوح ، فدارت القصيدة التي كتبها حول الليل والنسمة اللطيفة وضياء القمر الوضاء . كان يكن شجن مبهم في فؤادي بطلي قصيدته إذ هما يقفان في صمت تحت الأشجار الجرداء . وحين حانت لحظة وداعهما وتبادلا قبلة كان أحدهما يمانع فيها من قبل . وبعد ذلك كتب الحروف : ل. د. س. في أسفل الصفحة . وبعد أن أخفى الدفتر مضى إلى حجرة أمه وحدث في وجهه في المرآة مدة طويلة.

(١) « إلى مجد الله العظيم » .

ولكن زمن فراغه وحريرته كان يدنو من نهايته ، ففي أحد الأيام عاد والده إلى المنزل محملاً بكثير من الأخبار شغله الحديث عنها أثناء الأكل .

وكان ستيفن ينتظر عودة والده ، فقد كان الطعام لهما مفروماً هذا اليوم ، وسيسمح له والده بأن يأكل من الصلصة . ولكنه لم يستطع مذاق اللحم ، لأن ذكرى مدرسة كلونجوز ملأت أطباقه بزبد من الاستياء .

قال مستر ديدالوس للمرة الرابعة : لقد مضيت إليه رأساً عند ركن الميدان . فقالت مسز ديدالوس : أعتقد إذن أنه سيتمكن من ترتيب موضوع مدرسة بلفدير الثانوية .

فقال مستر ديدالوس : سيتمكن من ذلك بالطبع ، ألم أخبرك أنه أصبح راعي الجزويت الآن ؟

وقالت مسز ديدالوس : إني لم أسترح قط لفكرة إرساله إلى مدارس الاخوة المسيحيين .

فقال مستر ديدالوس : لعنهم الله ! أذهب مع « بادي ستنك » و« ميكي مد » كلا ، فليبق مع الجزويت ما دام قد بدأ معهم فسوف ينفعونه في السنوات القادمة ، فبإمكانهم أن يهيئوا له عملاً .

– وهم أغنياء جداً ، أليس كذلك يا سيمون ؟

– نوعاً ما ، إنهم يعيشون عيشة طيبة . لقد رأيت مائدتهم في كلونجوز . إنهم يهتمون بالتغذية بحق الإله ، مثل ديوك القتال .

ودفع مستر ديدالوس بطبقه إلى ستيفن ودعاه إلى التهام ما فيه من طعام . وقال :

– والآن يا ستيفن ، يجب أن تعود إلى العمل يا عزيزي ، فقد حصلت على إجازة طويلة حقاً !

وقالت مسز دايدالوس : أوه... إني واثقة أنه سيعمل باجتهاد شديد ، خصوصاً حين يجد أخاه موريس معه .

فقال مستر ديدالوس : أوه ، بحق القديس بول ، لقد نسيت موريس ، تعال هنا يا موريس ، أيتها المشاكس الغبي ، أتعرف أنني سأبعث بك إلى المدرسة حيث يعلمونك هجاء ق - ط - ه قطه ، وسوف أشتري لك منديلاً صغيراً لطيفاً كي تحفف به أنفك ، أليس هذا جميلاً ؟
فابتسم موريس لوالده ثم لأخيه .

وثبت مستر ديدالوس نظارته على عينيه وهدق النظر في ولديه . ومضغ ستيفن طعامه دون أن يجيب على نظرات والده .

وقال مستر ديدالوس آخر الأمر : وبالمناسبة ، لقد حدثني المدير - أو هو الراعي على وجه الدقة - عن قصتك مع الأب دولان . إنك لص وقح .

فقالت مسز ديدالوس : كلا ، لم يقل ذلك حقاً يا سيمون ؟
فقال المستر ديدالوس : كلا ، كلا ، ولكنه قص عليّ تفاصيل الموضوع .
لقد كنا نتجادب أطراف الحديث ، والحديث ذو شجون . وعلى فكرة ، أتدرين ماذا قال لي عن سيحصل على وظيفة الهيئة ؟ ولكنني سأخبرك عن ذلك فيما بعد . حسناً ، فكما كنت أقول ، كنا جالسين نتحدث في ود وسألني عما إذا كان الصديق الصغير ما زال يرتدي النظارات ثم أخبرني بالقصة كلها .

- وهل كان مستاء يا سيمون ؟

- مستاء ؟ كلا ، لقد نعته بالرجل الصغير .

وقلد مستر ديدالوس النغمة الأنفية التي يتحدث بها راعي المدرسة وهو يقول على لسانه : « وحين أخبرت المدرسين بهذه القصة وقت الغداء ، ضحكت والأب دولان كثيراً عليها ، وقلت له : من الأفضل أن تراعي الحذر أيها الأب دولان وإلا فإن ديدالوس الصغير سيتسبب في عقابك ، لقد ضحكنا كثيراً على هذا ، هاهاها » . ثم تحول المستر ديدالوس إلى زوجته وقال ملاحظاً في صوته الطبيعي : « وهذا يريك الروح التي يعاملون بها الأطفال هناك ، آه ...

يا للحياة التي يعيشونها ، حياة دبلوماسية . ثم قلد صوت راعي المدرسة مرة ثانية وهو يردد : « لقد أخبرت المدرسين بهذه القصة وقت الغداء وقد ضحكنا وضحكنا كلنا على هذا ، ها ها ها » .

* * *

وحانت الليلة التي سيمثلون فيها تمثيلية عيد العنصرة ، وتطلع ستيفن في نافذة غرفة تغيير الملابس إلى الممر الصغير المغطى بالحشائش الذي تمتد على جانبيه صفوف المصابيح الصينية ، وشاهد الزوار يهبون درجات المبنى الرئيسي ويتجهون عبر الممر إلى المسرح . وكان الخدم في ملابس السهرة ، وخريجو المدرسة الكبار يتجمعون أمام مدخل المسرح في جماعات ويستقبلون الزوار في حفاوة . وتمكن من رؤية وجه أحد القسس وهو يضحك على ضوء توهج أحد المصابيح المفاجيء .

وكانوا قد أزاحوا القربان المقدس من على الهيكل ، وأرجعوا بعض المقاعد الأمامية إلى الخلف بحيث تركت منصة المذبح الأولى وما قبلها خالية . وكانت هناك مجموعة من العصي الرياضية بجانب الجدار ، كما رصت أثقال التمرينات في أحد الجوانب . ووسط أكوام لا تحصى من لفائف الأحذية والقمصان والفانلات الرياضية ، كان حصان القفز المغطى بالجلد يقف منتظراً دوره ليحمل إلى المنصة ويستقر بين الفريق الفائز في نهاية العرض الرياضي .

ومع أن ستيفن كان قد انتخب سكرتيراً للنشاط الرياضي إعجاباً بمهارته في ميدان كتابة المقالات ، إلا أنه لم يكن سيشارك في العرض الرياضي الذي سيجري في البداية ، ولكنه سيشارك في المسرحية التي ستقدم بعد ذلك والتي سيمثل فيه الدور الرئيسي وهو دور المدرس الهزلي . وقد اختير لهذا الدور اعتباراً لتكوينه الجسماني وسلوكه الرزين ، فقد كان الآن في نهاية سنته الثانية في مدرسة بلقدير ، وفي الصف الثاني بها .

وهبط عدد من الأولاد يرتدون البنطلونات القصيرة والفانلات من على المنصة في صخب ، وساروا خلال الممر وفي ردهة الكنيسة ، وكانتا مليئتين بالأولاد والمدرسين المتلهفين . وكان مدرس الألعاب السمين الأضلع يختبر بقدمه منطقة القفز في الحصان الخشي . وجلس شاب نحيف يرتدي معطفاً طويلاً يراقب ما يجري عن كثب ، وكان عليه أن يؤدي عرضاً خاصاً بالعصا الرياضية التي كانت تطل من فتحة جيب بنطلونه . وحين كان فريق آخر يستعد للصعود إلى المنصة ، كانت تسمع أصوات ارتطام أدوات التمرين الخشبية بعضها ببعض الآخر .

وبعد لحظة كان العريف الثائر يدفع أمامه الأولاد خلال الممر كقطع من الأوز ، وهو يهز أطراف رداءه في عصبية ويصيح يحث المتكاسلين على الإسراع . وكانت جماعة ممن يمثلون فلاحي « النابوليتان » يتمرنون على مشيتهم المعروفة في آخر القاعة « بينما يحوط البعض رؤوسهم بأذرعهم ، ويهز البعض سلال الزهور الصناعية وينحنون في احترام . وكانت هناك سيدة عجوز تركع في ثوب فضفاض أسود في ركن القاعة المظلم شمال المكان الذي يوضع فيه الكتاب المقدس على المذبح . وحين نهضت السيدة بدت في رداء أحمر ، ولها شعر صناعي وأشقر معقوص وقبعة قديمة الطراز من القش ، وحاجبان سوداوان خطّطا بالقلم : وخدان عليها قليل من الطلاء والبودرة . وسرت مهمة عجب خفيضة في القاعة عند اكتشاف هذه الشخصية النسائية . واقترب أحد العريفين وهو بيتسم ويحني رأسه من الركن المظلم وقال للسيدة العجوز في بشاشة بعد أن حياها : « ما هذا الذي معك يا مسز تالون ، أهي شابة صغيرة جميلة أم لعبة ؟ » ثم صاح في دهشة بعد أن نحى ورأى الوجه الباسم ذا الطلاء : « كلا ! بحق السماء ، إنه الصغير « برتي تالون » .

وسمع ستيفن من مكانه بجانب النافذة صوت السيدة العجوز التي يمثلها برتي وهي تضحك مع العريف ، وسمع كذلك من ورائه همسات الإعجاب تصدر عن الأولاد وهم يتقدمون ليرى الصبي الصغير الذي كان عليه أن يؤدي رقصة القبعة

بفرده . وصدرت رغماً عنه حركة تعبير عن نفاذ الصبر ، فترك حافلة الشيش تسقط وهبط الدرج الذي كان يقف فوقه وخرج من القاعة .

وذهب خارج مبنى المدرسة ثم توقف في الظل الذي كان يغمر الحديقة . ومن قاعة المسرح المواجهة ارتفعت أصوات ضجة النظارة وبعض الأصوات النحاسية المفاجئة من المجموعة التي تمثل الجنود . وكان الضوء يبين من أعلى سقف المسرح الزجاجي ، مما جعل المسرح يبدو كالسفينة المزدانة وهي تلقي مراسيها أمام المنازل ، وتقودها مصابيحها الواهنة إلى مراسيها . وفتح باب جانبي في المسرح فجأة وسطح خيط من النور على الحشائش . وصدر عن السفينة عزف موسيقى مفاجيء ، مقدمة فالس ، وحين أغلق الباب الجانبي مرة أخرى كان صوت الموسيقى الواهن مسموعاً على الرغم من ذلك . واثارت العاطفة التي تحملها المقطوعات الافتتاحية وحركتها البطيئة المرنة في نفسه انفعالاً لا يمكن التعبير عنه ، ذلك الانفعال الذي كان سبب ضيقه طوال اليوم ، وسبب مغادرته المسرح منذ دقائق مضت . وانبعث الضيق منه كموجة صوت . وعلى أمواج الموسيقى السارية كانت تسبح السفينة تاركة وراءها أنوار مصابيحها . ثم قطعت الحركة الموسيقية ضجة تماثل ضجة المدفعية الصغيرة ، انبعثت من التصفيق الذي استقبل به النظارة فريقي جمل الأثقال على المسرح .

وظهرت في الظلمة نقطة من الضياء الأحمر عند نهاية المبنى الملحق قرب الطريق ، وحين توجه ناحيتها اشتم رائحة عطر فواح واهنة . كانت صبيان ينفان عنه ناصية أحد ابواب المنازل ، يدخنان . وقبل أن يصل إليها عرف « هارون » من صوته .

وصاح صوت عال غليظ : - ها هو ديدالوس العظيم ! مرحباً بصديقنا الصدوق « وانتهى هذا الترحيب بضحكة ناعمة صفراء بعد أن صافحه هارون ثم أخذ ينكش الأرض بعصاه . فقال ستيفن وقد توقف وأخذ يردد الطرف بين هارون وصاحبه : « ها أنا » .

ولم يكن يعرف الشخص الآخر ، ولكنه عرف منه على ضوء طرفي السيجارتين المشتعلتين في الظلام وجهاً شاحباً مرفهاً تنوس عليه الابتسامة وجسماً طويلاً يرتدي معطفاً سميكاً وقبعة صلبة . ولم يكلف هارون نفسه عناء تقديم ستيفن لصديقه بل قال بدلاً من ذلك :

— لقد كنت أحدث صديقي « واليس » عن المتعة التي سنشعر بها لو أنك قلدت مدير المدرسة في دور الناظر الذي ستمثله الليلة . سيكون ذلك طرفة جميلة ممتعة . وقام هارون بمحاولة فاشلة لتقليد صوت المدير الخشن المدعي أمام صديقه ، ثم سأل ستيفن وهو يضحك من فشله أن يقوم هو بذلك ، وحته قائلاً : — هيا يا ديدالوس ، إن بإمكانك تقليده في دقة وهو يقول : من لا يطيع أوامر الكنيسة يكون بالنسبة لك وثنياً حقيراً .

وصدرت من « واليس » الذي التصقت السيجارة بشفتيه عبارة غضب هادئة قطعت على زميله التقليد ، وقال : « لعن الله هذا المبسم » وأخرجه من فمه وهو يتأمله بابتسام ثم بعبوس وأضاف : « إنه يلتصق دائماً هكذا ، أتستعمل المبسم ؟ » فرد ستيفن : أنا لا أدخن .

فقال هارون : كلا ، إن ديدالوس شاب مثالي ، إنه لا يدخن ولا يذهب للهو ولا يغازل ولا يسب أي شيء أو كل شيء .

وهز ستيفن رأسه وابتسم في وجه خصمه المتورد المتغير بوجه الذي يشبه منقار الطير . وكان قد فكر في مرة سابقة في غرابة الشبه بين وجه هارون ووجه الطيور وفي الاسم أيضاً ^(١) . وكانت خصلة باهتة من الشعر تشبه خصلة الأسد تتدلى على جبهته . وكانت جمجمته ضيقة ضامرة ، وأنفه رفيعاً معقوفاً بين عينيهِ المتقاربتين الجامدتين . وكان هذان الخصمان زميليه في الدراسة ؛ وكانوا معاً في الفصل ويصلون معاً في الكنيسة ، ويتحادثون معاً على مائدة الطعام .

(١) كلمة Heron تعني الطائر « مالك الحزين » .

ولما كان تلاميذ الصف الأول جميعاً من البلداء الكسالى ، كان ستيفن وهارون طوال العام قاندي الفصل الحقيقيين ، فهما اللذان يذهبان إلى مدير المدرسة معاً ليطلبا يوم إجازة للمدرسة أو لطلب العفو عن أحد التلاميذ . وقال هارون فجأة : على فكرة : لقد شاهدت والدك يدخل المسرح .

واختفت الابتسامة من على وجه ستيفن ، فقد كان هدوءه يتقلب ثورة في لحظة واحدة عند أي إشارة إلى والده سواء من التلاميذ أو الأساتذة . وانتظر في صمت وخشية ما سيقوله هارون بعد ذلك . ولكن هارون لكزه بكوعه بحركة ذات مغزى وقال : إنك لجرؤ مخادع .
فقال ستيفن : لماذا ؟

فقال هارون : تظن أن بإمكانك إخفاء الأمر عن الجميع ، ولكنني أؤكد لك أنك جرؤ مخادع .

فقال ستيفن في وداعة : هل لي أن أسألك عما تتكلم ؟

فرد هارون : طبعاً يحق لك هذا ... لقد رأيناها ، أليس كذلك يا واليس ؟
ويا لها من جميلة فاتنة ، وكثيرة السؤال ، قالت لوالدك : وأي دور سيلعب ستيفن يا مستر ديدالوس ؟ ألن يغني ستيفن يا مستر ديدالوس ؟ « وكان والدك يحدق فيها بشدة من وراء نظارته حتى ظننت أنه قد اكتشف أمرك هو الآخر .
لو كنت مكانك لما كان ذلك يهمني على الاطلاق ، فهي فاتنة مدهشة ، أليس كذلك يا واليس ؟

وطافت لحظة غضب على ذهن ستيفن لتلك التلميحات التي تقال على مسمع من أحد الغرباء الذين لا يهمهم أن يسمعوا عن اهتمام فتاة به . وكان ستيفن لا يفكر طيلة اليوم إلا في اللحظة التي افترقا فيها في العربية العامة عند « هارولد كروس » والعواطف المتفرقة التي أثارها ذلك في نفسه ، والقصيدة التي كتبها عن ذلك الموقف . وظل يتخيل مقابلة أخرى معها ، فقد كان يعرف أنها ستحضر المسرحية . وجاش ذلك القلق القديم في صدره مرة أخرى مثلما حدث له ليلة

السهرة الفائتة ، ولكنه لم يجد متنفساً له هذه المرة في الشعر . كان يفصل بين هذين الحديثين سنتان من النضج والمعرفة ، سنتان تقفان في وجه مثل هذا المتنفس . وكان ينبثق هذا التيار من الرقة الحزينة في نفسه طيلة اليوم وينعكس عليها في مد وجزر ، مما ألم نفسه إلى أن اضطرته رقة العريف والولد الصغير المتنكر إلى الخروج بعد أن نفذ صبره .

ومضى هارون في قوله : ولذلك يجب عليك أن تعترف أننا قد كشفنا أمرك تماماً هذه المرة ، ولن تستطيع أن تتظاهر أمامي مرة أخرى بأنك قديس ، وأراهن على ذلك .

وضحك بعد ذلك ضحكة خالية من البهجة ، ثم انثنى كما كان أولاً وضرب ستيفن بعصاه في خفة على باطن ساقه كأنما يوبخه مازحاً .

وكان غضب ستيفن قد تبخر فعلاً . ولم يكن قد اغتر بما قيل أو اهتز ، غير أنه رغب لهذا الموقف أن ينتهي . ولم يكذب يشعر بالغضب إزاء ما بداله من فظاظتها المحقاء ، فقد كان يعلم جيداً أن مفاخرته مع الفتاة كانت ماثلة في ذهنه بلا خطر عليها من هذه الكلمات ، وانعكست على وجهه ابتسامة خصمه المزيفة .

وكرر هارون ، وهو يعاود ضربه بعصاه على باطن ساقه : « إعترف » . وكانت ضربته مزاحاً أيضاً ، ولكنها كانت أشد من الضربة الأولى .

وشعر ستيفن بجلده يتوهج قليلاً دون أن يشعر بألم ، ثم انحنى في طواعية وأخذ يتلو صيغة « الاعتراف » كأنما يجاري مزاج صاحبيه في المزاح . وانتهى الموقف على خير ، فقد أغرق هارون واليس في الضحك من هذه الاستهانة بالمقدسات . ولم يصدر الاعتراف إلا من بين شفقي ستيفن فقط . . وحين كانوا يتبادلون هذا الحديث المشار إليه ، انتقل ذهن ستيفن بفعل ذكرى سابقة إلى مكان آخر حين شاهد الغمازين القاسيين الواهين على جانب شفقي هارون الباسميتين ، وحين شعر بضربة عصاه على باطن ساقه ، وحين سمع كلمة التحذير المألوفة : إعترف . وقعت هذه الحادثة السابقة التي عادت إلى ذاكرته الآن عند نهاية

الفصل الأول في المدرسة حين كان في الصف السادس . كانت طبيعته المرهفة ما زالت ترزح قلقاً تحت مظاهر دبلن السقيمة ؛ وقد وجد نفسه بعد سنتين من الاستغراق في الفكر في وسط محيط جديد حيث تؤثر كل حادثة وكل شخص في نفسه إلى حد بعيد ويثقل عليه بالمغريات أو يجذبها ، ويملاً نفسه دوماً بتيارات القلق والأفكار المريرة في الحالتين . وكان يمضي وقت الفراغ الذي تسمح له به حياته المدرسية في صحبة مؤلفين هدامين كان عنفهم وجوحهم في الكتابة يضرم النيران في عقله قبل أن يخرج منه على شكل كتابات فجة .

وكان يعتبر المقال الذي يكتبه هو حصيلة الأسبوع ، وكان يتنبأ كل ثلاثة أثناء ذهابه إلى المدرسة بما يقع حوله في الطريق ، أو يحفز نفسه ليلحق بشخص يسير أمامه قبل مرور مدة معينة ، أو يخطو بقدميه في حذر على الطريق وهو يقول لنفسه هل سيكون الأول في المقال الأسبوعي أو لا يكون .

وفي أحد هذه الأيام ، انقطع جبل انتصاراته فجأة . فقد أشار المستر « تيت » أستاذ اللغة بإصبعه إليه وقال بخشونة :
- مقالة هذا الفتى بها هرطقة دينية .

وساد السكون الفصل . ولم يقطعه مستر تيت بل دس يده بين ساقيه ، بينما أحدثت ملابسه الكتانية المنشأة صريراً عند الرقبة والرسغين . ولم ينظر ستيفن إليه . كان صباح يوم من أول أيام الربيع ، وكانت عيناه لما تزالان ضعيفتين متوجعتين . كان يشعر بالفشل والتكشيف ، بقذارة ذهنه وقذارة بيته ، وشعر بحافة ياقته المقلوبة الناتئة على رقبته .

وأعادت ضحكة عالية قصيرة من مستر تيت بعض الراحة إلى الفصل . قال :
ربما لم تعرف ذلك .

وسأل ستيفن : أين ؟

وسحب مستر تيت يده المتسربة ونشر المقالة بين يديه .

- هنا ... عن الخالق والروح ... إر إر إر ... آه ... دون أي إمكانية

للاقتراب أكثر . هذه هرطقة .

وتتم ستيفن : إنما عنيت « دون أي إمكانية للوصول » .

كان هذا تسليماً . وطوى المستر تيت المقال بعد أن هدأ وناولها له وهو يقول : آه ... للوصول ... هذا شيء آخر .

ولكن الفصل لم يهدأ بهذه السرعة ، ورغم أن أحداً لم يحدثه في الموضوع بعد الحصة إلا أنه كان يستشعر فرحاً خبيثاً عاماً غامضاً يضطرم من حوله .

وبعد ليال قليلة من هذا التأنيب العلني ، كان يسير حاملاً خطاباً عبر الطريق « درو مكوندرا » حين سمع صوتاً يهتف به : « قف » .

والتفت فرأى ثلاثة طلاب من صفه الدراسي قادمين نحوه في الظلمة . كان هارون هو الذي صاح به ، يسير بين اثنين من مرافقيه وهو يشق الهواء أمامه بعضاً رفيعة شقاً ينتظم مع خطواتهم . وكان « بولاند » صديقه يسير إلى جواره وقد ارتسمت ابتسامة واسعة على وجهه ، بينما « ناش » على بعد خطوات خلفها ، ينهج من المشي ويحرك رأسه الأحمر الضخم .

ولما انعطفت الأولاد إلى طريق « كلونليف » معاً بدأوا في الحديث عن الكتب والمؤلفين ، وأخذوا يذكرون الكتب التي كانوا يقرأونها، وكم من الكتب تحوي مكتبات آبائهم في منازلهم . واستمع ستيفن إليهم في عجب ؛ فواحد منهم - بولاند - كان بطيء الفهم ، وآخر - ناش - كسول الفصل . وبعد شيء من الحديث عن مؤلفيهم المفضلين ، أعلن ناش أن « الكابتن ماريات » هو أعظم الكتب .

فقال هارون : هراء ، إسأل ديدالوس... من هو أعظم كاتب يا ديدالوس ؟

ولس ستيفن نبرة السخرية في السؤال ، وقال :

- تعني من بين كتّاب النثر ؟

- أجل .

– أعتقد أنه نيومان .

فسأل بولاند : أهو الكاردينال نيومان ؟

فرد ستيفن : أجل .

وازدادت البسمة اتساعاً على وجه ناش المليء بالشمس حين تحول إلى ستيفن وهو يقول : وهل تحب الكاردينال نيومان يا ديدالوس ؟

وقال هارون لرفيقه الآخرين موضحاً : أوه ... يقول الكثيرون إن نيومان يمتلك ناصية أفضل أسلوب نثري ، وبالطبع فهو ليس بشاعر .

وسأل بولاند : ومن هو أحسن شاعر يا هارون ؟

ورد هارون : اللورد تينسون بالطبع .

فقال ناش : آه ... أجل ، اللورد تينسون ، لدينا ديوان أشعاره في مجلد واحد بالمنزل .

وعند ذلك نسي ستيفن اليمين الصامتة التي كان يرددتها وانفجر قائلاً : تينسون شاعر ! ما هو إلا مجرد ناظم قوافٍ .

فقال هارون : ما هذا ؟ الجميع يعرفون أن تينسون هو أعظم شاعر .

فرد ستيفن : بايرون طبعاً .

واشترك الرفاق الثلاثة في ضحكة ازدراء بدأها هارون .

وسأل ستيفن : علام تضحكون ؟

فقال هارون : منك . بايرون أعظم شاعر ! إنه شاعر الجهال ليس إلا .

وقال بولاند : لا بد وأنه شاعر لطيف .

فقال ستيفن وهو يتحول إليه في جراءة : عليك أن تغلق فمك . إن كل ما تعرفونه عن الشعر ما تكتبونه على الألواح في الفناء وتعاقبون من أجله .

وفي الحقيقة ، كان قد قيل إن بولاند قد كتب على ألواح الفناء الفقرة التالية عن أحد زملاء صفه كان معتاداً على العودة إلى المنزل على حصان صغير :

بينما كان تينسون يركب قاصداً أورشليم
سقط وأصاب بطنه الألم المقيم
وقد أفحمت المرافقين هذه الوخزة ، ولكن هارون استمر في كلامه :
- وعلى كل حال ، كان بايرون هرطاقاً وخليعاً كذلك .
وصاح ستيفن بجرارة : لا أهمية عندي لما كان عليه .
وقال ناش : ألا يهيك إذا كان هرطاقاً أم لا ؟
فصاح ستيفن : وماذا تعلم أنت عن هذا الموضوع ؟ إنك لم تقرأ في حياتك
سطراً من كتاب عدا الترجمات المقابلة ؛ وكذلك بولاند .
فقال بولاند : انني أعرف أن بايرون كان رجلاً سيئاً .
وصاح هارون : إليك ، أمسك هذا الهرطاق .
وفي لحظة كان ستيفن سجيناً .
وواصل هارون كلامه : لقد أزعجك تبت ذلك اليوم بشأن الهرطقة التي
كانت في مقالك .
فقال بولاند : سأقول له غداً .
فقال ستيفن : هل ستقول له حقاً ؟ ستخاف أن تفتح فمك .
- أخاف ؟
- نعم تخاف على حياتك .
فقال هارون وهو يلطم ساقي ستيفن بعصاه : « إحترم نفسك » .
وكانت إشارة الهجوم ، فقيّد ناش ذراعيه من الخلف بينما أمسك بولاند ساقاً
من سيقان نبات القرنبيط طويلة كانت ملقاة في قناة المجاري . وقاوم ستيفن ،
وركل بقدميه خلال ضربات العصا ولطحات الساق المعقود حتى ارتكز على سور
من الأسلاك الشائكة .
- إعترف أن بايرون لم يكن طيباً .

- كلا .

- إعترف .

- كلا .

- إعترف .

- كلا ، كلا .

وأخيراً ، بعد عدة دفعات ، خلص بنفسه حراً .
وتوجه معذوبه ناحية طريق جونز ضاحكين يسخرون منه ، بينما تعثر هو
وقد أعمته دموعه ، ملوحاً بقبضتيه في جنون وهو ينشج باكياً .
وبينما هو لا يزال يردد صيغة « الاعتراف » خلال انهاك سامعيه في الضحك ،
وبينما كانت مناظر هذه الأحداث المريرة لا تزال تتري في حدة وسرعة على
ذهنه ، تساءل لم لا يحمل أي ضعينة لهؤلاء الذين عذبه . لم ينس أبدأ ذرة من
جنبهم وقسوتهم ، غير أن ذكرى ذلك المشهد لم تعد تبعث فيه أي غضب . وعلى
ذلك ، تبدت له أوصاف الحب والكره العميقين التي قرأ عنها في الكتب غير
حقيقية . وحتى في تلك الليلة التي تلمس فيها الطريق إلى بيته متعثراً عبر طريق
« جونز » شعر أن هناك قوة تنزع عنه بسهولة ذلك الغضب الذي نسج فيه
خيوطه فجأة ، مثلما تنزع القشرة عن الثمرة اللينة الناضجة .

وظل واقفاً مع رفيقيه عند نهاية المبنى الملحوق يستمعون في كسل إلى
حديثهم أو إلى انفجارات التصفيق في المدرج . وكانت هي تجلس هناك مع
الآخرين وربما تنتظر ظهوره . وحاول أن يستعيد منظرها ولكنه لم يستطع .
لم يستطع سوى أن يتذكر أنها ارتدت وشاحاً حول رأسها كالقطنسوة ، وأن
عينها السوداوين قد دعته وأوهنتا من عزمه . وتساءل هل تفكر فيه كما يفكر
فيها . وفي الظلمة ، في غفلة عن الاثنين الآخرين ، أراح أطراف أصابع يده على
راحة يده الأخرى في خفة وهو لا يكاد يلمسها . غير ان ضغط أصابعها كان أخف
وأكثر انتظاماً . وفجأة ، تخللت ذكرى مساتها عقله وجسده كالموجة الخفية .

وأقبل صبي يجري نحوهم في المبنى الملحق . كان مضطرباً لاهث الأنفاس .
صاح : آه يا ديدالوس ، إن دويل في مأزق عظيم بسببك . عليك أن تذهب
فوراً وترتدي ملابس التمثيل . يحسن بك أن تسرع .

فقال هارون للرسول بالتفاتة متعالية : سيأتي حالاً ، حين يريد ذلك .
فالتفت الصبي إلى هارون وردد : ولكن دويل في مأزق عظيم .
فرد هارون : هل لك أن تخبر دويل مع عظيم تحياتي أنني أصب اللعنات عليه .
فقال ستيفن الذي لم يكن يهتم كثيراً بمسائل الكرامة هذه : حسناً ، إن
عليّ أن أذهب الآن .

فقال هارون : لو كنت مكانك لما ذهبت ، عليّ اللعنة لو كنت أذهب .
ليست هذه بالطريقة التي يجب أن يستدعى بها طلبة الصفوف العليا . في مأزق ...
حقاً . أعتقد أنه يكفيك أن تشارك في تمثيلته القديمة السخيفة .

ولم تغر ستيفن روح الزمالة المشاغبة التي لاحظها مؤخراً في غريمه بالخروج
على ما تعوده من الطاعة الهادئة . ولم يثق في هرج هذه الزمالة ومرجها وتشكك
في إخلاصها ، تلك الزمالة التي تبدت له إرهاباً مؤسفاً لطور الرجولة . وكانت
مسألة الكرامة التي أثرت هنا - ككل المسائل المشابهة - تافهة بالنسبة له .
وبينما كان ذمه يتابع خيالاته الحفوية ، ويتحول في تردد عن هذه المتابعة ،
سمع من حوله أصوات أبيه وأساتذته يحثونه على أن يكون جنتلماناً فوق كل
شيء ويحثونه على أن يكون كاثوليكياً طيباً فوق كل شيء . وبدت هذه الأصوات
جوفاء في أذنيه الآن . وحين افتتحت صالة الرياضة سمع صوتاً آخر يحثه أن
يكون قوياً ورجلاً مكتمل الصحة ، وحين بدأ الإحساس بحركة اليقظة القومية
في المدرسة أمره صوت آخر أن يكون مخلصاً لبلده ويساعد على رفع راية لغتها
وتقاليدها . وكما تنبأ هو ، ففي مثل هذا العالم الدنيوي ، يمكن أن يأمره
صوت دنيوي أن يساهم بعمله على الارتفاع بحالة والده المنهارة ؛ وفي نفس
الوقت ، يحثه صوت رفاق المدرسة أن يكون فتى دمثاً ، يحمي الآخرين من

اللوم أو يتوسط من أجلهم ، ويبذل جهده للحصول على إجازات للمدرسة . وقد أدى طنين كل هذه الأصوات الجوفاء به إلى أن يتوقف في تردد عن متابعة هذه النداءات . كان ينصت لها فترة ما كان يسعد إلا حين يكون قصياً عنها ، بعيداً عن متناولها ، وحيداً أو في صحبة رفاقه الوميين .

وفي غرفة الملابس ، وجد جزويتياً سميناً ندي الوجه مع رجل متقدم في السن يرتدي ملابس زرقاء رثة غارقين في العمل بعلبة من الطلاء والطباشير . وكان الأولاد الذين طليت وجوههم بالمساحيق يسرون هنا وهناك أو يقفون ساكنين في حرج ، يتلمسون وجوههم بطريقة حذرة بأطراف أصابعهم المسترقة . وفي وسط حجرة الملابس ، وقف جزويتي شاب - وكان في زيارة للمدرسة آنذاك - وهو يهز نفسه في إيقاع منتظم على أطراف أصابع قدميه حتى الكعبين وبالعكس ، بينما انعقدت يده نحو الأمام داخل جيوبه الجانبية . وكان رأسه الصغير متوجاً بنخصلات حمراء لامعة من الشعر ، ووجهه الحليق يتوافق مع رقة ثوبه الكهنوتي الناصعة وحذائه اللامع .

وبينما كان ستيفن يرقب هيئته المهتزة ويحاول أن يقرأ ما ترمز له ابتسامة القس الساخرة في نفسه ، طاف بذاكرته قول سمعه من والده قبل أن يرسلوا به إلى كلونجوز يذكر أنه يمكن تمييز الجزويتي من طراز ملابسه . واعتقد في نفس الوقت أنه يرى مشابهاً بين عقلية والده وعقلية هذا القس الباسم حسن اللبس ، وأحس أن في ذلك تدنيساً لحرمة وظيفته القس أو لحجرة الملابس ذاتها ، التي انتهى سكونها الآن وضجت بالحديث وبالمزاح وعبق هواؤها بروائح الدهن وخزانات الغاز .

وبينما كان الكهل يرسم التجاعيد على جبهته ويضيف الألوان السوداء والزرقاء على فكيه ، أنصت ستيفن في شرود إلى صوت الشاب الجزويتي السمين وكان يطلب منه أن يتكلم ويخرج المقاطع في وضوح . وكان يسمع الفرقة تلعب لحن « زنبقة كيلارني » وأدرك أن الستار سوف يرتفع بعد لحظات قليلة . ولم

يشعر برهبة المسرح ولكنه شعر بالمهانة من الدور الذي كان عليه أن يلعبه ؛ ودفع ذكر بعض سطوره بالدم فجأة إلى وجنتيه اللطختين بالمساحيق . ورأى عينها الجادتين المغربيتين ترقبانه من بين النظارة ، وأزاحت صورتها شكوكه على الفور ، وخلفتا إرادته وقد تماسكت . وبدا كما لو أن طبيعة أخرى غير طبيعته قد أعارته نفسها ، وأثر حماس الشباب من حوله في خشيته المتقلبة وغيرها . وبدا في لحظة واحدة نادرة كما لو اشتمله مظهر الطفولة الحقيقي . وبينما كان يقف وراء الكواليس مع غيره من الممثلين شارك في المرح الذي ساد الجميع حيث رفع قسان قويان الستار بعد أن قاما بانحناءات واهتزازات عنيفة .

وما هي إلا لحظات قليلة حتى وجد نفسه فوق خشبة المسرح وسط الأضواء الزاهية والديكورات المعتمة ، يمثل أمام فراغ من وجوه عديدة . وأدهشه أن يرى التمثيلية التي كانت في البروفات شيئاً متفككاً لا حياة فيه قد اتخذت فجأة حياة خاصة بها ، وبدت الآن كما لو أنها تمثل نفسها بنفسها وما هو ورفاقه سوى مساعدين لها بأدوارهم . وحين أسدل الستار على المنظر الأخير سمع الفراغ يضح بالتصفيق ورأى من خلال شق الكواليس الجسم البسيط الذي مثل أمامه وهو يتشوه بطريقة سحرية ، وفراغ الوجوه يتكسر في جميع الأنحاء وينشطر إلى جماعات لها ما يشغلها .

وغادر خشبة المسرح بسرعة وخلص نفسه من ملابس التمثيل ، وعبر الكنيسة الصغيرة إلى حديقة المدرسة . والآن وقد انتهت التمثيلية تصرخ أعصابه طلباً لمخاطرة أخرى ، وأسرع في طريقه كأنما ليلحق بها . كانت أبواب المسرح قد فتحت وخرج النظارة منها . وفي الممرات ، كان يتخيل مرسى السفن عليها وقد علققت بعض القناديل في نسمة الليل ، تهتز شعلتها في وجوم . واعتلى درج الحديقة في عجلة حريصاً على ألا تفلت منه إحدى الضحايا ، وشق طريقه خلال زحام الردهة ، واجتاز الجزويتيين اللذين وقفوا يرقبان الخروج وينحنيان

ويشدان على أيدي الزوار . وتقدم إلى الأمام في عصبية ، متظاهراً بالمجلة وهو لا يكاد يشعر بالبساتم والتطلعات واللمزات التي يثيرها منظر رأسه المغطى بالبودرة في طريقه .

وحين خرج إلى السلم وجد أسرته بانتظاره عند أول مصباح . ولاحظ في لحظة أن وجه كل فرد فيهم كان مألوفاً لديه . وجرى على الدرج في غضب وقال لوالده بسرعة : عليّ أن أنجز مهمة في شارع جورج ، وسوف أعود للبيت بعدكم .

وجرى عبر الطريق دون أن ينتظر سؤال والده ، وبدأ يهبط التل في سرعة قاتلة . كان لا يكاد يعرف أين يسير . كانت الكبرياء والأمل والرغبة ترسل بضباب البخور المثير كالأعشاب المسحوقة إلى فؤاده أمام بصيرة عقله . حثّ خطاه يهبط التل وسط ضجة الأبخرة التي تصاعدت فجأة ، أبخرة الكبرياء الجريئة والأمل المحطوم والرغبة الباطلة . تصاعدت ساجحة أمامه ، أمام عينيه الجزعتين في دخان كثيف مثير ، ومرت أمامه إلى أن صفا الهواء وبرد مرة ثانية في النهاية .

وظل ستار يحجب عينيه ، ولكنها لم يعودا يحترقان . ومنحت قوة ما الراحة لخطواته ، قوة شبيهة بتلك التي كانت دوماً تنفض عنه ثياب الغضب والضيق . وتوقف ساكناً وتطلع إلى رواق مبنى المشرحة المظلم ومنه إلى الدرب المظلم المرصوف في الجانب . وقرأ كلمة « مسدود » على جدار الدرب ، وتنفس الهواء الثقيل العطن في بطنه . وفكر : هذه بقايا الجياد والقش العطب ، إنها رائحة طيبة أتنفسها ، وستهدى من قلبي ؛ إن قلبي هادىء تماماً الآن ، سأعود أدراجي .

* * *

جلس ستيفن مرة أخرى إلى جوار والده في ركن عربة قطار في « كنجز بروج » . كان مسافراً مع والده في قطار المساء إلى « كورك » وحين زفر

القطار دخانه وهو يغادر المحطة تذكر دهشته الصيانية منذ سنين خلت ، وكل واقعة من وقائع أول أيامه في « كلونجوز » . ولكنه لم يشعر بأي دهشة الآن . ورأى الأرض المعتمة تنزلق أمامه ، وأعمدة التلغراف الصامتة تمر في سرعة أمام نافذته كل أربع ثوان ، والمحطات الصغيرة المضيئة يديرها قليل من الحراس الصامتين ، ويلقي بها القطار من ورائه وهي تلمع لحظة في الظلمة مثل حبات مشتعلة يلقيها أحد المتسابقين خلفه .

واستمع في فتور إلى حكايات والده عن « كورك » وعن مراتع شبابه فيها ، يتخللها تنهدات أو جرعات من القنينة التي يحملها في جيبه كلما ظهرت في القصة صورة أحد أصدقائه الذين ماتوا ، أو حيناً يتذكر فجأة الغرض من زيارته الحالية للمدينة . واستمع ستيفن ولكنه لم يشعر بأي مشاركة وجدانية . كانت صور الموتى جميعاً غريبة لديه ما عدا صورة العم تشارلس ، وهي صورة كادت تدوي من الذاكرة في المدة الأخيرة . وعلى الرغم من ذلك عرف أن أملاك والده ستباع في المزاد . وشعر بالدنيا تكذب أحلامه في خشونة حين تجرده هو أيضاً مما يمتلكه .

واستسلم للنعاس عند « ماري بوره » . وحين استيقظ كان القطار قد خرج من « مالو » وقد نام والده متمدداً على المقعد الآخر . كان نور الفجر البارد يرقد على البلدة ، على الحقول الخالية من الناس وعلى الأكواخ المغلقة . وفتن النوم المرعب عقله وهو يراقب البلدة الصامتة أو ينصت من وقت إلى آخر إلى زفرات والده العميقة أو حركات نومه الفجائية !

وغمره جوار النائم غير المرئيين بخشية غريبة ، كما لو كان بإمكانهم إيدأؤه . وصلى لكي يطلع النهار سريعاً . وبدأ صلاته التي لم يوجهها إلى الله أو إلى أحد القديسين برعدة ، إذ زحفت نسمة الصباح الباردة من خلال صدع باب المركبة إلى قدميه ، وأنهاها بسلسلة من الكلمات الحمقاء ابتدعها لتوافق إيقاع القطار الملح . وفي صمت كانت أعمدة البرق « تمسك بالوحدة » لأنغام الموسيقى الراكضة

المنتظمة كل أربع ثوان . وخففت هذه الموسيقى العنيفة من خشيته ، وإذ انحنى مستنداً على إفريز النافذة ، ترك جفونه تنغلق ثانية . ودخلوا إلى « كورك » في غمضة عين بينما كان الصباح لما يزل في مطلعته ؛ وأتم ستيفن نومه في إحدى غرف النوم بفندق فيكتوريا . وكان ضوء الشمس الدافئ اللامع يتدفق من خلال النافذة ، وكان باستطاعته سماع ضجة المرور . كان والده يقف أمام التسريحة ، يتفحص شعره ووجهه وشاربه بعناية شديدة ، ويمد رقبتة عبر قارورة الماء ويسحبها ثانية من الجانب حتى يتمكن من رؤية أفضل . وبينما هو يفعل ذلك كان يغني لنفسه في رقعة وبلكنة وتعبير غريبيين :

الشباب والبله
يدفع الشباب للزواج
ولذلك لن أبقى هنا
بعد الآن يا حبيبتي
وما لا يمكن علاجه - طبعاً
لا بد من بتره - طبعاً
ولهذا سأرحل
إلى أمريكا .

حبيبتي جميلة
حبيبتي جميلة
كالحمرة الجيدة
حين تكون جديدة
ولكن ، حين تكون عتيقة
وحين تكون باردة
فإنها تذوي وتموت
مثل ندى الجبال .

وقد ساعد الإحساس بالمدينة الدافئة المشمسة في الخارج ، والارتجافات الحانية التي كان صوت أبيه يوشي بها الهواء الغريب الهانيء ، ساعد على تبديد سحب مزاج الليل الكئيب من عقل ستيفن . ونهض بسرعة ليرتدي ملابسه ، وقال حين انتهت الأغنية :

– هذه الأغنية أحسن أغانيك الأخرى من نوع « تعالوا جميعاً » .

فسأل مستر ديدالوس : أتظن ذلك ؟

فقال ستيفن : إني أحبها .

فقال مستر ديدالوس وهو يعقص أطراف شاربه : إنها نشيد قديم لطيف . آه ، ولكن كان ينبغي عليك أن تسمع « ميك لاسي » وهو يغنيها . « ميك لاسي » المسكين ! كانت له حيل صغيرة وأنغام رقيقة يوشها بها لا أتمكن أنا من أدائها . كان هو الفقى الذي يصلح لأداء إحدى أغاني « تعالوا جميعاً » إن كنت تحب ذلك .

وأمر مستر ديدالوس بأطباق الطعام للافطار . واستفهم خلال الاكل من النادل بدقة عن الأخبار المحلية . وحين كان يذكر اسماً من الأسماء كان يحدث في كلامها نوع من الخلط ، إذ كان النادل يقصد به الشخص الذي يحمل الاسم حالياً بينما يقصد مستر ديدالوس أباً هذا الشخص أو ربما جده .

قال مستر ديدالوس : حسناً ، أأمل ألا يكونوا قد غيروا مكان مدرسة الملكة لأنني أريد أن أريها لصغيري هذا .

وكانت الأشجار مزهرة على طول طريق « ماردايىض » . ودخلا إلى المدرسة ، وقادها البواب الثرثار عبر زاويتها الرابعة . ولكن كان يوقف مسيرتها على الفسيفساء رداً من البواب بعد كل دسة من الخطوات .

– آه ... ماذا تقول ؟ وهل مات « بوتل بيلى » المسكين ؟

– أجل يا سيدي ، مات يا سيدي .

وخلال هذه التوقفات ، كان ستيفن يقف في حرج خلف الرجلين ، متعباً من هذا الموضوع ، ينتظر في قلق أن يبدأ السير ثانية . وفي الوقت الذي عبروا

فيه الزاوية الرباعية كان قلقه قد تحول إلى حمى . وعجب كيف أن والده الذي عرفه رجلاً مدققاً فطناً قد خدعته وسائل البواب الوضيعة ، كما أصبحت اللهجة الجنوبية الحية التي عملت على تسليته طول الصباح تضايق سمعه الآن .

ودخلوا إلى مدرج التشريح حيث جال مستر ديدالوس - يساعده البواب - بحثاً عن حروف اسمه الأولى على المدرجات . وبقي ستيفن في الخلفية ، وقد أحزنه أكثر ما أحزنه ظلمة المدرج وسكونه وما حمله من مظهر الدراسة المضنية الجامدة . وقرأ كلمة « جنين » منقوشة عدة مرات على الخشب الأسود الملطخ بأحد المدرجات . وأيقظ الرمز المفاجيء دماؤه ، وبدا كما لو أنه يشعر بطلبة المدرسة الغائبين من حوله ، وهو يجفل من صحبتهم . وبعثت الكلمة المنقوشة على المدرج أمامه رؤياً كاملة عن حياتهم ، رؤياً عجزت كلمات والده أن تبعتها فيه . كان طالب عريض المنكبين ذو شارب ينقش حروف الكلمة في جد بمدية بينما وقف طلبة آخرون أو جلسوا بالقرب منه يضحكون من عمله . ولكن واحد منهم مرفقه فالتفت الطالب الكبير نحو عابساً ، كان يرتدي ملابس فضفاضة وحذاء ذا رقبة لوحته الشمس .

ونودي إسم ستيفن ، وجرى هابطاً سلم المدرج حتى يبعد ما وسعه من هذه الرؤيا ، يرمق الحروف الأولى من اسم والده عن كئيب ، ويخفي وجهه المتوهج .

ولكن الكلمة والرؤيا قفزتا أمام عينيه وهو يسير عائداً عبر الرواية الرباعية وتجاه بوابة المدرسة . وصدم إذ وجد في العالم الخارجي أثراً مما كان قد اعتبره حتى ذلك الوقت مرضاً جامحاً فردياً يختص به تفكيره . وتدافعت أحلام نهاره المروعة على ذاكرته . أثارت هذه الكلمات المجردة تلك الأحلام أمامه فجأة في عنف مرة أخرى . وفتح لها الباب في الحال وسمح لها أن تحتاج تفكيره وتحط منه ، وهو يتعجب دائماً من أين أتت هذه الأحلام ، من أي كهف من الصور المروعة . وكان يبدو دائماً حين تغمره هذه الأحلام ضميماً ذليلاً مع الآخرين ،

وقلقاً سقيماً مع نفسه .

وصاح مستر ديدالوس : آه يا إلهي ... هذه هي البقالة بالتأكيد . طالما سمعتني أتحدث عن البقالة ، أليس كذلك يا ستيفن . طالما ذهبنا إلى هناك بعد أن نوقع أسماءنا ، جماعة منا : هاري بيرد و جاك مونتغ الصغير وبوبي دياس وميك لاسي الذي حدثتلك عنه هذا الصباح وجوي كوربت وجوني كيفرز المسكين الصغير طيب القلب من « تانتيل » .

واهتزت أوراق الأشجار على طول طريق ماردايك وهمست في ضوء الشمس . ومرت جماعة من لاعبي الكريكت ، رجال رشيقون في ملابس فائله وبليزر ، ويحمل واحد منهم الحقيبة الداخلية الخضراء الطويلة . وفي أحد الشوارع الجانبية الهادئة ، كانت تقف فرقة المازنية من خمسة عازفين يرتدون يونيفورما كالحا ويعزفون بآلاتهم النحاسية الهادئة أمام نظارة مكونة من بعض الأعراب وصبيان المحلات الكسالى . وكانت خادمة في غطاء رأس أبيض وميدعة بيضاء تروي أصص النباتات في إحدى الشرفات ، وكانت تلتمع كلوح من حجر الجير تحت الوهج الدافئ . وجاءه صوت بيان من إحدى النوافذ المفتوحة ، يرتفع طبقة إثر طبقة حتى أعلى الطبقات الموسيقية .

وسار ستيفن إلى جوار والده ، يستمع إلى قصص سبق له الاستماع إليها ، ويستمع مرة أخرى لأسماء المرعبين ممن كانوا ندماء والده ثم تفرقوا أو ماتوا . وتصاعد سقم واه إلى فؤاده ، واستدعى لذاكرته موقفه المبهم في بلفدين ، ولداً حراً ، قائداً يخاف من سلطته ذاتها ، مزهواً ، حساساً ، متشككاً ، يصارع قذارة حياته ومتاعب ذهنه . وتطلعت إليه الحروف المنقوشة على خشب المدرج الأسود الملطخ ، ساخرة من ضعفه الجسماني وحماساته عديمة الجدوى باعثة احتقاره لنفسه على قصفه القدر الجنوبي . وازداد لعاب حلقه مرارة ودنساً عند الازدراء ، وصعد السقم الواهن إلى عقله فأغلق عينيه لحظة ومضى في سيره في الظلمة .

وكان ما يزال يسمع صوت والده :

— حين تخرج إلى الدنيا يا ستيفن ، كما سيحدث حتماً يوماً من الأيام ، تذكر معها فعلت ألا تختلط إلا بالمهذبين . لقد استمتعت بجياتي حين كنت في مثل سنك ، اختلطت برفاق مهذبين دمشين . وكان كل واحد منا يستطيع القيام بشيء ما . فواحد له صوت جميل ، وآخر ممثل جيد ، والثالث باستطاعته أداء أغنية هزلية طيبة ، وآخر مجذف ماهر أو لاعب ماهر بالكرة والمضرب ، وغيره يقص قصصاً جميلة ، وهكذا . لم نضع دقيقة واحدة من عمرنا واستمتعنا بوقتنا وعرفنا الحياة جيداً . ولم يسم ذلك إلينا بأي حال ؛ ولكننا كنا جميعاً من الرجال المهذبين يا ستيفن ، أو على الأقل — أعتقد ذلك — وأيرلنديين طيبين شرفاء أيضاً . هذا هو نوع الرفاق الذي أريدك أن ترتبط بهم ، رفاق من النوع السليم . إني أتحدث إليك كصديق يا ستيفن ، فأنت ممن يؤمنون بأن الابن يجب أن يخاف أباه ، كلا ، إني أعاملك كما عاملني جدك حين كنت ولدًا صغيراً . لن أنسى أبداً اليوم الذي ضبطني فيه وأنا أدخن . كنت أقف يوماً عند طرف « الشارع الجنوبي » مع بعض رفاقي من الشباب ، وكنا واثقين أننا من الكبار لأننا نرشق الغلايين في زوايا أفواهنا . وفجأة مر الوالد . ولم يقل حرفاً ، بل إنه لم يتوقف عن السير . وفي اليوم التالي ، وكان يوم أحد ، خرجنا معاً للنزهة ، وحين كنا عائدين للمنزل ، أخرج علبة السيجار وقال : على فكرة يا سيمون ، لم أكن أعرف أنك تدخن ، أو شيئاً من هذا القبيل . وحاولت بالطبع أن أتحمّل الموقف بقدر ما أستطيع . وقال : إذا كنت تبغي تدخيناً طيباً عليك بهذا السيجار ، لقد أهدانيه أحد الضباط الأمريكيين الليلة الماضية في « كونيغ تاون » .

وسمع ستيفن صوت والده يتكسر في ضحكة كانت بالإجهاش أشبه .
— لقد كان أوسم رجال كورك في هذا الوقت ، بحق الإله . كانت النساء يتوقفن لينظرن إليه في الطرقات .
وأنصت إلى إجهاش والده تمر في ضجة عبر حلقة ، وفتح عينيه بدافع

عصي . وأحال شعاع الشمس الذي تكسر فجأة على عينيه السماء والسحب إلى عالم وهمي من كتل مظلمة ذات فواصل على هيئة بحيرات من الضوء الوردى المعتم . وكان عقله ذاته سقيماً غير ذي حول ، ولم يكن يكاد يستطيع أن يفسر حروف لوحة إعلانات المحال التجارية . كان يبدو كما لو كان قد وضع نفسه بعيداً عن نطاق الواقعية بطريقة حياته الشاذة . ولم يكن من شيء يؤثر عليه في العالم الواقعي أو يبادل الحديث إلا إذا استمع فيه لصدى الصيحات الحانقة التي تتردد داخل نفسه . لم يكن بإمكانه الاستجابة لأي داع أرضي أو بشري ، كان أبكم لا يستجيب لدواعي الصيف أو مباحج الصحبة ، متعباً مثبطاً من صوت أبيه . لم يكن يكاد يتعرف على أفكاره في أفكاره ذاتها ؛ وأخذ يردد لنفسه في بطاء :

— أنا ستيفن ديدالوس ، أسير إلى جوار والدي واسمه سيمون ديدالوس ، نحن في كورك بأيرلندا . وكورك مدينة . وحجرتنا في فندق فيكتوريا . فيكتوريا وستيفن وسيمون . سيمون وستيفن وفيكتوريا أسماء .

وفجأة ! أخذت ذكريات طفولته تعتم ، وحاول أن يبعث بعضاً من لحظاتها الصبوحة . ولكنه لم يستطع . لم يستعد سوى أسماء . دانتي ، بارنل ، كلين ، كلونجوز . صبي صغير ، تدرس له الجغرافيا سيدة عجوز تحتفظ بفرشتين في دولاها . ثم أرسلوا به من البيت إلى المدرسة ، وقام بأول تناول مقدس له وأكل حلوى العرقسوس من قبة الكريكت ، وشاهد ضوء النيران وهو يقفز ويتراقص على جدار غرفة النوم الصغيرة بالمستشفى ، وحلم أنه مات . والمدير يتلو القداس وهو يرتدي غفارة سوداء وذهبية ، ودفنه في مقبرة الطائفة الصغيرة بجانب طريق الجير الرئيسي . ولكنه لم يمت آنذاك . بارنل مات . لم يقم أى قداس للميت في الكنيسة الصغيرة ولا طقوس . لم يمت ، بل ذوى كالعشاوة في الشمس . كان قد ضاع أو تاه بعيداً عن الوجود ، فهو ليس بعد موجوداً . ما أغرب التفكير بأنه قد غاب عن الوجود بهذه الطريقة ، ليس

بالموت بل بالذوي في الشمس أو بالضياح والنسيان في مكان ما في الكون . كان من الغريب رؤية جسده الصغير يظهر ثانية لحظة ، صبي صغير في بذلة رمادية ذات زنار ، يده في جيوبه الجانبية وسراويله مثبتة عند ركبتيه بشرائط مرنة . وفي مساء اليوم الذي بيعت فيه ممتلكات والده ، تبعه ستيفن في دعة ، يتجولان في أنحاء المدينة من حانة إلى حانة . وكان المستر ديدالوس يقص نفس الحكاية على بائعي السوق والبارمانات وخادمات البار والمتسولين الذين كانوا يلحون في طلب صدقة ، بأنه من أهالي « كورك » القدماء ، وأنه حاول وهو في دبلن التخلص من اللهجة الكوركية مدة ثلاثين عاماً ، وأن الغلام الذي يجانبه هو ولده الأكبر الذي ليس إلا وغداً من أوغاد دبلن .

وكان قد انطلقا في الصباح من مقهى « نيوكومب » حيث ارتطم كأس المستر ديدالوس في ضجة بالطبق ، وحاول ستيفن أن يخفي الدلائل المشينة التي تظهر إغراق والده في الشراب في الليلة الماضية ، بنقل مقعده وبالسمال . وتتابعتم مظاهر الهوان ، من ابتسامات بائعي السوق الزائفة ووثبات وغمزات فتيات الحانة اللاتي كان يغازهن الأب ، إلى تحيات أصدقاء الأب وكمهتهم المشجعة . أخبروه بأن به سمات كثيرة من جده ووافق مستر ديدالوس قائلاً إنه مشال كرية . واكتشفوا آثار اللهجة الكوركية في حديثه وجعلوه يعترف بأن نهر « لي » أكثر جمالاً من نهر « لايفي » وأراد أحدهم أن يختبر معلوماته في اللاتينية ، فجعله يترجم فقرات قصيرة من « ديلكتوس » ، وسأله إن كان صحيحاً أن نقول :

Temdora mutatus et mutamur in illis.

أو

Tempora mutantur et nos mutamur in illis. (١)

(١) « زماننا متغير ومتقلب في طرودة » والعبرة هنا في وضع كلمة *nos* في الجملة ومكانها .

وأوقع آخر الاضطراب فيه ، وكان رجلاً عجوزاً خفيف الحركة يدعوه
المستر ديدالوس « جوني كاشمان » ، بأن سأله أيها أجمل ، فتيات دبلن أم
فتيات كورك .

فقال مستر ديدالوس : دعه وشأنه ، إنه ليس من هذا الطراز . إنه ولد
متزن مفكر لا يشغل رأسه بهذا الهراء .

فقال العجوز القميء : إذن فهو ليس ابن والده .
فقال المستر ديدالوس وهو يبتسم في انشراح : لست أدري على أية حال .
وقال العجوز القميء لستيفن ؟ كان والدك مغازلاً جريئاً في كورك في زمانه .
أتعلم ذلك ؟

وغض ستيفن من بصره متأملاً أرضية الحانة المرصوفة التي دخلها إليها .
فقال مستر ديدالوس : لا تحسّ رأسه بهذه الأفكار ، دعه لخالفه .
فقال العجوز القميء : « لن أحشو أية أفكار في رأسه بالتأكيد . إنني في
سن والده » . ثم قال لستيفن : وأنا جد أيضاً ، أتعلم ذلك ؟
فقال ستيفن : حقاً ؟

فقال العجوز القميء : أجل بحق الإله ، فلدي حفيدان يتواثبان هناك في
« صنداى ول » . والآن ... كم تظنني أبلغ من العمر ؟ إنني أتذكر منظر جدك
في معطفه الأحمر وهو خارج إلى الصيد . كان ذلك قبل مولدك .
فقال مستر ديدالوس : أجل ، بل قبل التفكير في ذلك .

فردد العجوز القميء : لقد رأيتك بحق الإله ؛ وأكثر من ذلك ، بإمكانني
أن أتذكر جدك الأكبر ، جون ستيفن ديدالوس العجوز ، وكان يأكل الحديد
والنار ، يا لها من ذكريات بالنسبة لك .

فقال واحد آخر من الجماعة : يرجع ذلك إلى ثلاثة أو أربعة أجيال ، آه
يا « جوني كاشمان » لا بد أنك تناهز المائة .

فقال العجوز القميء : حسناً ، سأخبرك بالحقيقة ، إنني لم أتجاوز السابعة

والعشرين من عمري .

فقال المستر ديدالوس : يحسب عمرنا على قد إحساساتنا . ولكن ... افرغ ما بيدك حتى نؤتى بغيره . هيه يا تيم أو يا توم ، أو كيفها يكون اسمك ، علينا بنفس الشراب ثانية . بحق الإله ، لا أشعر أنا نفسي بأني أتعدى الثامنة عشرة . هذا هو ابني لا يتجاوز عمره نصف سنوات عمري ومع ذلك فأنا أحسن منه حالاً طوال أيام الأسبوع .

فقال السيد الذي تحدث سابقاً : خفف الوطء الآن يا ديدالوس . أظن أنه قد حان الوقت الذي تترجع فيه إلى الصف الخلفي .

فأكد مستر ديدالوس : كلا بحق الإله ، سوف أتحداه في أداء لحن تينور أو في قفز حواجز خمسة ، أو في الجري وراء كلاب الصيد في الريف كما كنت أفعل منذ ثلاثين عاماً مع « كيري بوي » أحسن من يفعل ذلك .

فقال المعجوز القمىء وهو يدق على جبهته ويرفع كأسه ليفرغها حتى الثالثة : ولكنه سيقهرك في هذه .

فقال المستر ديدالوس : حسناً ، أتمنى أن يكون رجلاً طيباً في حياته مثل والده ، هذا كل ما يمكنني قوله .

فقال المعجوز القمىء : إن كان كذلك فسيكون طيباً .

فقال المستر ديدالوس : نشكر الرب يا جوني أننا عشنا طوال هذه المدة ولم نرتكب سوى أهون الضرر .

فقال المعجوز القمىء : ولكن لنا كثيراً من الطيبات يا سيمون . نشكر الرب أننا عشنا طوال هذه المدة وفعلنا الكثير من الطيبات .

ورأى ستيفن الكؤوس الثلاثة ترتفع من على الخوان ليشرّب والده ورفيقاه نخب ماضيهم . كانت هوة من المصير أو من الطباع تفصله عنهم .

كان عقله يبدو أكبر من عقلهم ، يسطع في برود فوق خلافاتهم ومسراتهم وأحزانهم مثلما يسطع قبر على أرض أصغر منه . لم تثر فيه الحياة أو الشباب

مثلاً ثارا فيهم من قبل . لم يعرف أبداً مسرة صحبة الآخرين ولا قوة العافية الرجولية العنيفة ولا الاحترام البنوي . لم يثر في روحه إلا شهوة باردة قاسية مجردة عن الحب . كانت طفولته قد ماتت أو هي فقدت ، وماتت أو فقدت معها قابليته للمسرات الصغيرة . وكان يحنح وسط الحياة مثل قشرة القمر الجذباء .

أنت صاحب من الارهاق
من التصعيد في السماء والتطلع إلى الأرض .
في جولاتك المنفردة ...؟

وردد لنفسه سطوراً من هذه الشذرة لشيلاي . وأشعره تراوحها بين الضعف الإنساني الحزين ودورات النشاط غير الانساني الواسع المدى بالرعدة ، ونسي أحزانه البشرية الخاصة الواهنة .

* * *

انتظرت والدة ستيفن مع أخيه وأحد أولاد عمه في ركن من أركان « بلاس فوستر » الهادىء ، في حين صعد ستيفن الدرج وسارا عبر البواكي حين كان حراس « هايلاند » يسرون في عرض عسكري . وحين دخلا إلى الصلاة الكبرى ووفقاً أمام الخزينة ، أخرج ستيفن الشيكات التي حررت على محافظ بنك أيرلندا ببلغ ٣٣ جنيهاً وهو الجائزة التي حصل عليها عن معرضه ومقالاته ، وسلمه الصراف هذا المبلغ على هيئة أوراق مالية وعملات على التوالي . وأودعها جيبه في هدوء مصطنع ، وتحمل مصافحة الصراف الودود الذي جاذب والده أطراف الحديث ، والذي تمنى له حياة ناجحة في المستقبل . كان متبرماً من حديثها ، ولم يستطع أو يبقي قدميه ساكنتين؛ وانشغل الصراف عن خدمة الآخرين بقوله إن الزمن متغير ، وليس هناك من شيء يماثل توفير أفضل تعليم ممكن للابن مهما تكلف من أموال . وسار المستر ديدالوس في الردهة متريثاً ، يحدق فيما

حوله وفي السقف ، وأخبر ستيفن الذي كان يستحنه بأنهم يقفون الآن في مجلس العموم ببرطان ايرلندا القديم .

قال في ورع : ليساعدنا الله ! آه حين يفكر المرء في رجالات تلك الأيام يا ستيفن . هيلي هتشنسون وفلود وهنري جراثان وتشارلس كندال بش، ورجال الأيام الخالية النبلاء ، قادة الشعب الايرلندي في وطنه وفي خارج وطنه ، بحق الإله ، إنهم لا يستحقون أن يمنحوا مدفناً مساحته عشرة أكرات لهم جميعاً . كلا يا ستيفن ، أيها الشاب العجوز ، إني آسف إذ أقول إنهم سخفاء ، مثل الأغنية التي تقول : عندما خرجت مرتاضاً صباح أحد أيام مايو الجميلة ، وفي شهر يوليو الجميل المرح .

كانت ريح الكتوبرية لاذعة تهب حول البنك . وكان للأشخاص الثلاثة الذين يقفون عند نهاية الممر المليء بالطين خدود خاملة وأعين دامعة .

ونظر ستيفن إلى أمه التي تشتمل أردية خفيفة ، وتذكر أنه رأى منذ أيام قليلة دثاراً ثمة عشرون جنياً في فترينات محلات « بارناردو » .

قال مستر ديدالوس : حسناً ، اتهمنا من هذا .

قال ستيفن : يحسن بنا أن نذهب للغداء ، أين ؟

قال مستر ديدالوس : الغداء ؟ أظن ذلك ! ماذا ؟

قالت مسز ديدالوس : إلى أي محل ليس غالي الأسعار .

- في « أندردون » ؟

- أجل .. أي مكان هادىء هناك .

قال ستيفن بسرعة : هيا بنا ، لا تهم مسألة الغلاء هذه .

وسار أمامهم في خطوات قصيرة عصبية ، مبتسماً . وبدلوا جهدهم حق

يلاحقوا خطاه ، باسمين أيضاً من لهفته .

قال والده : على رسلك ، مثل الأولاد الطيبين ، لست إلا في أول طريق

الكسب ، أليس كذلك ؟

وسالت أموال الجائزة من بين أصابع ستيفن في فترة لهو سريعة . كانت تُحمل إليهم لفافات كبيرة من المأكولات والكماليات والحلوى المحففة . وكان يشتري كل يوم دفتر مواصلات لأسرته ، ويقود كل ليلة جماعة من ثلاثة أشخاص أو أربعة إلى المسرح لمشاهدة مسرحية « إنجومار » أو « سيدة ليون » . وكان يحمل في جيوب معطفه ألواحاً من شكولاته « فينا » لأجل ضيوفه ، في حين يكتظ جيب بنطالونه بكميات من العملات الفضية والنحاسية . واشترى الهدايا لكل شخص ، وملاً غرفته بالزخارف ، وخطط كثيراً من المشروعات ، وأعاد ترتيب كتبه هنا وهناك فوق رفوفها ، وعكف على جميع أنواع قوائم الأسعار ، وأقام نوعاً من الدويلة تضم أفراد أسرته ، حيث توجد وظيفة لكل شخص يؤديها ، وافتتح قرضاً في البنك لأسرته وفرض القروض على المستدينين الراغبين حتى يستمتع بكتابة الوصولات وحساب الأرباح على المبالغ المقرضة ، ولما لم يعد بإمكانه أداء تلك الأعمال ، صار يتجول في المدينة هنا وهناك في العربة العامة .

ثم انتهى فصل المرح ، وتشقق وعاء الأزهار ذو الطلاء الأحمر ، بينما ظلت ألواح الخشب التي تغطي جدران غرفته في كسائها الناقص وطلائها السقيم .

وعاد أهل بيته إلى حياتهم الطبيعية ، لم تعد أمام والدته بعد ذلك فرصة لتأنيبه على تبذيره . وعاد هو أيضاً إلى حياته السابقة في المدرسة . وتحطمت مشروعاته الجديدة كلها . وسقطت الدويلة ، وانتهى قرض البنك وأغلق خزائنه وحساباته على خسارة معقولة ، وبطلت قواعد الحياة الجديدة التي نسجها حول نفسه .

ما أغفل ما كانت آماله ! لقد حاول أن يشيد سداً من النظام والرقعة في وجه تيار الحياة السقيمة التي تحوطه ، وأن يمنع ترداد هذه التيارات القوي في نفسه عن طريق قواعد للسلوك واهتمامات نشطة وعلاقات بنوية جديدة . عبثاً . لقد

غمرت المياه حواجزه من الخارج ومن الداخل ، وبدأت تياراتها تتدافع مرة أخرى فوق السد المحطوم .

ورأى أيضاً بوضوح أن وحدته الذاتية عبث . لم يقرب خطوة واحدة نحو حياة من نشد الاقتراب منهم . ولا تخطى الحقد والحجل القلقين الذين فرقاه عن أمه وأخوه وأخته . لم يكن يكاد يشعر أنه من نفس دمائهم ، بل يقف منهم في قرى ربوية غامضة ، ربيب وأخ في الرضاع .

وتحول إلى تهدئة لهفات قلبه المستعرة التي تخيل كل شيء عداها باطلاً غريباً . ولم يعبأ بارتكابه الخطيئة الكبرى ، ولم يبالي بأن حياته قد أصبحت نسيجاً من الهروب والزيغ . ولم يكن هناك من شيء مقدس بعد الرغبة الوحشية داخله والتي تدعوه لتحقيق الأعمال التي يحلم بها في يقظته . كان يتحمل في لامبالاة تفاصيل مغامراته السرية المخجلة ، حين ينتشي لتدنيسه في صبر كل ما يجذب انتباهه من صور . وكان يتحرك في النهار وفي الليل بين صور مشبوهة للعالم الخارجي . وربما تأتي إليه بالليل من خلال انعطافات ظلمة النوم صورة كانت قد تبدت له في النهار برؤية رصينة وقد غير المكر الشهواني سحنها ، ولمعت عينها في سرور بهيمي . غير أن النهار كان يؤله بذكريات مغامراته الخليعة الخافتة وبإحساس حاد مهين بالتعدي .

وعاود تجولاته . وقادته أمسيات الخريف المسدلة من شارع إلى شارع مثما قادته منذ سنوات على طول طرق « بلاك روك » الهادئة . ولكن لم يبعث فيه منظر الحدائق الأمامية المنسقة ولا أنوار النوافذ العطوفة أي أثر رقيق في نفسه الآن . غير أن طيف « مرسيدس » كان يخترق خلفية ذاكرته في بعض الأوقات عند هدوء رغباته ، حين كان يخلي الانغماس المدمر مكانه للفتور اللطيف . ورأى مرة أخرى المنزل الصغير الأبيض وحديقة الورد على الطريق المفضي إلى الجبال ، وتذكر حركة الإباء الحزينة ذات الكبرياء التي سيقوم بها هناك ، واقفاً وإياها

في الحديقة التي يضيئها القمر بعد سنوات من الغربة والمخاطرة . وكانت خطب « كلود ملنوت » الرقيقة تتصاعد إلى شفتيه في مثل هذه اللحظات وتخفف من قلقه . ويلمسه نذير رقيق بالموعد الذي كان ينتظره حينئذ ، وبالمقابلة المقدسة التي كان يتخيلها عند ذلك والتي سيخلع عن نفسه عندها الضعف والرجل والسداجة ، برغم الحقيقة الرهيبة التي تقف بين آماله حينذاك وآماله الآن .

ومرت هذه اللحظات ، واندلعت نيران الشهوة المدمرة ثانية وهجرت سطور الشعر شفتيه ، واندفعت الصرخات المبهمة والكلمات البهيمية المكتوبة من عقله لتشق طريقاً لنفسها . كانت دماؤه في ثورة ، وكان يتجول هنا وهناك في الطرق المظلمة القذرة مخترقاً أغوار الحواري والأزقة ببصره ، منصتاً في لهفة لأي صوت كان يزار داخل نفسه كالوحش الضال العاوي . كان ينبغي أن يخطيء مع واحدة من جنسه ، أن يجبر مخلوقاً آخر أن يخطيء معه ، وأن ينتشي وإياها في الخطيئة . وشعر بوجود مظلم يتحرك فوقه في إذعان في الظلمة ، وجود دقيق يهدر كالفيضان ، يملأ جوانحه تماماً . وحاصر هديره أذنيه ، كهدير جهرة نائمة ، بينما اخترقت تياراته الدقيقة كيانه . وتقلصت يداه وانضمت أسنانه حين عانى ألم الاختراق . ومد ذراعيه في الطريق لتقبضا بسرعة على الشكل الهش المنهار الذي حاوره وأثاره ، وانطلقت من بين شفتيه الصرخة التي خنقها هذه المدة الطويلة في حلقه . انطلقت منه نواحا يائساً من جحيم المعاناة ، وماتت في نواح الاستعطاف الثائر ، صرخة هجر مجحف ، صرخة هي صدى لكتابة بذيئة كان قد قرأها على جدار دورة مياه راشح . وجال في متاهات الطرق الضيقة القذرة ، وكان يسمع تفجر الأصوات الجششاء ومجادلات المغنين السكارى وفأفأاتهم من الحواري الدنسة . ومضى في السير غير مستاء ، يتساءل عما إذا كانت قد ضل طريقه في حي اليهود . وكانت نسوة وفتيات يعبرن الطريق من منزل إلى منزل ، في ملابس طويلة زاهية . كنَّ على مهل من أمرهن ومعطرات . وغمرته الرعدة وخفت الضوء من عينيه . وقامت نيران المصابيح الصفراء أمام ناظره المتعب

أمام السماء الغبشاء وهي تحترق كأننا هي أمام الهيكل المقدس. وتجمعت جماعات من الناس أمام الأبواب وفي الردهات المضاءة وقد ارتدت من الملابس ما يناسب الطقوس الدينية . كان في عالم آخر ، لقد استفاق من سبات قرون .

ووقف ساكناً في منتصف الطريق ، وقلبه يجلجل بين ضلوعه ، ووضعت امرأة شابة ترتدي فستاناً طويلاً أحمر يدها على ذراعه لتستوقفه ، وحملت إلى وجهه وقالت في مرح : « مساء الخير يا عزيزي وبلي » .

وكانت حجرتها دافئة مضيئة . ورقدت عروس خشبية ضخمة على المقعد يجوار الفراش وقد انفرج ساقاها . وحاول أن يتكلف الكلام حتى يبدو مستريحاً وهو يراقبها إذ تنضو عنها ثوبها ، ويلاحظ حركات رأسها المعطر الواعية ذات الكبرياء .

وجاءت إليه وهو واقف وسط الحجر ، واحتضنته في بهجة ورضانة . وضمته ذراعاها المستديرتان إليها في ثبات . وإذا رأى وجهها مرفوعاً نحوه في هدوء جدي ، وشعر بخفقات صدرها الدافئة الهادئة ، انفجر في بكاءات هستيرية . والتمعت دموع فرح وراحة في عينيه الفرحتين ، وانفجرت شفتاه رغم أنها لم تنطقا .

ومرت بيدها الرنانة خلال شعره وهي تدعوه بالوعد الصغير .

قالت : أعطني قبلة .

ولم تطاوعه شفتاه الانحناء لتقبيلها ، كان يريد أن تمسك به في قوة بين ذراعيها ، أن تهدمه في بطف ، في بطف .

شعر بنفسه فجأة بين ذراعيها ، وقد أصبح قوياً غير وجل وواثقاً من نفسه . ولكن شفتيه لم تطاوعاه الانحناء لتقبيلها .

وأحنت رأسه بجرمة مفاجئة ووصلت شفتيها بشفتيه ، وقرأ معنى حركاتها في عينيه الصريحتين المرفوعتين إلى أعلى . كان ذلك فوق احتماله . وأغلق عينيه

وقد سلم نفسه إليها جسداً وعقلاً ، غير واع لشيء في الدنيا سوى ضغط شفيتها
الرقیقتین المنفرجتین الداكنتین. كانتا تضغطان على ذهنه كما تضغطان على شفتيه ،
كأنما هما أداة كلام مبهم . وشعر بينهما بضغط غامض وجل ، أشد ظلمة من
غشية الخطيئة ، أشد رقة من الصوت أو العبير .

★ ★ ★

زحفت عتمة ديسمبر الحافظة متعثرة في هذر بعد اليوم الكئيب ؛ وشعر ستيفن إذ هو يتطلع من وراء فرواز نافذة الفصل الكئيب بجوفه يتشوق إلى الطعام . وأمّل أن يكون هناك « بخنة » في الغداء ، من الكرنب والجزر والبطاطس المهروسة وقطع لحم الخنزير السمينة ، ويُفرق كل هذا في صلصة بها كثير من الفلفل ومغشاة بالدقيق . وأشار عليه جوفه بأن يفرغ هذه الخلطة في معدته .

ستكون ليلة كئيبه غامضة . وستضاء المصابيح الصفراء هنا وهناك في حي العاهرات القذر بعد هبوط الليل المبكر . ويسير في خط ملتو في هذا الطريق أو ذاك ، ويقترّب دائماً أكثر فأكثر في رجفة خوف وفرح حتى تقوده قدماه فجأة إلى أحد الجوانب المظلمة . وتكون العاهرات في بداية خروجهن من المنازل للاستعداد لليل ، يتشاءبن في كسل بعد النوم ويسوين دبابيس الشعر في خصلاتهن . ويمر بينهن في هدوء ، ينتظر لفتة مفاجئة من رغبته ، أو نداء مفاجئاً من أجسادهن العطرة اللدنة إلى روحه التواق للخطيئة .

وإذ هو يطوف في سيره بحثاً عن هذا النداء ، تتنبه وسائل الحس عنده في دقة إلى كل ما يجرحها أو يخجلها وقد أعمتها الرغبة . فترى عيناه دائرة الجمعة

السوداء على سطح مائدة عار أو صورة جنديين في وقفة انتباه ، أو إعلان مزخرف ، وتسمع أذناه لغو التحيات المدوي .

– هالو برتي ، أما قررت شيئاً ؟

– أهذه أنت أيتها الحمامة ؟

– رقم عشرة ، هناك نيللي في خدمتك .

– مساء الخير يا زوجي ، ألا تأتي لحظة ؟

واتخذت المعادلة الجبرية التي دوّنها في دفتر مسوداته هيئة ذيل متمدّد له أعين الطاووس ونجماته . وحين أزيلت عيون الأس الجبري ونجماته ، أخذت تنطوي ببطء مرة ثانية . وحين كان الأس يظهر ثم يختفي كان يشبه العين التي تنفتح ثم تغلق ، والعين التي تنفتح ثم تغلق كانت كالنجوم التي تولد ثم تنطفئ . وحملت دائرة حياته النجمية الرحبة ذهنه المكدود خارجاً إلى أقصى حافته وداخلاً إلى مركزه بينا تواكبّه موسيقى قصية في خروجه ودخوله . أي موسيقى ؟

واقتربت الموسيقى أكثر واستعاد الكلمات ، كلمات شذرة « شيلبي » عن القمر الذي يتجول وحيداً ، شاحباً من الإرهاق . وتقلصت النجوم ، وهوت سحابة من الغبار النجمي الرقيق عبر الفضاء .

وسقط النور السقيم في وهن أكثر على الصفحة حيث بدأت معادلة جبرية أخرى تكشف عن نفسها في ببطء وتبسط ذيلها العريض . كانت هي روحه قد خرجت للاقاة التجربة ، تكشف نفسها في كل خطيئة ، تبسط منارة أنجمها المتوهجة ثم تنكش على نفسها مرة أخرى ، تخفت في ببطء ثم تظفيء أنوارها ونيرانها . لقد انطفأت تماماً ، وملاً السديم الظلام البارد .

وسادت روحه لامبالاة هادئة . عند أول خطيئة له انبعثت فيه موجة من الحيوية ، وخاف أن يشوه الافراط جسده أو روحه . ولكن حملته بدلاً من ذلك موجة الحيوية على صدرها خارج ذاته وأعادته إليها ثانية عند انحسارها .

ولم يتشوه شيء من جسده أو روحه بل قام سلام خفيّ بينهما . وكان السديم الذي انطفأت حميته عنده عرفاناً بارداً لامبالياً بالنفس . كان قد ارتكب الكبرى عدة مرات ، وأدرك أنه بينما يخاطر بحلول اللعنة الأبديّة عليه لأول خطيئة اقترفها ، فإنه يضاعف ذنبه وعقابه بكل خطيئة يقوم بها بعد ذلك . ولم تفلح أيامه ولا أعماله أو أفكاره في التكفير عنه ، فقد كفتت يناييس السماحة المقدسة عن إنعاش روحه . وكان كل ما يستطيع أن يأمل فيه أن يربح لنفسه قدراً من السماحة الحقّة بصدقة يجود بها على شحاذ يفرّ من دعواته . كانت تقواه قد ذهبت أدراج الرياح . ماذا تجديده صلواته حين يدرك أن روحه تشتبه دمارها ؟ ومنعه الكبر والخوف من بذل صلاة واحدة لله في المساء ، رغم إدراكه أن بوسع الله أن يقبض روحه أثناء نومه ويقذف بها إلى أغوار الجحيم قبل أن يضرع في طلب الرحمة . وأوحت إليه سورة خطيئته وخوفه من الله خوفاً خالياً من الحب بأن معصيته أجلّ من أن يكفّر عنها كلها أو بعضها عن طريق ولاء زائف للذي يرى كل شيء والذي وسع علمه كل شيء .

— « حسنًا » إينس « أنا أعلن أن لك رأساً ، ولكن عصاي لها رأس كذلك . أتريد أن تقول أنك لا تستطيع أن تخبرني ما هو الجذر الرياضي الأصم ؟ » .

وأيقظ الرد العائر قبس ازدرائه لزملائه . لم يكن يشعر بأي عار أو وجل أمام الآخرين . وكان ينظر في صبيحة أيام الآحاد ببرود إذ يعبر باب الكنيسة إلى المصلين الذين يقفون عاري الرؤوس في صفوف أربعة أمام الردهة ، يحضرون القداس معنوياً بينما هم لا يستطيعون شهوده أو سماعه . وصدّه ورعهم الخائر ورائحة زيت الشعر الرخيص السقيم الذي يدهنون به رؤوسهم عن المذبح الذي يصلّون أمامه . وسقط في حبالل مداهنة الآخرين ، فقد كان يشك في براءتهم ويتملقها في سهولة .

وعلق على جدار غرفة نومه قائمة وضاعة ، هي شهادة اختياره عريفاً لمجعية

« العذراء المقدسة ماري » في المدرسة . وحين كانت الجمعية تلتقي في الكنيسة الصغيرة لتلاوة القداوس الصغير كان مكانه يقع في المركع ذي الطنائف على يمين المذبح حيث يقود منه جناح الأولاد خلال الردود . ولم يؤلمه زيف موقفه . ولو حدث في بعض الأوقات أن خالجه شعور بأن ينهض من مكان الشرف الذي يجلس فيه ليعترف أمام الجميع بعدم أحقيته لذلك المكان ويفادر الكنيسة ، كانت تجعله يحجم عن ذلك نظرة واحدة إلى وجود من حوله . وكانت صور مزامير النبوة تهديء من كبرياته العقيمة . وأسرت أمجاد العذراء روحه ، الزيت والمر واللبن التي ترمز كلها لنسبها الملكي ، ثم شعارها : النبات الذي يزهر متأخراً ، والشجرة التي تزهر متأخرة ، ويرمزان للنمو التدريجي عبر العصور لشعائرها الدينية بين بني الانسان . وحين جاءه الدور لقراءة الدرس عند نهاية القداوس ، قرأه في صوت مقنن ، مهدداً ضميره على موسيقاه :

Quasi cedrus exaltata sum in Libanon et quasi cupressus in monte Sion. Quasi palma exaltata sum in Gades et quasi plantatio rosae in Jericho. Quasi uliva speciosa in campis et quasi platanus exaltata sum juxta aquam in plateis. Sicut cinnamomun et balsamum aromatizans odorem dedi et quasi myrrha electa dedi suavitatem odoris. ^(١)

كانت خطيئته التي حجبته عن مرأى الإله قد قادتته إلى مقربة من ملاذ الخاطئين . وبدت عيناها كالو كانتا ترقبانه في عطف ليّن ، ولم تكن

(١) كأنما كانت أشجار الشربين تزه في لبنان وكأنما الأرز يزدهر في جبل صهيون . كأنما أشجار التمر تزه في « قداوس » والنباتات المزهرة في « أريحا » . وكأنما أشجار الزيتون تملأ المروج من أفضل أنواعها ، وكأنما كانت أشجار الصفار تزدهر بجانب المياه في الطرقات . كأنما كانت أشجار « القرفة » والبلسم المعطرين تفوح بالعبير . وكأنما كانت أشجار المر الختارة تطلق عبيرها الخافت » .

قد استهت تبعث أي هوان في نفس الخاطيء الذي يتقرب إليها ولا النور الغريب الذي يشع في وهن على جسدها الهش. وإن كان عليه أن يهجر الخطيئة والتوبة يوماً ، فلن يدفعه إلى ذلك سوى أن يصبح فارساً . آه لو تتحول نحوها روحه لتدخل نعيمها في خجل بعد رعونة شهوته الجسدية التي أنهكت نفسها ، إلى تلك التي شعارها نجم الصباح ، المشرق المنغمم ، الذي يحكي عن الساء ويبعث في النفس السلام . كان يحدث ذلك حين تهمهم الشفاء باسمها في رفق ، الشفاء التي ما تزال تحوم عليها الكلمات المشينة القدرة ومذاق القبلات الفاجرة .

كان ذلك غريباً ، وحاول أن يفكر كيف يحدث ، ولكن العتمة التي كانت تتزايد في الفصل غطت أفكاره . ودق الجرس ، وأشار المدرس إلى المسائل الهندسية المقررة للدرس القادم وخرج . وأخذ « هارون » يعني دون تنعيم :

« صديقي الحميم بومبادوس »

وعاد « إينيس » الذي كان قد ذهب ألى الفناء يقول :

– لقد حضر فرّاش الادارة يسأل عن المدير .

وحك يديه ولد طويل خلف ستيفن وقال :

– هذا من حظنا ، ولنا أن نمرح طوال هذه الساعة ، فلن يأتي إلينا إلا بعد

منتصف الثانية ، وعندها تسأله بعض الأسئلة عن الوعظ يا ديدالوس .

واستمع ستيفن إلى ما يجري حوله من حديث وهو يميل إلى الخلف ويُجري خطوطاً كيفما اتفق على المسودة التي أمامه . وكان « هارون » يقطع الحديث من وقت لآخر بقوله : « اصمت ، اصمت ، لا تكن كالطبل الأجوف » .

وكان غريباً أيضاً أن يجد لذة في الحفاظ على قواعد الكنيسة الصارمة إلى مداها ، وفي اختراق حججها الصامته ثم لا يحدث إلا أن يزيد ما يسمعه وما يشعر به من إدانته . وكانت الجملة التي قالها القديس جيمس ، إن من يخطيء في واحدة فقد أخطأ في الكل ، تبدو له قبلاً جملة فارغة ، إلى أن بدأ يتلمس في

الظلام الوضع الذي أصبح فيه ، فقد انبعث من بذور الشهوة الشريرة كل الخطايا الرئيسية الأخرى : الزهو بالنفس ، وازدراء الآخرين ، الإسراف في إنفاق المال على المسرات المحرمة وحسد من لا يستطيع مجاراة خطاياهم ، واغتياب الصالحين ، والاستمتاع الشره بالطعام ، والغضب السقيم المحدث ، حين كان يعكف على أشواقه ومستنقع القذارة الروحية والجسدية الذي سقط فيه كيانه كله .

وحينما كان جالساً في مقعده يحملق في هدوء إلى وجه المدير الأريب العاتي ، كان عقله يهرب هنا وهناك من الأسئلة العجيبة التي كانت تعرض له . لو أن رجلاً سرق جنياً في شبابه واستخدمه في جمع ثروة عريضة ، فكيف يكون عليه أن يعيد الجنية الذي سرقه فقط أم الجنية مضافاً إليه الربح المركب المتجمع عن المدة المتقضية ، أم عليه أن يعيد كل ثروته ؟ وإذا أراق أحدهم الماء المقدس المعدّ لتعميد طفل ما قبل تلاوة كلمات التعميد ، فهل يصح عماد الطفل ؟ هل يصح التعميد بالماء المعدني ؟ كيف يتفق أن آية تعد الفقراء بجنة السماء بينما تعد آية ثانية الودعاء بأنهم سيرثون الأرض ؟ لماذا كان القربان المقدس مبنياً على صنفين الخبز والنبيد ما دام يسوع المسيح يكون حاضراً جسداً ودماً ، وروحاً وألوهية في الخبز منفصلاً وفي النبيد منفصلاً ؟ وهل تتضمن كسرة صغيرة من الخبز المقدس كل جسد ودم يسوع أم جزءاً فقط من الجسد ومن الدم ؟ وإذا حال النبيد إلى خل وتحلل القربان إلى عفن بعد أن يكونا قد تقدسا ، فهل يوجد فيها يسوع المسيح بعد ذلك كإله وبشر ؟

— ها هو ، لقد حضر !

كان أحد التلاميذ قد رأى من مكانه بالقرب من النافذة المدير وهو قادم من الإدارة . وفتح الجميع كتب الوعظ وانحنى كل الرؤوس عليها في صمت . ودخل المدير واتخذ مكانه فوق المنصة . وحثت ستيفن ركلة خفيفة من الولد الطويل الذي يجلس خلفه لكي يسأل سؤالاً صعباً . ولكن المدير لم يطلب كتاب الوعظ ليستمع إلى الدرس منه ، بل عقد يديه فوق الدرج وقال :

– ستبدأ الخلوة^(١) عند أصيل الأربعاء تكريماً للقديس « فرانسس إكسافير » الذي نحتفل بعيدة يوم السبت ؛ وستستمر الخلوة من يوم الأربعاء حتى يوم الجمعة ، وسيُخصص أصيل الجمعة لسباع الاعترافات بعد صلاة المسابح ، فإن كان أي منكم قد تعود على الاعتراف لقسّ معين فالأفضل له ألا يغيّره . وسيقام القداس في التاسعة تماماً من صباح الأحد ، ويتم التناول المقدس للمدرسة كلها . أما السبت فسيكون إجازة . وبما أن يومي السبت والأحد سيكونان إجازة ، فقد يظن بعض الأولاد أن الاثنين إجازة ، فحاذروا أن تقعوا في هذه الغلطة . أعتقد أنك « يا لوليس » ربما تقع في هذه الغلطة .

– أنا يا سيدي ؟ لماذا يا سيدي ؟

وبعثت ابتساماً المدير الكالحة موجة قصيرة من المرح في فصل الأولاد . وبدأ قلب ستيفن ينثني ويدبل في بطنه من الخوف مثل الزهرة التي تموت .

وواصل المدير حديثه في رزانة :

– أعتقد أنكم تعرفون كلكم قصة حياة القديس « فرانسس إكسافير » راعي مدرستكم . لقد انحدر من أسرة أسبانية قديمة ذائعة الصيت ، وتذكرون أنه كان واحداً من أوائل من تبعوا القديس « اغناطيوس » . لقد تقابلنا في باريس حيث كان « فرانسس إكسافير » يعمل أستاذاً للفلسفة بجامعةها . وتشرب هذا النبيل الشاب المثقف اللامع أفكار مؤسسنا المجيد قلباً وروحاً ؛ وتعرفون أن القديس اغناطيوس قد أرسله بناء على طلبه للتبشير بين الهنود . وتنقل من بلد إلى بلد في الشرق ، من أفريقيا إلى الهند ، ومن الهند إلى اليابان ، لتعميد الناس . ويقال انه أتم تعميده عشرة آلاف وثني في شهر واحد . ويقال إن ذراعه اليمنى قد أصبحت عاجزة من طول ما رفعها فوق رؤوس من كان يعمدهم . ورجب عندئذ في السفر إلى الصين لضمّ مزيد من الأرواح إلى الله ولكنه مات

(١) الخلوة : انسحاب مؤقت لأداء بعض الطقوس والتدريبات الدينية .

من الحمى في جزيرة « سانشان » . كان قديساً عظيماً ، القديس « فرانسس إكسافير » خادم الإله العظيم .

وتوقف المدير ، ثم واصل كلامه وهو يهزّ يديه المعقودتين أمامه : - كان إيمانه يهزّ الجبال . يضم عشرة آلاف روح إلى الله في شهر واحد ! إنه قائد حق ، يصدق على شعار جماعتنا : « إلى مجد الله العظيم » . قديس له قوة عظمى في السماء ؛ تذكروا : قوة تتشفع لنا في أحزاننا ، قوة تنيلنا كل ما نضرع من أجله إن كان صالحاً لروحنا ؛ وفوق كل شيء ، قوة تمكن لنا مسرة التوبة إن نحن أخطأنا . قديس عظيم ، القديس « فرانسس إكسافير » صائد الأرواح العظيم .

وتوقف عن هز يديه المعقودتين ، وأسندهما إلى جبينه ثم أخذ ينظر ذات اليمين وذات اليسار في دقة إلى سامعيه من وراء عينييه السوداوين الصارمتين . وفي الصمت الذي ساد المكان أحالت نارهما السوداء العتمة إلى وهج أصحح . وذوى فؤاد ستيفن كزهرة الصحراء حين تهبّ عليها رياح السموم من بعيد .



- « تذكروا آخرتكم دائماً فلا تقعوا في الخطيئة » .

- يا صفاري الأعزاء إخوتي في الدين ، هذه الكلمات من كتاب الجامعة ، الفصل السابع ، الآية الأربعون ، باسم الأب والابن والروح القدس ، آمين .

جلس ستيفن في الصف الأخير من الكنيسة الصغيرة ، وجلس الأب أرناط إلى مائدة على يسار المذبح وقد اشتمل بعباءة ثقيلة على كتفيه ، وكان وجهه مشدوداً ، وقد ترك الربو آثاراً في صوته . وأعادت صورة وجهه أستاذه العجوز التي انبعثت في ذهنه بطريقة غريبة حياته في كلونجوز إلى تفكيره : الملاعب الفسيحة التي تتوج بالأولاد ، حفرة الملعب ، المقبرة الصغيرة على طريق الأشجار حيث حلم أنه دفن ، ظلال النيران على جدار المستشفى حيث رقعد

مريضاً ، ووجه الأخ ميشيل الأسيف . وعادت روحه عند استعادة هذه الذكريات روح طفل مرة أخرى .

— لقد اجتمعنا هنا اليوم يا أعزائي الصغار إخوتي في الدين ، لنمضي فترة قصيرة بعيداً عن صوضاء العالم الخارجي لكي نحتفل ونكرم واحداً من أعظم القديسين ، رسول الهنود ، وهو أيضاً القديس الراعي لمدرستكم ، القديس « فرانسيس إكسافير » . لقد اجتمع تلاميذ هذه المدرسة عاماً بعد عام منذ زمن أطول من أن يتذكره أي منكم أو أتذكره أنا ، اجتمعوا في نفس هذه الكنيسة ليقوموا بالخلوة السنوية قبل يوم عيد راعيكم القديس فرانسيس . وقد مر الزمن وأحدث تغييراته . ومن منكم يستطيع ألا يتذكر التغييرات التي حدثت في السنوات القليلة الماضية ؟ ربما يكون كثير من الأولاد الذين جلسوا في هذه المقاعد الأمامية منذ سنوات مضت في بلاد بعيدة الآن ، في المداريات اللاذعة الحرارة ، أو مثقلين بواجبات عملهم أو في المعاهد اللاهوتية ، أو يرحلون عبر البحار التي لا تحدها حدود ، أو ربما يكون ربهم العظيم قد استدعاهم لحياة أخرى وأعفاهم من مشقة الحياة الدنيا . ومع مرور السنين التي تجلب معها كثيراً من التغيير إلى الأفضل أو إلى الأسوأ ، لا زال طلبة هذه المدرسة يكرمون ذكرى قديسهم العظيم ويقومون كل عام بخلوتهم السنوية في الأيام التي تسبق يوم العيد الذي خصصته أمنا المقدسة الكنيسة لحفظ اسم وصيت واحد من أعظم أبناء أسبانيا الكاثوليكية عبر العصور .

— والآن ، ما معنى هذه الكلمة : الخلوة ، ولماذا يعتبرها الجميع أفضل وسيلة لأي شخص يريد أن يعيش حياة مسيحية حقة أمام الله وأمام الناس ؟ الخلوة ، يا أعزائي الصغار ، تعني الانسحاب فترة من مشاغل الحياة ، مشاغل هذه الدنيا الدائبة العمل من أجل فحص حالة ضمائرنا ، وللتفكير في أسرار الدين المقدس ولتفهم سبب وجودنا في هذه الدنيا فهماً أفضل . وإنني أنوي في خلال هذه الأيام القليلة أن أعرض أمامكم بعض الأفكار فيما يختص بالأشياء الأربعة المتعلقة

بآخرتنا . وهذه الأشياء ، كما تعلمون من دروس الوعظ هي : الموت ، والحساب ،
والنار والجنة . وسنحاول أن نفهمها أشد الفهم خلال هذه الأيام القليلة حتى يمكننا
أن نستمد من فهمنا إياها منفعة دائمة لنفوسنا . وتذكروا يا أولادي الأعزاء أن
الله قد خلقنا في هذه الدنيا لغرض واحد ، ولغرض واحد فقط ، هو تنفيذ
إرادته المقدسة وإنقاذ أرواحنا الخالدة . وكل ما عدا ذلك لا قيمة له . لا
حاجة بنا سوى إلى شيء واحد : خلاص الروح . ماذا يجدي الإنسان لو
كسب الدنيا جميعاً وخسر روحه الخالدة ؟ آه ... صدقوني يا أولادي الأعزاء
ليس هناك ما يعوّض المرء في هذه الدنيا البائسة عن مثل هذه الخسارة .

- وعلى هذا سأسألكم يا أولادي الأعزاء أن تطردوا من أذهانكم خلال هذه
الأيام القليلة كل الأفكار الدنيوية ، سواء عن الدروس أو عن اللهو أو المطامح ،
وأن تركزوا انتباهكم كله في الحالة التي عليها نفوسكم . وليست بي حاجة
إلى تذكيركم بأنه على كل شخص منكم أن يحافظ على السلوك الهاديء الورع وأن
يبتعد عن أي لهُو غير لائق خلال أيام الخلوة . وعلى الأولاد الكبار أن يراقبوا
الحفاظ على هذه العادات ، وإني أتطلع بصفة خاصة إلى عريفي وأعضاء جماعة
السيدة المباركة وجماعة الملائكة المقدسين لكي يكونوا قدوة حسنة لزملائهم
الطلبة .

- فلنحاول إذن أن نقوم بهذه الخلوة تكريماً للقديس فرانسيس بكل قلوبنا
وبكل عقولنا ، وستحل بركة الله على دروسكم طوال العام . ولكن عليكم
فوق كل شيء أن تجعلوا من هذه الخلوة شيئاً يمكنكم أن ترجعوا إليه في السنوات
المقبلة حين تكونون بعيدين عن هذه المدرسة في وسط مختلف تماماً، شيئاً ترجعون
إليه في غبطة وعرقان وتشكرون الله أن منحكم هذه الفرصة لوضع اللبنة
الأولى لحياة مسيحية ورعة كريمة . وإذا كان هناك - كما قد يحدث - أي شخص
مسكين في أي من هذه الفصول في هذه اللحظات قد أفقده الحظ العاثر عطف
الإله القدسي وسقط في أحضان الخطيئة البشعة ، فإني أصلي وأثق غاية الثقة

في أن تكون هذه الخلوة نقطة تحول في حياة هذا الشخص ، أصلي لله متشفعاً
بفضائل خادمه « فرانسس إكسافير » ، لكي يقود هذا الشخص إلى درب التوبة
الخالصة وأن يكون التناول المقدس في يوم القديس فرانسس من هذه السنة عهداً
أبدياً بين الله وهذا الشخص على التوبة . فلتكن هذه الخلوة خلوة مشهودة لمن
عدل ومن ظلم وللقديس والخطيء على السواء .

- ساعدوني يا إخواني الصغار الأغزاء في الدين ، ساعدوني بإنصاتكم الورع ،
بتكريسكم أنفسكم وبسلوككم . اطرردوا من أذهانكم كل الأفكار الدنيوية ولا
تفكروا إلا في آخرتكم ، الموت والحساب ، والنار والجنة . قالت الحكمة الجامعة :
من يتذكر هذه الأشياء فلن يخطيء إلى الأبد . من يتذكر آخرته فسيمعمل ويفكر
واضعاً إياها نصب عينيه ، وسيعيش حياة طيبة ويموت ميتة طيبة ، مؤمناً
ومدركاً أنه إن كان قد ضحى بالكثير في هذه الحياة الأرضية فإنه سينعطى
أضعافاً مضاعفة في الحياة الأخرى ، في المملكة الأبدية ، وهي نعمة أرجوها
لكل واحد منكم يا أعزائي الصغار ، باسم الآب والابن والروح القدس .
آمين .

وحين كان عائداً إلى منزله برفقة أصحابه صامتين ، كان يبدو وكأنما يحوط
عقله ضباب كثيف . وانتظر في حالة من الحذر العقلي لهذا الضباب أن ينقشع
ويُظهر ما كان يخفيه . وتناول طعام الغداء بشهية كدرة . وحين انتهى الغداء
وبقيت الأطباق خالية إلا من بقايا الدهن على المائدة ، قام وتوجه إلى النافذة ،
مزيلاً الزبد الكثيف من فمه بلسانه ولاعقاً إياه من فوق شفثيه . وهكذا انحدر
إلى درك الحيوان الذي يلحق أولاده بعد الأكل . هذه هي النهاية إذن . وبدأ
خيوط رقيق من الخوف يخترق ضباب عقله . وضغط وجهه على حافة النافذة
ونظر خارجاً إلى الطريق المظلم . وعبرت أشباح هنا وهناك خلال الضوء
السقيم . وهذه هي الحياة . وضغطت الحروف التي تكوّن اسم دبلن على عقله ،
يتجاذب أحدهما الآخر هنا وهناك في غلظة بإلحاح بطيء خشن . كانت روحه

تتضخم وتتخثر إلى كتلة من الدهن ، وتنغمس أكثر فأكثر بخوفها السقيم في ظلمة كئيبة متوحدة ، بينما يقف جسده مجرداً عن الحركة وعن الشرف ، ينظر من عينيّن مظلمتين ، عاجزاً ، قلقاً ، آدمياً ، إلى إله سقيم يتطلع إليه .

وجلب اليوم التالي معه الموت والحساب ، فhez روحه في بطن من يأسها الساكن . وتحول خيط الخوف الرفيع إلى رعب اجتاح روحه حين نفث صوت الواعظ الحادّ الموت فيها ، وعانى من ألمه . وشعر برعدة الموت تلمس أطرافه ثم ترحف نحو قلبه ، وغشاوة الموت تحجب عينيه ، ومراكن الدهن البراقة تنطفئ ، وحادّة إثر أخرى كالمصابيح ، وقطرات العرق الأخيرة تنضح على الجلد ، وعجز الأعضاء التي تموت ، ثم بوهن أكثر حتى يصبح على حافة الكف عن الخفقان ، والتنفس ، والتنفس الضعيف ، الروع الآدمية الضعيفة العاجزة ، تجهش وتزفر ، تقرقر وتضج في حلق الإنسان . لا مفر ! لا مفر ! إنه يموت ، هو نفسه ، جسده الذي استسلم له يموت . أنزلوه إلى القبر ، ودقّوه في صندوق خشبي ، الجثة . إحملوها خارج المنزل على أكتاف من استأجرتوه لذلك ، إلى القبر ، لتتعفن ، ليتغذى عليها الدود الزاحف وتلتهمها الفئران الجارية ذات البطون السمينة .

— « ثم تحاسب روح الخاطيء إذ يكون الأصدقاء ما يزالون يقفون داعمي العينين بجوار السرير . وفي آخر لحظة من لحظات الوعي ، تمر أحداث الحياة الأرضية كلها أمام رؤيا الروح . وقبل أن يكون لديها وقت للتأمل ، يموت الجسد وتقف الروح في رعب أمام الحساب . ويتحول الله الذي كان دائماً رحيماً إلى إله عادل . لقد صبر طويلاً ، يساند الروح الخاطئة مفسحاً لها الوقت للتوبة وتاركة إياها فترة من الزمن . ولكن هذا الزمن مضى ، الزمن ، هو أن تخطيء وأن تتمتع ، الزمن هو السخرية من الله ومن تحذيرات كنيسته المقدسة ، الزمن هو تحدي جلالته ومخالفة أوامره ، أن يخدع إخوانك ، وأن ترتكب خطيئة إثر خطيئة وأن تحفي فسادك عن أعين الآخرين . ولكن هذا الزمن انقضى . وجاء الآن دور الله ، ولن يخدعه أحد أو يمكر به ؛ فتخرج كل خطيئة حينئذ

من مكنها، تخرج أكثر هذه الخطايا تمرداً ضد إرادة الله وأكثرها تدنيساً لطبيعتنا الفاسدة الضعيفة ، كما تظهر أقل نقيصة وأعظم المنكرات . ماذا يجدي المرء عندئذ أن يكون إمبراطوراً أو قائداً عظيماً أو مخترعاً مدهشاً أو أعلم العالمين ؟ كلهم سواء أمام حساب الله ، فهو يكافئ الطيبين ويعاقب المسيئين . تكفي لحظة واحدة لمحاسبة روح الإنسان . لحظة واحدة مفردة بعد موت الجسد وتوضع الروح في الميزان . وينتهي الحساب الفردي وتمر الروح إلى مقر السعادة أو إلى سجن المطهر أو يُقذف بها صارخة إلى غياهب الجحيم .

ولا يقتصر الأمر على هذا ، فلا بد أن تثبت عدالة الله أمام بني الإنسان ؛ فبعد الحساب الفردي ، هناك الحساب العام . لقد جاء يوم الدينونة ، جاء يوم القيامة وسقطت نجوم السماء على الأرض كالتين الذي تلقي به الشجرة التي هزتها الرياح . وأصبحت الشمس ، نور الله العظيم ، مثل وبر الخيش . واصطبغ القمر بلون الدماء ، وطُويت السماء كاللحافة ، وظهر كبير الملائكة ميخائيل ، أمير أهل السماء ، مجيداً مرعباً ، في السماء ، وقد وضع قدماً على البحر وقدماً على اليابسة ، ونفخ في النفير معلناً انقضاء الزمن .

وملأت الكون نداءات كبير الملائكة الثلاثة . الزمن الآتي ، والزمن الماضي ، ولكن ليس هناك زمن مستقبل . وتهرع أرواح البشرية جميعاً عند النداء الأخير إلى وادي « يهوشافات » ، غنيها وفقيرها ، سيدها ومسودها ، حكيمها وساذجها ، طيبها وسيئها . وتجتمع في هذا اليوم الأعلى روح كل إنسان موجود ، وأرواح كل من سيولدون إلى هذا اليوم ، جميع أبناء وبنات آدم . وهاها... لقد أتى يوم الحساب الأعلى ! لم يعد حمل الله المحترق ، لم يعد يسوع الناصرة الوديع ، لم يعد رجل الأحزان ، لم يعد الراعي الطيب ؛ بل يأتي الآن فوق السحاب ، في قوته وصولجانه ، تحف به تسع جوقات مترنمة من الملائكة ، ملائكة ورؤساء ملائكة ، إمارات ، قوى وفضائل ، عروش وسيادات ، شيرويم وصيرافيم ، الله القادر على كل شيء ، الله الخالد .

ويتكلم ، ويسمعون صوته في أقصى بقاع الفضاء ، وفي الهاوية التي لا قرار لها . القاضي الأعلى ، حيث لا نقض لحكمه ولا استطاع له من نقض . ويدعو الطيبين إلى جانبه ، طالباً منهم الدخول إلى مملكة النعيم وخلودها التي أعدّها لهم . وبعيد المسيئين عنه ، ويصيح بهم في جلالته التي أساءوا إليها : « إرحلوا عني أيها الملعونون ، إلى النار الأبدية التي أعدت للشيطان وأتباعه » . آه ، يا له من عذاب للخطاة التعمساء حينئذ ! ويفترق الصديق عن صديقه ، والأبناء عن الآباء ، والأزواج عن زوجاتهم . ويبسط الخاطيء المسكين ذراعيه نحو من يعزّم قلبه في الحياة الدنيا ، نحو من سبقت له السخرية من تقوَاهم وورعهم ، نحو من حاولوا إرشاده إلى الطريق القويم ، إلى أخ رحيم ، إلى أخت حبيبة ، إلى الأم والأب اللذين أحبّاه كثيراً . ولكن سبق السيف العدل ، ويتحول العادل عن الأرواح التعمسة الملعونة التي تظهر الآن أمام أعين الجميع في طبيعتها الكريهة الشريرة . آه أيها المنافقون ، آه أيتها القبور البيضاء ، آه يا من تقدمون للدنيا وجهاً هادئاً باسمنا بينما داخلية نفوسكم مستنقع كربه للخطيئة ، ماذا سيكون خطبكم في هذا اليوم العصيب ؟

وسوف يأتي هذا اليوم ، سيأتي . لا بد أن يأتي ، يوم المات ويوم الحساب . كُتب على الإنسان أن يموت ثم يحاسب . الموت يقين . وميعاد الموت وطريقته ليست يقينية ؛ عن طريق المرض الطويل أو عن طريق حادثة مفاجئة ، يأتي ابن الله في الساعة التي لا نتوقعها منه . لا بد أن تكون مستعداً إذن في أية لحظة ، فأنت ترى أنك قد تموت في أي لحظة . الموت نهايتنا جميعاً . الموت والحساب ، اللذان جلبها إلى الدنيا خطيئة أبونا الأولين ، هما الباب الذي يُغلق وجودنا الأرضي ، الباب الذي يُفتح إلى المجهول والمستور ، باب لا يسد لكل روح أن تعبره ، وحيدة ، لا عون لها إلا أفعالها الطيبة ، دون صديق أو أخ أو أب أو معلم يساندها ، وحيدة ترتجف . فلنضع هذه الفكرة نصب أعيننا على الدوام فلا نستطيع أن نخطيء . والموت الذي يبعث الفرع في نفس الخاطيء

يكون لحظة نعيم لمن سار في الطريق السليم ، محافظاً على الواجبات التي يفرضها عليه مكانه في الحياة ، حافظاً لصلواته في الصباح وفي المساء ، يؤدي شعائر التناول المقدس بين آن وآخر ، ويقوم بالأعمال الطيبة الرحيمة . ولا يبعث الموت الفزع في نفس الكاثوليكي التقي المؤمن ، أو الشخص العادل . ألم يستدع الكاتب الإنجليزي العظيم « أريسون » وهو على فراش الموت الشاب الفاسد « إيرل أوف وورويك » ليريه كيف يقابل المسيحي نهايته ؟ المسيحي التقي المؤمن وحده ، هو وحده الذي يستطيع أن يقول من قلبه :

أيها اللحد ، أين انتصارك ؟

أيها الموت ، أين وخزتك ؟ »

كل كلمة كانت له . كان غضب الله موجهاً إلى خطيئته البشعة الخفية . لقد عملت سكين الواعظ في قرارة ضميره المكشوف ، وشعر الآن بروحه تتقرح من الخطيئة . أجل ، الواعظ على حق . لقد جاء دور الله . لقد ربضت روحه في قذارتها كالوحش في عرينه ، ولكن نداءات نفير الملاك دفعته خارج ظلمة الخطيئة إلى النور . وحطمت كلمات القضاء التي صاح بها الملاك هدوءه الكاذب في لحظة . وهبت رياح اليوم الأخير خلال عقله ، وفرت خطاياها - عاهرات خياله ذوات العيون الماسية أمام العاصفة ، تصيح كالجرذان الفزعة التي تحتمي بعرفة الفرس .

ووصلت إلى أذنيه المحترقتين ضحكة ناعمة لفتاة إذ هو يعبر الميدان في طريقه إلى البيت . وأثر الصوت البهيج الواهن في فؤاده أكثر من نداء النفير ، وتحول جانباً دون أن يقوى على رفع بصره ؛ وحدث في ظلال العشب المتشابك إذ هو سائر . وطفح العار على فؤاده المصطك وغمر كيانه كله . وظهرت أمامه صورة « إمّا » ، واندفع طوفان العار مرة أخرى من فؤاده تحت تأثير عينيها . آه لو علمت كيف استعبدتها عقله أو كيف مزقت شهوته البهيمية براءتها وداست عليها ! أهذا هو غرام الشباب ؟ أهذه هي الفروسية ؟ أهذا هو الشعر ؟ وعفنت

تفاصيل خلاعته القذرة تحت أنفه : مجموعة الصور التي غطاها الصماد والتي خبأها في ماسورة المدفأة وطالما رقد في أحضان عارها أو خلاعتها المدلّة يخطيء بالفكر والعمل ؛ وأحلامه الشاذة التي تزدهم بمخلوقات شبيهة بالقردة وبعاهرات لهن عيون تلتمع كالجواهر ؛ والخطابات الطويلة القذرة التي كتبها في نشوة الإعتراف المذنب وحملها أياماً وأياماً ليلقي بها بعد ذلك تحت ستار الليل في ركن حقل بين الحشائش ، أو تحت عتبة أحد الأبواب أو في تجويف سور ، حيث يمكن أن تعثر عليها إحدى الفتيات أثناء تريضها وتقرأها خفية . مجنون ! مجنون ! هل يمكن أن يكون قد فعل هذه الأشياء حقاً ؟ وانجس العرق البارد على جبهته حين تكثفت الذكريات القذرة في عقله .

وحين زال عنه ألم العار حاول أن ينتشل روحه عن عجزها الكريه ، كان الله والعذراء المباركة بعيدين جداً عنه . كان الله جد عظيم وصارم ، وكانت العذراء المباركة جد طاهرة وقدسية . وتخيل أنه يقف بجوار « إماما » في أرض فسيحة ، ثم ينحني في خشوع والدموع تبلبل عينيه ويقبل مرفق ردفها .

وقفاً معاً تحت سماء المساء المتألقة الحنون ، وسحابة تتجه إلى الغرب وسط بحر السماء الأخضر الشاحب ، في الأرض الفسيحة ؛ طفلان أذنباً . وقد أساء خطؤهما بشدة إلى عظمة الله رغم أنه خطأ طفلين . ولكنها لم تستأ ، تلك التي « لا يضارع جمالها أي جمال أرضي ، يبهر الناظرين ، ولكنها مثل نجم الصباح الذي هو شعارها ، مشرق ومنعم . لم تكن العينان التي حولتها نحوه تبدو فيهما الاساءة أو اللوم . وضمت أيديها وقالت مخاطبة فؤاديهما :

– تصافحا يا ستيفن و « إماما » . إنه مساء جميل الآن في السماء . لقد أذنبتما ، ولكنكما طفلاي على الدوام . إنه قلب يحب قلباً آخر . تصافحا يا طفلي العزيزين ، وستكونان سعيدين معاً وسيحب قلب الواحد منكما الآخر .

غمر الضوء القرمزي السقيم الذي تسرب من الأعراس المسدلة الكنيسة الصغيرة . ومن الشق الصغير الذي يفصل العرّش الأخير وفرواز النافذة ، إنبعث

نور واهن كالمرح ولمس نحاس الشمعدانات المزخرف فوق المذبح والذي كان يلتهم كمدة الملائكة في المعركة .

كان المطر ينهمر على الكنيسة ، وعلى الحديقة وعلى المدرسة . ستمطر إلى الأبد في هدوء. وترتفع المياه بوضة بوضة ، وتغطي الحشائش والأعشاب، وتغطي الأشجار والمنازل ، وتغطي الشواهد وقمم الجبال . وتستحيل كل مظاهر الحياة هشيماً : الطيور والإنسان ، والأفيال ، الخنازير والأطفال ، في هدوء ، وتصبح أجساماً تطفو في هدوء وسط نثار العالم وحطامه. وسيستمر هطول الأمطار أربعين يوماً وأربعين ليلة حتى تغطي المياه وجه الأرض .

هذا ممكن ، لم لا ؟

– « وسّعت الهاوية نفسها وفجرت فاهها بلا حد » ، يا أعزائي الصغار إخوتي في الدين ، هذه الكلمات مأخوذة من سفر « أشعيا » ، الإصحاح الخامس ، الآية الرابعة عشرة . باسم الأب والابن والروح القدس . آمين .

وتناول الواعظ ساعة بغير سلسلة من جيب رداءه الكهنوتي، وفحص قرصها في صمت ووضعها في صمت أمامه على المائدة . وبدأ يتحدث في نبرة هادئة .

– كان آدم وحواء، يا أولادي الأعزاء، أبونا الأولين كما تعرفون؛ وتذكرون أن الله خلقكم حتى تمتلئ المقاعد التي خلقت في السماء بسقوط لوسيفر وملائكته المتمردين . وكان لوسيفر على نحو ما يُقصد علينا « ابن الصباح » ، ملاك مضيء قوي . ومع ذلك فقد سقط ؛ سقط وسقط معه ثلث أهل السماء ، سقط وقذف به وبملائكته المتمردين في جهنم. وماذا كانت خطيئته ؟ هذا ما لا نستطيع الجزم به . ويقول علماء اللاهوت إنها خطيئة التكبر ، الفكرة الخاطئة التي ارتكبتها لحظة واحدة : « نون سرفيام » ، لن أخدم . لقد أساء إلى جلاله الله في لحظة ففكر دامت لحظة ، وطرده الله خارج السماء إلى جهنم إلى الأبد .

– خلق الله آدم وحواء إذن ووضعها في عدن ، في سهل دمشق ، هذه الحديقة الجميلة المتألقة بنور الشمس والألوان، وتزخر بالنباتات الفاخرة. ومنحتها

الأرض المثمرة خيراتها. وكانت الحيوانات والطيور خدامهما المطيعين، ولم يعرفا العلل التي تتعرض لها أبداننا ولا الأمراض ولا الفقر ولا الموت ؛ وكان لهما كل ما كان في وسع الله العظيم الكريم أن يقدمه لهما . ولكن الله فرض عليها شرطاً وحيداً : طاعة كلمته ، فلم يكن لهما أن يأكلا من ثمار الشجرة المحرمة .

ولكن هيهات يا أولادي الصغار الأعزاء، فقد سقطا هما أيضاً ؛ فقد جاءهما الشيطان الذي كان يوماً ملاكاً متألقاً وإبناً للصباح ثم تحول إلى شيطان مرید . جاءهما على شكل حية ، أمكر الحيوانات طراً . لقد حسدهما ، فلم يكن وهو العظيم الذي سقط ليحتمل أن يمتلك الإنسان الذي صنَّع من صلصال الإرث الذي أفقدته خطيئته إياه إلى الأبد . جاء إلى المرأة ، الأضعف شأنًا من الاثنين ، وصب من بلاغته في أذنيها سمًا ، واعدأ إياها - وآها لكفران هذا الوعد ! - انها إذا أكلت هي وآدم من الثمار المحرمة فسيصبحان كالألهة ، بل سيصبحان كالله نفسه . واستسلمت حواء لأحابيل كبير المخادعين ، فأكلت التفاحة وأعطتها كذلك لآدم الذي لم يكن له من الشجاعة الأخلاقية ما يمكنه من مقاومتها. وأدى لسان الشيطان السام مفعوله . وسقطا .

- ثم سمع صوت الله في تلك الحديقة منادياً الإنسان الذي خلقه ليناقشه الحساب . وظهر ميخائيل أمير أهل السماء وفي يده سيف من اللهب أمام المذنبين وطردهما من عدن إلى الدنيا ، دنيا المرض والتعب ، دنيا القسوة والخيبة ، دنيا العمل والمشقات . ليكسبا عيشهما بعرق جبينهما ، وكم كان الله رحيمًا بعد كل ذلك ! لقد أشفق على أبونا المسكينين المحترقين ووعد بأن يرسل لهما من السماء في الوقت الضروري واحداً يشفع لهما ويجعلهما إبني الله مرة أخرى وورثي ملكة السماء . وهذا الواحد ، شفيع الإنسان الذي سقط، سيكون الإبن الوحيد الذي ينجبه الله ، الشخص الثاني في الثالوث المقدس ، الكلمة الخالدة .

- وجاء . ولدته عذراء طاهرة ، ماري الأم العذراء . ولد في حظيرة أبقار رثة في « يهودا » وعاش ثلاثين سنة نجاراً متواضعاً حتى حانت ساعة

رسالته . وخرج ساعتها وقد أفعمه حب الإنسانية ودعا الناس لسماع البشارة الجديدة .

– وهل أنصتوا له ؟ أجل أنصتوا ولكن لم يستمعوا لندائه . وأمسكوه كالمجرمين ، وسخروا منه كالمحمقى ، وباعوه ليشتروا لصاً محكوماً عليه بالموت ، وجلدوه خمسة آلاف سوط ، وتوجوه بتاج من الأشواك ، وساقوه في الطرقات وسط غوغاء اليهود وجنود الرومان ، ونزعوا عنه ملابسه وعلقوه في المشنقة وضربوا جانبه بالحراش ، وتدفقت المياه والدماء من جسد ربنا المتخن بالجراح .

– وحتى في هذا الوقت ، في ساعة الألم العلوي هذه ، شعر شفيعنا الرحيم بالشفقة على بني الإنسان . حتى في هذا المكان ، على تل الجلجلة ، أسس الكنيسة الكاثوليكية المقدسة التي جاء الوعد بأن طاقات جهنم لن تقوى عليها . أسسها على صخور النصور ، ومنحها من روحه الكريمة ومن المقدسات والتضحيات ، ووعد بأنه إذا أطاع الناس كلمة الكنيسة سيفتح لهم باب الحياة الأبدية ، ولكن إذا سدروا في غيهم بعد كل ما فعل من أجلهم ، فلن يبقى لهم سوى أبدية العذاب : الجحيم .

وهن صوت الواعظ ، وصمت ، وشبك راحتيه لحظة ثم فرقهما واستأنف كلامه :

– والآن ، فلنحاول أن نتصور لحظة حسب قدرتنا طبيعة مقر الملعونين الذي أعدته عدالة الرب المستاء لعقاب الخاطئين . الجحيم سجن ضيق مظلم كربه الرائحة ، مقر المردة والأرواح الضائعة ، مليء بالنيران والدخان . وقد قصد الله ضيق هذا السجن خصيصاً لمعاقبة من رفض أن تحدّه قوانينه . وفي سجون الدنيا ، يكون للأسير المسكين بعض حرية الحركة على الأقل ، حتى لو كان ذلك بين جدران زنزانه الأربعة أو في فناء السجن . ولكن ليس كذلك الحال في

الجحيم . فهناك يتكوم المساجين بعضهم فوق بعض في سجنهم الرهيب بفعل عدد الملعونين الضخم . ويقال أن سُمك جدران هذا السجن تبلغ أربعة آلاف ميل ، وتبلغ درجة تقييم الملعونين وعجزهم شدة أن القديس المبارك « آنسلم » ذكر في كتابه عن المشابهات أنهم لا يستطيعون حتى أن يبعدوا عنهم دودة تقرض عيونهم .

وهم يرقدون في ظلام يحوطهم من كل جانب ، فتذكروا أن نيران الجحيم ليس لها نور . فكما فقدت نيران النير البابلي حرارتها ولم تفقد ضوءها بأمر من الله ، كذلك تتقد نيران الجحيم إلى الأبد في ظلام بينما تحتفظ بشدة سعيرها بأمر من الله ، فتكون عاصفة لا نهاية لها من الظلمة ، لهيب مظلم ، ودخان كبريت محترق مظلم ، وتتراكم في وسطه الأجساد واحداً فوق الآخر دون فرجة هواء . ومن بين الرزايا التي ابتليت بها قديماً أراضي الفراعنة لم يكن هناك أفضح من الظلمة ، فماذا نسمي إذن ظلمة الجحيم التي لا تدوم ثلاثة أيام فقط بل إلى الأبد .

وتزيد الرائحة الفظيعة هذا السجن الضيق المظلم بشاعة . فكما يحكى لنا ، سوف تنصرف كل قاذورات العالم ، كل نفايات الدنيا وقمامتها إلى هذا المكان كما تنصرف إلى البوعدة ضخمة قدرة وذلك حين يطهر العالم بحريق اليوم الأخير الهائل . كذلك يملأ الكبريت الذي يحترق هناك في كميات هائلة الجحيم برائحته التي لا تطاق ، بينما تزفر أجساد الملعونين رائحة وبائية تكفي زفرة منها - كما يقول القديس « بون أفنتير » - لكي تنتقل العدوى إلى العالم كله . وهواء دنيانا ذاته - هذا العنصر النقي - يصير إذا انحبس فترة لا تطيقه الصدور ، فتصوروا إذن كيف يكون كدر هواء الجحيم . وتصوروا جثة كدرة متعفنة قد بقيت مدة تتحلل في القبر حتى أصبحت مثل كتلة هلامية من العفونة السائلة ، تصوروا مثل هذه الجثة وقد أصبحت فريسة للنيران وقد شوهاها لهب الكبريت المحترق ويرسل تحللها المغشى الكريه دخاناً خانقاً كثيفاً . ثم تصوروا بعد ذلك هذه

الرائحة النتنة الكريهة وقد تضاعفت ملايين وملايين المرات من ملايين وملايين الجثث العفنة المكومة فوق بعضها البعض في الظلمة المبخرة ، فطر بشري ضخم متعفن . تصوروا كل هذا تكن لكم فكرة عن رائحة الجحيم .

– ولكن هذا النتن رغم بشاعته ليس أعظم ما يتعرض له الملعونون من عذاب جسماني « فعذاب النار هو أعظم العذابات التي استعبد بها أي طاغية إخوانه من البشر . ضع إصبعك لحظة في لهب شمعة ، فتشعر باللم النار . غير أن نيران أرضنا قد خلقها الله لنفع الإنسان ، لتحفظ عليه شعلة الحياة وتعينه في الصناعات النافعة ، بينما لنيران الجحيم صفة مختلفة وقد خلقها الله لتعذيب وعقاب الخاطيء الذي لا يتوب . وكذلك تلتهم نيران دنيانا مادتها على حسب قابلية هذه المادة للاشتعال ، حتى أن المهارة البشرية قد نجحت في ابتكار مستحضرات كيميائية لمنع أثرها أو تخفيفه . ولكن مادة الكبريت الذي يلتهب به الجحيم صممت خصيصاً لتظل مشتعلة إلى الأبد في شدة لا تماثلها شدة . وفوق ذلك ، فإن نيران أرضنا تدمر الشيء الذي تحرقه حتى أنه كلما كانت شدتها أكبر كلما كانت مدة استعما لها أقصر ، ولكن لنيران الجحيم صفة تجعلها تبقى على ما تحرق ، وبالرغم من أنها تشتعل بقوة لا تصدق ، فهي تشتعل إلى الأبد .

– وكذلك فإن مدى نيراننا الأرضية محدود دائماً ، مهما كانت درجة قوتها أو انتشارها . ولكن بحيرة نيران الجحيم لا حدود لها ، لا شواطئ لها ، ولا يُعرف لها قرار . وقد جاء في الألواح أن الشيطان ذاته حين سأله أحد الجنود إضطر إلى أن يعترف أنه إذا ألقى جبل بأكمله في هوة الجحيم المشتعل فسوف يحترق في لحظة مثل قطعة الشمع . ولن تحرق هذه النيران الفظيعة أجساد الملعونين من ظاهرها فقط ، بل ستكون كل روح ضالة جحيماً لنفسها ، وتتلظى شريانات حياتها بالنيران المتقدة فيها . آه ، ما أفظع نصيب هذه المخلوقات البائسة . الدماء تنقل وتغلي في العروق ، والمخ يغلي في الجمجمة ، وتتوهج القلوب في الصدور وتنفجر ، وتستحيل الامعاء كتلة ملتبهة كاللباب المحترق ، وتتوهج العيون

الرفيقة كالكرات المنصهرة .

— ورغم ما قلته عن قوة هذه النار وصفاتها وإتساعها ، فهي لا تعتبر شيئاً حين تقاس إلى درجة عنفها ، درجة من العنف تتناسب مع طبيعتها كأداة إختارتها الحكمة الإلهية للعقاب البدني والروحي على السواء . إنها نار تستمد عنفها من غضب الله مباشرة ، ولا تعمل من تلقاء نفسها بل كأداة للانتقام الإلهي . وكما يظهر ماء العباد الروح بينما هو يظهر الجسد ، كذلك تعذب نيران العقاب الروح إذ هي تعذب الجسد . وهي تعذب كل عضو من أعضاء الجسد في الجسد وكل ملكات الروح ، فالعيون يغمرها ظلام دامس لا يُنفذ إليه ، وتزكم الروائح الكريهة الأنوف ، وتصطخب الآذان بالصيحات والصراخ واللعنات ، والذوق بالمذاق الكريه والوسخ النجس والقاذورات الخائقة التي لا مسميات لها ، والمس بالمناخس والمسامير الملتهبة وألسنة اللهب القاسية . ومن خلال العذاب الذي تتعرض له وسائل الإحساس تعذب الروح الخالدة إلى الأبد في ذات جوهرها وسط الفراسخ والفراسخ من النيران المشتعلة التي تلهبها في هوة الجحيم جلالة الإله القادر المستاء وتهدهدها زفرات غضب الله العظيم إلى مزيد من الديمومة والشدة .

وأخيراً تصوروا زيادة عذاب هذا السجن الجهنمي عن طريق الملعونين أنفسهم . ففي دنيانا هذه ، تكون الصحبة الشريرة ضارة ، حتى أن النبات بسليقته يبتعد عن صحبة كل ما هو ميت منه أو ضار للبقية ؛ وفي الجحيم تنعكس كل القوانين ، ولا تكون هناك فكرة عن الأسرة أو الوطن أو عن الصلات أو العلاقات ، ويُعول الملعونون ويصرخون في وجه بعضهم البعض . ويزيد من عذابهم وحنقهم وجودهم إلى جوار أناس يتعذبون ويحنقون مثلهم تماماً . ولا وجود هناك لأي إحساس إنساني . وتملأ صرخات المعذبين الخطاة الهوة السحيقة حتى أقصى أركانها ، وتفعم أفواه الملعونين بالكفر ضد الله وبالكرهية تجاه زملائهم المعذبين وباللعنات ضد الأرواح التي شاركتهم خطيئتهم . وكانت العادة في

الأزمئة القديمة عقاب قاتل أبيه ، وهو الرجل الذي يرفع يده
القاتلة في وجه أبيه ، بإنزاله إلى أعماق البحر في جوال ومعه ديك وقرد
وحية ، وكانت وجهة نظر المشرعين الذين صاغوا هذا القانون الذي يبدو قانوناً
قاسياً في أيامنا هذه ، هي عقاب المجرم بصحبته للحيوانات المؤذية الكريمة .
ولكن ما قيمة أثر هاته الحيوانات الخرساء بالقياس إلى أثر اللعنات التي تنهال من
شفاه الملعونين المحترقة وحلوقهم المقعية في الجحيم حين يتعرفون في إخوان
شقايم هؤلاء الذين ساعدوهم وعاونوهم على الخطيئة ، هؤلاء الذين بذرت كلماتهم
البذور الأولى للأفكار الشريرة والحياة الشريرة في أذهانهم ، هؤلاء الذين
قادتهم إقتراحاتهم الطامعة إلى مدارج الخطيئة ، هؤلاء الذين أغرتهم عيونهم
وإجذبتهم عن مسارح الفضيلة ، ويتحولون نحو هؤلاء الشركاء ،
زاجرين ولاعين إياهم . ولكنهم يأنسون عاجزون ، فقد فات أوان
التوبة .

- وتصوروا أخيراً العذاب الرهيب الذي ستلاقيه الأرواح الملعونة ، من
أغرى غيره ومن إستسلم للإغراء على السواء ، على يسدي صحاب الشيطان .
وسيعذب هؤلاء الشياطين الملعونين بطريقتين : بالصحبة وباللوم . وتقصّر أفكارنا
عن أدراك فظاعة هؤلاء الشياطين . ولقد رأيت القديسة كاترين من سينا شيطاناً
ذات مرة ، وكتبت بعد ذلك تقول إنها تفضل أن تسير طوال حياتها على طرق
من الفحم المشتعل عن أن تنظر مرة أخرى لمدة لحظة واحدة إلى مثل هذا الوحش
المرعب . لقد أصبح هؤلاء الشياطين الذين كانوا في يوم من الأيام ملائكة جميلي
الطلعة ، على قبح وبشاعة تعادلان درجة جمالهم القديم ، وهم يسخرون وهزأون
من الأرواح الضالة التي جرروها إلى مدارج الهلاك . وهذه الشياطين الكريمة هي
أصوات الضمير في الجحيم . لماذا أخطأت؟ لماذا إستمعت إلى إغراءات أصدقائك؟
لماذا تحولت عن سبلك الورعة وأعمالك الطيبة؟ لماذا لم تتجنب دواعي الخطيئة؟
لماذا لم تترك هذه الصحبة الشريرة؟ لماذا لم تهجر هذه العادة الداعرة ، هذه
العادة القذرة؟ لماذا لم تستمع إلى نصائح من تعترف له؟ وحتى بعد أن سقطت

العمرة الأولى أو الثانية أو الثالثة أو الرابعة للمرة المائة، لماذا لم تتب عن وسائلك الشريرة وتتحول إلى الله الذي ينتظر توبتك ليغفر لك خطاياك؟ والآن لقد فات أوان التوبة . هناك الزمن الآتي والزمن الماضي ولكن ليس هناك زمن مستقبل! الزمن معناه الخطيئة خفية ، الانغماس في الحمأة ، الزهو ، إشتهاء المحرمات ، الإستسلام لدوافع الطبيعة الدنيا في الإنسان ، الحياة مثل الحيوانات ، بل أسوأ منها لأنها مجرد بهائم وليس لها من الحجي ما تعقل به ؛ هناك زمن ماضٍ، ولكن لن يكون هناك زمن مستقبل أبداً . لقد تحدث الله إليك عن طريق كثير من الأصوات ولكنك لم تستمع، لم تكن لتسحق هذا الزهو وهذا الغضب من قلبك، لم تكن لتعيد ما أخذته عن غير حق ، لم تكن لتطيع أوامر كنيسة المقدسة ولا تحافظ على واجباتك الدينية ، لم تكن تهجر رفاقك الخبيثين ، ولم تكن لتترك تلك المغريات الخطرة. هكذا تكون لغة هؤلاء المعدّبين الشياطين، كلمات زجر وتعنيف ، كلمات كراهية وإشمئزاز . أجل ، إشمئزاز ، لأن الشياطين أنفسهم حين أخطأوا فقد أخطأوا خطيئة تتناسب مع طبيعتهم الملائكية، تمرد الفكر؛ وحتى هم، هؤلاء الشياطين الكريهين يتحولون إزدراءً وثورة عن التأمل في هاته الخطايا التي تجل عن الوصف والتي ينتهك الإنسان الحقيير معبد الروح القدس بارتكابها ، منتهكاً ومدنساً نفسه .

— آه يا صغاري الأعزاء ، إخوتي في الدين ، فليكن من نصيب كل منا ألا نستمتع إلى هذا الزجر . أقول فليكن من نصيبنا . إني أصلي بجرارة إلى الله حتى لا يكون أي روح فرد من الموجودين في هذه الكنيسة اليوم ضمن الخلوقات البائسة التي سيدعوها القاضي الأعظم إلى الرحيل من أمام عينيه إلى الأبد ، وحتى لا يسمع أي واحد منا عبارة النبذ الرهيبة تجلجل في أذنيه : « إرحلوا عني أيها الملعونون ، إلى النار الأبدية التي أعدت للشيطان وأتباعه ! »

وسار ستيفن من مكانه في الكنيسة وساقاه ترتجفان وفروة رأسه ترتعد كما لو مستها أصابع الجان . وإرتقى الدرج وسار في الممر بين الجدران التي علقت

عليها المعاطف وواقيات المطر كالمحرم المشنوق دون رأس ، تقطر ، ودون شكل . وكان يخشى عند كل خطوة أن يكون قدمات وأن تكون روحه قد إنتزعت من غمد الجسد ، وأنه يشب رأساً في الفضاء .

لم يكن باستطاعته أن يثبت ساقيه على الأرض . وجلس في تناقل إلى درجه . وفتح أحد كتبه بطريقة عشوائية وعكف عليه . كانت كل كلمة موجهة إليه ، وهذا حق . الله عظيم ، له أن يدعو إليه الآن ، يدعو إذ هو يجلس إلى قمطره قبل أن يتاح له وقت يتنبه فيه إلى الدعوة . لقد دعاه الله . أجل ؟ ماذا ؟ أجل ؟ واقشعر بدنه حين شعر باقتراب السنة اللهب النهمة . وجمد حين شعر دورة الهواء الخائق من حوله . لقد مات . أجل . لقد حوسب . وإجتاحت بدنه موجة من النيران ، واحدة . ثم موجة أخرى . وبدأ نحوه يتوهج . وأخرى . وأخذ نحوه يئز ويحيش داخل الجحمة المشققة . وإنبجس اللهب من جمجمته مثل نبات « النورة » ، يصرخ في شيء يشابه أصوات : الجحيم ! الجحيم ! الجحيم ! الجحيم !

وتحدثت أصوات بقربه : - إلى الجحيم .

- أعتقد أنه قد دقّه فيك إلى الرأس .

- ويا له من دقّ ! لقد سبب لنا جميعاً خوفاً عظيماً .

- هذا ما تريدونه ، حتى تعملوا .

وانحنى إلى الخلف في قمطره في ضعف . لم يمت . لقد أمهله الله رغم ذلك . كان لم يزل في عالم المدرسة المألوف . وكان مستر « تيت » و« فنسنت هارون » يقفان أمام النافذة يتحدثان ويمزحان ويتطلمان إلى المطر الكثيب في الخارج ، وهما يهزان رأسيهما :

- أتمنى أن يصفو الجو ، فقد عزمتم على القيام برحلة على الدرجات مع بعض الرفاق إلى « مالاهايد » ، ولكن ستكون الطرق مليئة بالأمطار .

— قد يصفو الجو يا سيدي .

وهدهدت الأصوات التي يعرفها جيداً من روحه، الكلمات المألوفة ، وهدوء الفصل : حين تصمت الأصوات ويملاً السكون صوت الماشية الرقيق وهي ترعى الكلاً حين يأكل الأولاد الآخرون طعامهم في هدوء .

ما زالت أمامه فرصة . آه يا ماري ، يا ملاذ الخاطئين ، تشفعي له ! آه أيتها العذراء الطاهرة ، انقذيه من وهدة الموت !

وبدأ درس الانجليزية بامتحان في التاريخ . ومرت الشخوص الملكية ، والمحطيات والمتآمرون والأساقفة مثل الأشباح الخرساء خلف نقاب أسمائها . ماتوا جميعاً ، وحوسبوا جميعاً . ما نفع الإنسان لو كسب الدنيا جميعاً وخسر روحه ؟ لقد فهم أخيراً ، وانبسبت حوله الحياة الإنسانية ، وادى السلام حيث يعمل الناس مثل النمل في أخوة ، بينما ينام موتاهم على التلال الهادئة . ومسه مرفق ذراع زميله وتأثر فؤاده . وحين تكلم ليرد على سؤال المدرس ، سمع روحه مغفمة بهدوء الندامة والانسحاق .

وغاصت روحه إلى أعماق الهدوء ، لا تحتمل بعد ذلك معاناة آلام الخوف ، وترسل صلاة واهنة إذ هي تغوص . أجل ، ما زالت أمامه مهلة ، بإمكانه أن يتوب في أعماق قلبه ويغفر الله له ، ثم يرى الأعلون في السماء ماذا سيفعل للتعويض عن ماضيه ، حياة كاملة ، كل ساعة من ساعات هذه الحياة . ما عليكم سوى الانتظار .

— كلها يا إلهي . كلها ، كلها !

وأتى رسول إلى الباب ليعلن أن الاعتراف جاهز الآن في الكنيسة . وغادر أربعة أولاد الغرفة ، كما سمع آخرين يهبطون إلى الردهة . وأحاطت قلبه برودة راعدة ، ليست في قوتها أكثر من ريح خفيفة ، غير أنه بدا كما لو أنه وضع أذنه على عضلة قلبه إذ هو ينصت ويتألم في سكون ، فيشعر بهذه البرودة قريبة واهنة ، وينصت إلى انصفاق بطنياته .

لا مفر . لا بد أن يعترف ، أن ينطق بما فعله وبما فكر فيه في كلمات ،
خطيئة إثر خطيئة . كيف ؟ كيف ؟
- أيها الأب ، إني ...

واخترقت الفكرة جسده الرقيق كالنصل البارد اللامع : الاعتراف . ولكن
لن يكون ذلك أبداً في كنيسة المدرسة الصغيرة . سوف يعترف بكل شيء ،
كل خطيئة اقترفها أو جالت في خاطره ، بإخلاص ، ولكن لن يكون ذلك
بين رفاق مدرسته ، سوف همس بعاره بعيداً عنهم في أحد الأماكن المظلمة .
وتضرع إلى الله في خشوع ألا يغضب منه لأنه لم يجرؤ على الاعتراف في كنيسة
المدرسة . وفي هوان روحي تام طلب في صمت مغفرة القلوب الصبيّة التي
تحوطه .
ومر الوقت .

وجلس ثانية في الصف الأول من الكنيسة الصغيرة . وكان نور النهار قد
بدأ يذبل في الخارج . وإذ كان الضوء يتسرب من خلال الأعراس الحمراء السقيمة ،
بدا كما لو كانت شمس اليوم الأخير تغرب وقد تجمعت الأرواح كلها ليوم
الحساب .

- « إنني قد نُبذت بعيداً عن عينيك » كلمات مأخوذة يا صغاري الأعزاء
إخوتي في الدين ، من كتاب المزامير ، الإصحاح الثلاثون ، الآية الثالثة والعشرون ،
باسم الأب والابن والروح القدس . آمين . »

وبدأ الواعظ يتحدث في لهجة هادئة ودود . كان وجهه عطوفاً وقد عقد
أصابع كل يد من يديه في لطف ، وقد شكلت وحدة أطرافها هيئة القفص
الواهن .

- « حاولنا هذا الصباح في تأملاتنا عن الجحيم أن نقيم ما يدعوه راعينا
المقدس في كتابه عن التمرينات الروحية : تركيب المكان . أي أننا قد حاولنا
أن نتصور في مخيلاتنا بوسائل الحس العقلية الصفة المادية لهذا المكان الخيف

والعذابات الجسدية التي يتحملها ساكنو الجحيم جميعاً . أما هذا المساء فسوف نتأمل قليلاً طبيعة العذابات الروحية للجحيم .

– تذكروا أن الخطيئة منكر ذو حدين ، فهو خضوع حقير لنوازع طبيعتنا الفاسدة نحو الفرائز الدنيا ، لكل ما هو فظاً حيواني ، وهي أيضاً تحول عما تشير به علينا طبيعتنا العليا ، تحول عن كل ما هو طاهر مقدس ، تحول عن الله المقدس ذاته . ولهذا السبب تعاقب الخطيئة العظمى في الجحيم بطريقتين مختلفتين ، طريقة جسدية وطريقة روحية .

وأعظم كل هذه الآلام الروحية آلام الخسران . شديدة القوة حتى أنها في الحقيقة في حد ذاتها أعظم من العذابات الأخرى مجتمعة . يقول القديس توماس ، نطاسي الكنيسة العظيم ، النطاسي الملائكي كما يُدعى ، أن أشد اللعنات سوءاً توجد هنا ، في تجريد حجي الإنسان كليةً من النور الإلهي ، وفي تحول عواطفه في عناد عن كمال الله . وتذكروا أن الله كيان كامل كلاً مطلقاً ، وعليه تكون خسارة هذا الكيان خسارة مؤلمة ألماً مطلقاً . وليس لنا في هذه الحياة من فكرة واضحة عما ستكون عليه مثل هذه الخسارة ، ولكن سيدرك الملعونون في الجحيم إدراكاً كاملاً ما خسروه بسبب خطاياهم وأن خسارتهم إياه خسران بائن لا رجوع فيه ، مما يزيد من عذابهم .

ففي ذات لحظة الموت ، تنكسر أغلال الجسد فتاتاً وتطير الروح على الفور إلى الله كما لو تطير إلى مركز وجودها . تذكروا يا أولادي الأعزاء الصغار أن أرواحنا تتوق إلى جوار الله . لقد أتينا من الله ، ونحيا بالله ، ونخص الله ، إننا ملكه ، ملكه ملكية مطلقة . الله يحب كل روح حباً إلهياً ، وكل روح إنسانية تحيا في هذا الحب . وكيف يكون الأمر غير هذا ؟ كل نسمة نستنشقها ، كل فكرة تعبر أذهاننا ، وكل لحظة من لحظات الحياة تصدر عن كمال الله الذي لا ينفد . ولئن كان يؤلم الأم أن تفترق عن وليدها ، والرجل أن يبتعد عن مدفأته وعن بيته ، والصديق أن يفترق عن صديقه ، إذن تصوروا آلام الروح المسكين

وأشجانته وهو يتألم من حضرة الخالق الكامل كالأسماء ، المحب الذي دعا تلك الروح من الوجود إلى العدم وأعانها على الحياة وأحبها حباً لا يمكن إدراكه .
وحين تفترق تلك الروح إلى الأبد عن كالأسماء العظيم ، عن الله ، وتشعر بآلام هذا الفراق ، وتدرك تماماً أن الحال لن يتبدل ، يكون هذا أعظم عذاب يمكن أن تتحمله الروح المخلوقة ، « بائنا دامني » ، ألم الحسran .

أما الألم الثاني الذي سوف يعذب أرواح الملعونين في الجحيم فهو ألم الضمير .
فكما تتكاثر الديدان في الأجسام الميتة عن طريق التعفن ، كذلك سوف تتعذب أرواح الخاسرين عذاباً مستمراً من عفن الخطيئة ، ووخز الضمير ، دودة الوخز المثلثة كما دعاها البابا إينوسنت الثالث . ستكون أول وخزة تحزها هذه الدودة القاسية هي ذكرى المسرات السابقة . آه ! يا لها من ذكرى مروعة ! في وسط اللهب الذي يدمر كل شيء ، سيتذكر الملك الجبار بلاطه ، ويتذكر العالم الخبيث مكتباته ووسائل بحثه وإطلاعه ، ويتذكر المغرم بالمسرات الفنية تماثيله الرخامية وصوره وغيرها من الذخائر الفنية « ويتذكر من كان يبتهج بمسرات الطعام موائده الحافلة والأطباق ذات الذوق الجميل والأنبذة المختارة ؛ وسيتذكر البخيل أكداً ذهبه ، والسارق ثروته غير المشروعة ، والقتلة الغضبي المنتقمون القساء الأعمال العنيفة الدموية التي عاثوا فيها فساداً ، ويتذكر الملووثون الزناة ما أهبهم من مسرات قدرة لا توصف . سوف يتذكر الجميع كل هذا ، وسوف يزدرون أنفسهم ويزدرون خطاياهم ، فكهم ستبدو هذه المسرات سافلة في عين الأرواح التي حكم عليها بالعناء في نيران الجحيم دهوراً ودهوراً . كم سيحتاجون وينفثون أحزانهم حين يدركون أنهم خسروا سعادة السماء من أجل نفاية الأرض ، من أجل قطع معدنية قليلة ، من أجل تكريم زائف ، من أجل راحة جسمانية ، من أجل إثارة للأعصاب . سوف يندمون حقاً وتكون هذه هي الوخزة الثانية لدودة الضمير ، أسف متأخر لا يجدي عن الخطايا التي ارتكبت . وتصر العدالة الإلهية على أن يتركز فكر هؤلاء التعمساء الأشقياء دوماً على الخطايا التي اقترفوها ،

وفوق ذلك ، كما يبين القديس « اوغسطين » ، سوف يبعث الله فيهم إدراكه الخاص للخطيئة ، حتى تظهر لهم خطاياهم بجماع شرها البشع ، كما تظهر في عين الله نفسه . سوف يشاهدون خطاياهم في أتم بشاعتها ويندمون ، ولكن لات ساعة ندم ، فيعملون أسفاً على الساعات الطيبة التي أهملوها فيما مضى . وهذه هي آخر وخزة من وخزات دودة الضمير وأكثرها عمقاً وقسوة . يقول الضمير : كانت أمامك الفرصة والوقت للتوبة ، ولكنك لم تتب . لقد أنشأك والداك نشأة دينية ، وكانت مقدسات الكنيسة وأعمالها وجلالها في عونك ، وكان لديك أتباع الله يعظونك ويقودونك للهدى إذا ضللت ، ويففرون لك خطاياك مهما كانت كثرتها ومهما كان نكرها ، لو أنت اعترفت وتبت . كلا ، لم تفعل ذلك ، بل سخرت من أتباع الدين المقدس ، وأدرت ظهرك للاعتراف ، وتمرغت أكثر فأكثر في حماة الخطيئة . وقد استدعاك الله ، وهددك ، وابتهل إليك أن تعود إليه . آه ، يا للعار ويا للشقاء ! لقد ابتهل إليك حاكم الكون وأنت مخلوق من طين ، لكي تحبه وهو صانمك ، ولكي تحافظ على قوانينه . كلا ، لم تفعل . والآن لو أنك أغرقت الجحيم كله بدموعك إن كان ما يزال باستطاعتك البكاء لن يُكسبك هذا البحر من الندم ما قد كان بإمكان دمعة ندم صادق واحدة تراق في أيام الحياة الدنيا أن تكسبك إياه . وتتضرع الآن من أجل لحظة من الحياة الدنيا تتوب فيها ولكن هيهات . لقد فات هذا الوقت ، فات إلى الأبد .

— هكذا تكون وخزة الضمير ذات الأبعاد الثلاثة ، الثعبان الذي يفري قرار فؤاد التعساء في الجحيم حتى يلاًهم بالهياج الجحيمي فيلعنون أنفسهم لمحاقهم ويلعنون صحابهم الأشرار الذين جلبوا عليهم هذا الخراب ويلعنون الشياطين الذين أغروهم في الحياة ثم سخروا منهم في الأبدية ، بل انهم يلعنون ويسبون الكيان الأعلى الذي ازدرؤوا كاله واصطباره واستهانوا بهما ، ولكنهم لا يستطيعون تجنب عدالته وقوته .

— والألم المثالي الذي يتعرض له الملعونون هو ألم الامتداد . فالإنسان في هذه الحياة الدنيا رغم ما يستطيع ارتكابه من شرور ، لا يستطيع ارتكابها كلها في

لحظة واحدة ، فكل شر يصحح شر آخر ويبطل مفعوله كما يفعل السم في سم آخر . ولكن يحدث عكس ذلك في الجحيم ، فبدلاً من أن يبطل نوع من العذاب عذاباً آخر ، يضيف عليه قوة أشد . وكما أن الملكات الداخلية أشد كلاً من الحواس الخارجية ، كذلك فلها قابلية أكثر للمعاناة ، وكما تتعرض كل وسيلة من وسائل الحس بما يناسبها من العذاب ، كذلك يكون حال كل ملكة من ملكات الروح ، فيُعذب الخيال بالصور الفظيعة ، والإحساس بتراوح من اللهفة والهباج ، والعقل والحجى بظلمة داخلية أشد رعباً من الظلمة الخارجية التي تسود هذا السجن الخيف . ورغم لافاعلية الحقد الذي يسيطر على هذه الأرواح الشيطانية ، فهو يمكن في شر الامتداد الذي لا حدود له ، الديمومة غير المحدودة ، حالة مخيفة من الخور لا نكاد نتحقق منها إلا إذا أدر كنا نكرر الخطيئة ومدى كراهية الله لها .

- ثم هناك ألم الحدة في مقابل ألم الامتداد رغم أنه مواكب له . والجحيم هو مركز الشرور . وكما تعرفون ، تشتد حدة الأشياء في مراكزها عنها في أطرافها البعيدة . وليس هناك من أضداد أو أمزاج من أي نوع لتلطف من آلام الجحيم أو تخففها على أي وجه من الوجوه . كلا ، بل ان الأشياء الطيبة في حد ذاتها تنقلب شرّاً في الجحيم . فالصحبة التي هي مصدر راحة للمعذبين في كل مكان تنقلب هناك إلى مصدر دائم للعذاب ؛ والمعرفة التي يشتاق إليها الجميع كخير العقل الرئيسي تصبح مكروهة هناك كراهية الجهل ؛ والضوء الذي تشتهيه جميع المخلوقات ابتداء من سيد الخلق إلى أصغر نبات في الغابة سوف يُزدرى جسد الازدراء . وتكون آلامنا في هذه الحياة الدنيا إما غير بالغة الطول أو غير بالغة العنف لأنه إما أن تغلبها الطبيعة بالتعود عليها أو تنهتها بالاستسلام لثقلها . ولكن عذابات الجحيم لا يمكن أن يغلبها التعود ، لأنه في الوقت الذي تكون فيه بالغة الحدة تكون في ذات الوقت ذات أشكال متغيرة باستمرار ، فيستمد كل ألم ناراً من الألم الآخر ويضيف الثاني على الأول نيراناً أشد قسوة واضطراباً .

ولا يمكن كذلك أن تفر الطبيعة من هذه العذابات الحادة المختلفة بالاستسلام لها لأن الروح تزداد وتتساند في شروها حتى يزداد عظم آلامها. امتداد لا حد له من العذاب ، حدة لا تصدق من الآلام ، أنواع لا نهاية من وسائل التعذيب ، هذا ما تلميه الجلالة الإلهية التي أغضبها الخطاة ، هذا ما تتطلبه قداسة السماء التي ازدرها العصاة حباً في مسرات الجسد الفاسد الشهوانية الحقيرة ، هذا ما تصر عليه دماء حمّل الله البريء الذي أريق شفاعته للخطاة وداس عليه أسفل السافلين .

- وآخر العذابات وأعظمها في هذا المكان الخيف هو أبدية الجحيم . أبدية؟ آه ، يا لها من كلمة شديدة مرعبة . أبدية ! أي عقل إنساني يمكن أن يفهمها ؟ وتذكروا أنها أبدية للألم كذلك . وحتى لو لم تكن آلام الجحيم على ما هي عليه من الفظاعة لأصبحت غير محدودة نظراً لأنه مقدر لها الاستمرار إلى الأبد . ولكن في نفس الوقت الذي تكون فيه أبدية فهي - كما تعرفون - حادة حدة لا تحتمل وعنيفة عنفاً لا يطاق . وحتى لو قاسى المرء من وخزة حشرة من الحشرات طوال الأبدية لكفى بهذا من عذاب أليم ، فماذا يكون الحال إذن في معاناة عذابات الجحيم المتعددة إلى الأبد ؟ إلى الأبد ! إلى أبد الأبدن ! ليس سنة أو دهر أبلى إلى الأبد . حاولوا أن تتصوروا بشاعة هذا المعنى . لقد رأيتم مراراً الرمال على الشاطئ ، كم لطيفة ذراتها الدقيقة ! وكم عدد من هذه الذرات الصغيرة يملأ كف الصبي الصغير في لهوه . تصوروا بعد ذلك جبلاً من هذه الرمال ارتفاعه مليون ميل ، يرتفع من الأرض إلى السماء السابعة ؛ وعرضه مليون ميل ، يمتد إلى أقصى الفضاء ، وسمكه مليون ميل . وتصوروا أن مثل هذا العسد الهائل الذي لا يحصى من ذرات الرمال قد تضاعف بعدد ما هناك من أوراق على الشجر ، وبعدد قطرات مياه المحيط الهائل ، وبعدد ريش الطيور ، وقشور الأسماك ، وشعر الحيوانات ، وذرات الهواء العريض المترامي ؛ وتصوروا أن طائراً صغيراً يأتي عند نهاية كل مليون سنة إلى هذا الجبل ويحمل في منقاره ذرة دقيقة من رماله . كم تمر من ملايين فوق الملايين من القرون قبل أن يحمل مثل هذا

الطائر مجرد قدم مربع من هذا الجبل ، وكم ير أيونات فوق أيونات الدهور قبل
 ان يحمله كله ؟ ومع هذا ، ففي نهاية هذه الحقبة الزمنية الهائلة لا يمكن القول
 بأنه قد مرت ولا لحظة واحدة من الأبدية ، ولا تكاد تكون الأبدية قد بدأت
 بعد مرور هذه البليونات والترليونات من السنين . فإذا ارتفع هذا الجبل مرة
 أخرى بعد أن يتم نقله ، وإذا عاد الطائر ثانية وبدأ في نقله مرة أخرى ذرة
 وراء ذرة ، وإذا استمرت هذه العملية بعدد النجوم في السماء والذرات في الهواء
 وقطرات المياه في البحار ، والأوراق على الشجر والريش على الطيور ، والقشور
 على الأسماك ، والشعر على الحيوانات ، فبعد كل هذا النقل والارتفاع مرات لا
 تحصى ولا تعد لهذا الجبل العريض الهائل ، لا يمكن القول بأن لحظة واحدة من
 الأبدية قد مرت ، بل إنه عند نهاية هذه الحقبة ، بعد هذه الحقبة الأيونية التي
 يحار فيها الفكر ، لا تكاد الأبدية تكون قد بدأت بعد .

— وقد تمثل قديس مبارك مرة صورة للجحيم (وكان واحداً من آباء الجزويت
 كما أعتقد) فقد بدا له كأنه يقف في وسط ردهة عظيمة مظلمة ساكنة إلا من
 دقات ساعة ضخمة . واستمرت الدقات بغير توقف ؛ وبدا لهذا القديس أن
 صوت الدقات كان تكراراً مستمراً للكلمات : أبداً ، مطلقاً ؛ أبداً مطلقاً .
 أبداً في الجحيم ، مطلقاً في الجنة ؛ مبعده عن طلعة الله أبداً ، ولا يتمتع بالرؤية
 المباركة مطلقاً ؛ تساط بالنيران ويقرض فيك الدود وتنخس بالحراب المشتعلة
 أبداً ، ولا تتحرر من هذه الآلام مطلقاً ؛ يكون ضميرك مثقلاً والذكرى
 مؤلمة والعقل مفعماً بالظلمة واليأس أبداً ، ولا تستطيع من كل هذا فراراً
 مطلقاً ؛ تسب وتلعن أبداً الشياطين الكريهة التي تشهد شقاء من وقعوا في حبالها
 في شهوة شيطانية ، ولا تشهد أردية الأرواح المباركة البراقة مطلقاً ؛ تصيح أبداً
 من هوة النيران متضرعاً من أجل لحظة واحدة من الراحة من هذا الألم الخفيف ،
 ولا تتلقى مطلقاً ولو لحظة واحدة عفواً من الله ، تتألم أبداً ، ولا تتمتع بشيء
 مطلقاً ، ملعون أبداً ، ولا سبيل إلى الإنقاذ مطلقاً ، أبداً ، مطلقاً ، أبداً ،
 مطلقاً . آه ، يا له من عذاب مخيف ! أبدية من الآلام اللانهائية ، من العذاب

الجسدي والروحي اللانهائي ، دون شعاع واحد من الأمل ، دون لحظة راحة واحدة من الألم الذي لا نهاية لحدّته ، من عذاب لا حدود لتنوعاته ، من تعذيب يُبقي أبداً ما يدمره ، من أسى ينقضّ دوماً على الزوج بينما هو ينهش الجسد ، أبديةٌ كل لحظة فيها في حد ذاتها أبدية من العذاب. هذا هو العقاب الخيف الذي أعدّه الله العادل القدير لكل من مات وهو خاطيء .

– أجل ، الله العادل ! فالإنسان الذي يقتصر تفكيره على الحدود الإنسانية يعجب من أن يخصص الله عقاباً أبدياً ومطلقاً في نيران الجحيم لكل من ارتكب خطيئة كبيرة واحدة . وهو يفكر بهذه الطريقة لأن أوهام الحسد الحقاء وظلمة الفهم الإنساني قد أعمته ، فهو لا يستطيع إدراك شر الخطيئة الكبرى البشع . وهو يفكر بهذه الطريقة لأنه عاجز أن يدرك أن الخطيئة البسيطة لها طبيعته منكرة بشعة حتى أنه إذا كان الله القادر على كل شيء لينهي الشقاء والشر من العالم ، الحروب والسرقات والجرائم والموت والقتل مقابل أن يترك خطيئة صغيرة واحدة تمر دون عقاب ، خطيئة بسيطة واحدة مثل كذبة أو نظرة غضب أو لحظة كسل مقصودة ، لما كان يفعل ذلك وهو الله العظيم القدير ، لأن الخطيئة سواء كانت في الفكر أو في العمل هي خرق لناموسه ولا يكون الله إلهاً إن لم يعاقب خارق الناموس .

– وقد تسببت خطيئة واحدة ، لحظة من كبرياء الفكر المتمرد في سقوط لوسيفر وثلت أهل السماء من أمجادهم . وخطيئة واحدة ، لحظة حماقة غضب أخرجت آدم وحواء من عدن وجلبت الموت والشقاء على العالم . وقد نزل ابن الله الوحيد إلى الأرض ليصلح ما فسد من جراء هذه الخطيئة وعاش وتأم ومات أشنع ميتة بعد أن تعلق ثلاث ساعات على الصليب .

– آه يا صغاري الأعزاء إخوتي في يسوع المسيح ، هل نسيء إذن إلى هذا الشفيح الطيب ونثير غضبه ؟ هل ندوس ثانية على الجسد الممزق المقطّع ؟ هل

نبتق على هذا الوجه المليء بالألم والحب ؟ هل نسخر نحن أيضاً كاليهود القساة والجنود الطغاة من هذا المخلص العطوف الذي وطئ من أجلنا معاصر الألم ؟ كل كلمة من كلمات الخطيئة جرح في جنبه الرقيق . كل عمل من أعمال الخطيئة شوكة تحرق رأسه ، كل فكرة غير طاهرة يستسلم لها المرء عن قصد رمح حاد تخترق هذا القلب المقدس الحنون . كلا ! كلا . مستحيل أن يفعل أي مخلوق آدمي ما يسيء إلى الجلالة المقدسة بهذا القدر ، ما يستحق عليه العقاب الأبدي ، ما يعيد صلب ابن الله ويجعل منه أضحوكة .

- أضرع إلى الله أن تكون كلماتي الضعيفة قد أفادت اليوم في تأكيد القداسة في النفوس الطيبة ، وفي تقوية الإيمان المزعزعة ، وأن يعيد النفس الضعيفة التي ضلت إلى طريق الهداية ، إن كان بينكم مثل هذه النفس . أضرع إلى الله ، واضرعوا أنتم أيضاً معي ، حتى نتب عن خطايانا .

سأطلب منكم الآن ، كلكم ، أن ترددوا ورائي نصوص العهد ، راعين هنا في هذه الكنيسة المتواضعة في حضرة الله . إنه هناك في الهيكل يشتعل حباً للبشرية ، على استعداد لإراحة المعذبين . لا تخافوا . مهما يكن عدد خطاياكم ومهما تكن بشاعتها فسيغفر لكم إن تبتم عنها . لا تذرُوا الحُجُلَ الدنيوي يسك بكم عن التوبة . الله هو الإله الرحيم الذي لا يرغب في الموت الأبدي للخطيء بل يرغب له في الهداية والبقاء على قيد الحياة .

- إنه يدعوكم إليه . إنكم له . خلقكم من لا شيء . لقد أحبكم كما يحب الإله . إن ذراعيه مفتوحتان لتقبلكم حتى لو كنتم قد أخطأتم في حقه . تعالوا إليه يا أيها الخطاة المساكين ، أيها الخطاة المساكين المذنبون المغرورون . الآن هو الوقت المناسب ، الآن وقت التوبة .

ونفض القس ، واستدار إلى المذبح ثم جثا على عتبة الهيكل وسط ما ساد من وجوم . وانتظر حتى جثا كل من كان بالكنيسة وسكنت آخر ضجة فيها ،

ثم رفع رأسه وتلا نص العهد ، جملة جملة في حمية . وردد الأولاد ما تلاه جملة جملة . وأحنى ستيفن رأسه وقد التصق لسانه بجلقه ، وأخذ يصلي بمجامع فؤاده :

- يا إلهي ! -
- يا إلهي ! -
- إنني آسف من قلبي -
- إنني آسف من قلبي -
- لأنني قد أسأت إليك -
- لأنني قد أسأت إليك -
- وإنني أبغض خطاياي -
- وإنني أبغض خطاياي -
- فوق كل الشرور الأخرى -
- فذوق كل الشرور الأخرى -
- لأنها تغضبك يا إلهي -
- لأنها تغضبك يا إلهي -
- أنت يا من تستحق -
- أنت يا من تستحق -
- كل حي -
- كل حي -
- وإنني أنوي مخلصاً -
- وإنني أنوي مخلصاً -
- بمعونتك المقدسة -
- بمعونتك المقدسة -

- ألا أسيء إليك ثانية أبداً -
- ألا أسيء إليك ثانية أبداً -
- وأن أصلح من حياتي -
- وأن أصلح من حياتي -



وصعد إلى غرفته بعد العشاء حتى يخلو إلى روحه، وبدت روحه كما لو كانت تزفر مع كل خطوة ؛ صعدت روحه مع قدمه عند كل خطوة ، تزفر في صعودها خلال منطقة لزجة من الجهامة .

وتوقف في الرواق الذي يقود إلى الباب ، ثم أمسك بالمقبض القيشاني وفتح الباب بسرعة . وانتظر في خوف وروحه تنحلّ في داخله ، يصلي في صمت حتى لا يمس الموت إذ هو يطأ مدخل الغرفة ، وحتى لا تسيطر عليه الشياطين التي تسكن الظلمات . ومع ذلك بقي عند المدخل كما لو كان مدخل كهف مظلم ، كان ممتلئاً بوجوده وعيون كلها تنتظر وتراقب . وهتف به صوت غامض من الظلمة .
- بالطبع كنا نعلم تماماً أنه بالرغم من اكتشافها فسيجد صعوبة كبيرة في محاولة إغراء نفسه لتحاول تأكيد السلطة الروحية ، ولذلك كنا نعلم تماماً .

وظهرت له وجوه تهتمهم وتراقب ، وملأت همهمات الأصوات سقف الكهف. وغمر الخوف بدنه وروحه ، ولكنه خطا إلى داخل الغرفة بثبات وقد رفع رأسه في شجاعة . مدخل الباب ، والغرفة ، نفس الغرفة ، نفس النافذة . وقال لنفسه في هدوء إن هذه الكلمات التي بدأت ترتقع مهمة في الظلمة لا معنى لها على الإطلاق . وقال لنفسه إن الغرفة غرفته ببابها المفتوح .

وأغلق الباب ، وسار بخفة إلى الفراش وجثا بجوارده وغطى وجهه بيديه . وكانت يده باردتين رطبتين ، وآلمته برودة أطرافه . وأفضّ مضجعه التعب الجسدي والبرودة والإعياء وأثار أفكاره . لماذا هو جاثٍ هناك كالطفل يتلو

صلواته ؟ لكي يخلو إلى روحه ، ليتفحص ضميره ، لكي يواجه خطاياها وجهاً لوجه ، لكي يستعيد أوقاتها ووسائلها وظروفها ، لكي يبكي عليها . ولم يستطع البكاء . ولم يستطع أن يستعيد لها إلى ذاكرته . لم يشعر إلا بضنى الروح والجسد ، وشعر بكيانه كله وذكرياته وإرادته وإدراكه وجسده مخدراً تعباً .

كان هذا من فعل الشيطان لكي يبدد أفضل أفكاره ويثقل ضميره . يهاجمه على أبواب الجسد الجبان الذي افسدته الخطيئة ، وزحف إلى فراشه وغطى نفسه بالملاءة جيداً وغطى وجهه ثانية بيديه ، وصلى إلى الله في وجل لكي يغفر له ضعفه . لقد سقط في الخطيئة . لقد أخطأ حتى أذنيه في حق السماء وأمام الله حتى أنه لا يستحق أن يدعى ابن الله .

هل من المتصور أنه هو - ستيفن ديدالوس ، هو الذي فعل هذه الأشياء ؟ وزفر ضميره زفرة الجواب . أجل ، لقد فعلها هو ، خفية ، في دنس ، مرة بعد مرة ؛ وأعماه عصيانه الخاطيء ، وجرؤ على ارتداء مسوح القداسة أمام الهيكل المقدس ذاته بينما روحه في الداخل كتلة حية من الفساد . كيف لم يُردِّه الله قتيلاً ؟ وأحاطت به مجموعة خطاياها تزفر حوله ، وتجمُّ فوق أنفاسه من كل الأنحاء . وحاول أن ينساها بالصلاة ، وقد جذب أطراف جسمه على بعضها وأغلق جفنيه ، ولكن وسائل الحس في روحه ظلت مفتوحة ، فرأى الأماكن التي أخطأ فيها رغم أن عينيه كانتا مغلقتين بشدة ، وسمع خطاياها رغم أن أذنيه كانتا مغلقتين بإحكام . لقد رغب بكل ما لديه من إرادة ألا يرى وألا يسمع . واجتاحته الرغبة حتى ارتجف تحت وطأة رغبته وحتى أغلقت وسائل الحس في روحه منافذها . أغلقت لحظة ثم فتحت أبوابها ثانية . ورأى .

حقل من الطفيليات والعوسج وحزومات القريض المجزوزة . وبين جزر النباتات الجامدة الكريهة الرائحة ترقد علب الشاي والدماء المتخثرة ودوائر الروث الجامد ملقاة هنا وهناك . ويجاهد نور واهن من بين كل هذه القاذورات من خلال الطفيليات الشوكية الخضراء . وانبعثت في خمول رائحة نتنة واهنة

كالنور من بين علب الشاي ومن الروث العفن الجامد .

وكانت هناك مخلوقات أخرى في الحقل . واحد ، ثلاثة ، ستة ؛ مخلوقات تتحرك في الحقل هنا وهناك . مخلوقات ماعزية ^(١) ذات وجوه بشرية ، ذات قرون وذقون خفيفة ورمادية في لون المطاط ، يلتمع مكر الشر في عيونها الجامدة ، وهي تتحرك هنا وهناك ، وتجر وراءها ذيوها الطويلة . وكان يضيء وجوهها النحيلة فتحة أفواهها ذات الغل القاسي . وكان واحد منها يقبض على زنار ممزق من قماش الفائلة حول ضلوعه ، وآخر يتشكى في رتابة وقد التصقت لحيته بالطفيليات المجزوزة . وكانت الكلمات اللينة تصدر عن شفاهها الخالية من اللعاب وهي تحف في دوائر بطيئة وتدور مقتربة أكثر فأكثر حتى لتطبق ، حتى لتطبق ، والكلمات اللينة تصدر عن شفاهها ، وذيوها الطويلة الهفافة ملطخة بالروث العفن ، وتقذف بوجوهها المرعبة إلى أعلى ...

النجدة !

وقذف عنه الملاءات في جنون ليحمر وجهه ورقبته . هذا هو جحيمه . لقد أراه الله الجحيم الذي ينتظره عقاباً له على خطاياها : جحيم نتن ، بهيمي ، خبيث ، جحيم من الشياطين الداعرة الماعزية . من أجله ! من أجله .

وقفز من الفراش والعبير البخاري ينصب في حلقه ، ويثقل على أمعائه ويثيرها . هواء ! هواء السماء ! وتعثر في خطاه نحو النافذة ، يئن من الإعياء ويكاد يغشى عليه . وعند الحوض تملكه تشنج داخلي وتقياً كثيراً في ألم وهو يسك جبهته الباردة في عنف .

وحين استنفدت النوبة نفسها سار بضعف نحو النافذة ورفع فروازها ، وجلس في ركن من الكوة وارتكز برفقه على مقدمة الشباك . كان المطر قد انقطع ، وكانت المدينة تنسج حول نفسها غشاء من الهالة الصفراء من بين الأبحرة

(١) كناية عن الدعر والفسق .

المتحركة من منطقة نور إلى منطقة نور أخرى . كانت السماء لما تنزل مضيئة في وهن والهواء طيب الأنفاس كهواء الدغل الذي أدركته شآبيب المطر . وعاهد قلبه عهداً وسط الهدوء والأنوار المتألقة والأريج الهادى .

وصلى :

– « لقد انتوى مرة أن ينزل إلى الأرض في مجده السماوي ولكننا أخطأنا ، فلم يستطع أن يزورنا في أمان إلا في جلالة متخفية وضياء مغطى لأنه هو الله . ولهذا جاء بنفسه في ضعف وليس في قوة وأرسلك وأنت مخلوق مكانه ، في عذوبة بشرية وفي تألق يلائم حالتنا . والآن فإن وجهك وهيئتك يا أمي العزيزة يحدثنا من « الأزل » ، ليس كالجمال الأرضي الخطر رؤياه ، ولكن كنجم الصباح الذي هو شعارك ، لامع منغم ، يتنسم الطهر ، ويحكى عن السماء ويبعث السلام ، آه يا بشير النهار ، آه يا هداية الحاج ! إرشدنا كما أرشدتنا دائماً . إهدينا من الليل البهيم عبر البرية الكئيبة إلى سيدنا يسوع ، إهدينا إلى مستقرنا » .

وأظلمت الدموع عينيه ، ورفع بصره إلى السماء في خضوع وبكى طهره الذي خسره .

وغادر المنزل حين أقبل المساء . وأثارت أول لمسة للهواء المظلم الرطب وضجة الباب وهو يغلق خلفه الألم في ضميره ثانية ، وكانت الصلوات والدموع قد هدهدته . إعترف ! إعترف ! لا يكفي هدهدة الضمير بالدموع والصلاة . لا بد أن يحشو أمام تابع الروح القدس ويعترف بخطاياها الحبيبة في صدق وندم . ولا بد له أن يكون قد جثا واعترف قبل أن يسمع ثانية دورة الباب على المدخل حين ينفتح لاستقباله ، وقبل أن يرى المائدة وقد أعدت للعشاء في المطبخ مرة أخرى .

وتوقفت آلام الضمير ، وسار إلى الأمام في خفة خلال الطرق المظلمة . كان هناك صواري أعلام عديدة في هذا الطريق ، وطرق كثيرة في هذه المدينة ، ومدن كثيرة في العالم . ولكن الأبدية لا نهاية لها . لقد وقع في الخطيئة الكبرى .

بل إن الخطيئة الواحدة خطيئة كبرى . يمكن أن تحدث في لحظة واحدة .

ولكن بأي سرعة ؟ بالرؤية أو التفكير بالرؤية . ترى العينان الشيء دون أن تكونا قد رغبتا أولاً في أن ترياه . ثم يحدث ذلك في لحظة . ولكن ، هل يعقل هذا الجزء من الجسد أم ماذا ؟ الحية ، أكثر الحيوانات مكرراً . لا بد أن تعقل ما ترغب فيه في لحظة واحدة ثم تمد في رغبتها لحظة وراء لحظة ، في خطيئة . فهي تشعر وتعقل وترغب . ياله من شيء مرعب ! من الذي جعله هكذا ، جزءاً بهيمياً من الجسد يعقل بطريقة بهيمية ويرغب بطريقة بهيمية ؟ أيكون ساعتها هو أم شيئاً غير إنساني تحركه روح أدنى ؟ وغمر السقم روحه حين جالت بخاطره حياة خدرة ملتوية تغذي نفسها على لباب حياته الرقيق وتستن على قاذورات الشهوة . آه ، لماذا كان ذلك كذلك ؟ لماذا ؟

وانتفض في ظلال هذه الأفكار ، محقراً نفسه في خوف الله الذي خلق كل شيء وخلق كل إنسان . جنون من يفكر في مثل هذا ؟ وانتفض في الظلمة والقبح وصلّى في صمت إلى ملاكه الحارس حتى يمتشق حسامه ويطرده به الشيطان الذي يوسوس إليه .

وانقطعت الوسوسة ، وأدرك بوضوح ، أن روحه قد أخطأت في الفكر وفي العمل عمداً عن طريق جسده . إعترف ! لا بد أن يعترف بكل خطيئة . كيف يمكن أن ينطق لسانه بما فعله إلى القس ؟ لا بد ، لا بد . أو كيف يتأتى له أن يشرح ذلك دون أن يموت من الخجل ؟ أو كيف فعل مثل هذه الأشياء دون خجل ! رجل مجنون ! إعترف ! لا بد من ذلك حتى يعود حراً دون خطايا مرة أخرى ! ربما يدرك القس ذلك ! آه يا إلهي العزيز !

وسار إلى الأمام في طرق ضعيفة الإضاءة ، يخشى أن يتوقف لحظة حتى لا يبدو محجماً عما ينتظره ، ويخشى أن يصل إلى ما يشقاق إليه . كم هي جميلة لا بد أن تكون تلك الروح الطاهرة حين ينظر الله إليها في حب ! كانت فتيات قدرات يجلسن على حافة الطريق خلف سلالهن ، وقد تهدل .

شعرهن الرطب فوق حواجبهن . لم يكن جميلات المنظر إذ يربضن بين القاذورات . ولكن الله يرى أرواحهن ، وإذا كانت أرواحهن طاهرة يكنّ مشرقات المنظر ، ويجهن الله حين يراهن . وهبت على روحه نسمة هواء مدمر كئيب . ما أقسى أن يفكر كيف سقط ، وما أقسى أن يشعر أن هذه الأرواح أحب إلى الله من روحه . وهب عليه النسيم ، وتخطاه إلى آلاف الآلاف من الأرواح الأخرى التي تسطع عليها محبة الله ، شديد حيناً وقليل حيناً آخر ، وأنجم بارقة آنة وآنة أخرى معتمة . تسبح وتهوى . وخطت الأرواح البارقة أيضاً ، تستقيم وتهوي . وتنضوي في زفرة متحركة . روح واحدة ضائعة ، روح دقيقة ، روحه . اهتزت شعلتها مرة ثم انطفأت ، منسية ، ضائعة . النهاية ، يباب أسود بارد ماحٍ .

وعاد إليه إحساسه بالمكان منحسراً في بطنه في رقعة طويلة من الزمن ، مظلماً غائباً عن الشعور ، غائباً عن الحياة . واتخذ المنظر القدر شكلاً من حوله ، اللهجات الشعبية ، مصابيح الغاز المشتعلة في الحوانيت ، رائحة السمك والخمر ونشارة الخشب المتتلة والرجال والنساء يروحون ويحيثون . وكانت امرأة عجوز توشك على عبور الطريق وظيفحة غاز في يدها . وانحنى وسألها إن كانت هناك كنيسة قريبة .

— كنيسة يا سيدي ؟ أجل يا سيدي . كنيسة شارع « تشيرش » .
— « تشيرش » ؟

ونقلت الصفيحة إلى يدها الأخرى وأشارت له ، وبينما كانت تبسط يدها المعروقة القدرة من تحت أهداب وشاحها ، انحنى أكثر نحوها وقد أحزنه صوتها وهدأ من خاطره .

— شكرًا لك .
— عفواً يا سيدي .

كانت شموع المذبح المرتفع قد انطفأت ! غير أن عبير البخور كان ما يزال

يفوح في أسفل البناية المعتم. كان بعض عمال ملتحين ذوي وجوه ورعة يُخرجون ظِلَّةً من باب جانبي ، والقندلفت يساعدهم بإشارات وكلمات هادئة . وكان قليل من المؤمنين ما زالوا يصلون في مهل أمام مذبح جانبي ، أو يجثون في الصفوف قريباً من أماكن الاعتراف . واقترَب في وجل وجثا في آخر صف ، حامداً هدوء الكنيسة وسكونها وظلالها العبة . وكان اللوح الذي جثا عليه ضيقاً متناً كلاً ؛ وكان الجاثون بقربه من أتباع يسوع الرقيق الحال . لقد ولد يسوع فقيراً كذلك وعمل في حانوت نجار يقطع عروق الخشب ويسويها ، وأول ما تكلم عن مملكة الله كان للصيادين الفقراء ، وقد علّم بني الإنسان جميعاً أن يكونوا ودعاء بسيط القلوب .

وأخى رأسه فوق يديه ، داعياً قلبه أن يكون وديعاً بسيطاً حتى يصبح مثل الجاثين حوله ولكي تتقبل صلاته كما تتقبل صلاتهم . ورغم أنه يصلي بجوارهم إلا أن ذلك كان صعباً . كانت الخطيئة تملأ روحه قذاراً ، ولم يجزئ على طلب الغفران في ثقة بمثل ما يفعل هؤلاء الذين دعاهم يسوع إلى جانبه أول ما دعاه بوسائل الله الخفية ، النجارين والصيادين والفقراء البسطاء الذين يعملون في مهن وضيعة كقطع الخشب وتشكيل أخشاب الأشجار وإصلاح شباك الصيد في صبر .

ومر شخص طويل من أمام الجانب الأقصى من الكنيسة ، وسرت حركة بين التائبين . ونظر أمامه بسرعة في آخر لحظة ولمح لحية طويلة شهباء ورداء الكابوتشين^(١) البني اللون . ودخل القس القبو واختفى فيه . ونهض تائبان ودخلا مكان الاعتراف من كلا الجانبين . وانزاح الحاجز الخشي ، وأزعجت السكون هممة خافتة . وبدأ دمه يهمهم في عروقه ، هممة مدنية خاطئة دعيت من سباتها لتسمع الحكم بموتها . وسقطت نتف صغيرة من اللهب ، وسقط

(١) رداء القس الفرندسيكان .

رماد مسحوق في رقة ، سقط على مساكن البشر . وتحركوا ، واستفاقوا من سباتهم وقد أزعجهم الهواء الساخن .

وأغلق الحاجز ثانية . وخرج التائب من جانب القبو . وجذب الحاجز الآخر . ودخلت امرأة في هدوء وخفة إلى حيث كان يجثو التائب الأول . وارتفعت المهمة الخافتة مرة أخرى .

ما زال بإمكانه مغادرة الكنيسة . باستطاعته أن ينهض ويضع قدماً أمام الأخرى ويخرج في هدوء ثم يجري ، ويجري ، ويجري مسرعاً خلال الطرقات المظلمة . ما زال بإمكانه أن يهرب من العار . لو أنها كانت أي جريمة مخيفة أخرى غير هذه الخطيئة بعينها ! لو أنها كانت القتل ! وسقطت نتف صغيرة ملتهبية وأحرقته في جميع الأنحاء ، وأفكار مخجلة ، وكلمات مخجلة ، وأفعال مخجلة . وغطاه العار كله مثل الرماد الناعم المتوهج الذي يتساقط باستمرار . يصوغ كل هذا في كلمات ! لسوف تتوقف روحه عن الوجود مختنقة عاجزة .

وأغلق الحاجز ثانية . وخرج تائب من جانب القبو القصي . وفتح الحاجز القريب ، ودخل تائب مكان التائب الآخر الذي خرج لتوه . وطافت ضجة هامسة رقيقة في غيابة متبخرة إلى خارج القبو . كانت هي المرأة : غيابة متبخرة رقيقة ، بخار هامس رقيق ، همس ويختفي .

ودق صدره بقبضة يده في وداعة وخفية . سوف يكون في وفاق مع الآخرين ومع الله في ستار المتكأ الخشي . سوف يحب جاره . وسوف يحب الله الذي خلقه والذي يحبه . سوف يجثو ويصلي مع الآخرين ويكون سعيداً . وسوف ينظر الله إليه وإليهم ويحبهم أجمعين . من السهل أن يكون طيباً . إن نير الله عذب وخفيف . من الأفضل ألا يكون المرء قد أذنب على الإطلاق ، أن يكون المرء طفلاً على الدوام ، فإن الله يحب الأطفال الصغار . ويجعلهم يأتون إليه . الخطيئة شيء مرعب محزن ، ولكن الله رحيم بالخطاة المساكين الذين يتوبون توبة صدوقاً . ما أصدق ذلك ! هذه هي الطيبة حقاً .

وأغلق الحاجز فجأة . وخرج التائب ، وحل عليه الدور . ونهض في رعب
وسار تلقائياً إلى القبو .

لقد حانت اللحظة أخيراً . وجثا في الظلمة الداكنة ورفع عينيه إلى مشهد
الصلب المعلق فوقه . يستطيع الله أن يرى أنه قد تاب . سوف يحكي كل
خطاياهم . سيكون اعترافه طويلاً ، طويلاً . وسيعرف كل من في الكنيسة أي
خاطيء كان . فليعرفوا . هذا صحيح . ولكن الله وعد أن يغفر له إن هو
تاب . وهو قد تاب . وعقد يديه ورفعها نحو المشهد الأبيض ، يصلي بعينيه
المظلمتين ، يصلي بكل جسده المرتعد ، يهز رأسه جيئةً وذهاباً مثل المخلوق
الضائع ، يصلي بشفاة متقطعة الصوت :
- آسف ! آسف ! آسف .

وارتفع الحاجز الخشي ، وتقلص قلبه داخل صدره . وظهر وجه قس
عجوز عند الكوة ، شامخاً عنه ، مرتكزاً على أحد ذراعيه . ورسم علامة
الصليب وطلب من القس أن يباركه لأنه قد أخطأ . ثم تلا « الاعتراف » في
خوف وقد أحنى رأسه . وتوقف عند عبارة « خطيئتي الشديدة النكران »
لاهت الأنفاس .

- متى كان آخر اعتراف لك يا ولدي ؟

- منذ فترة طويلة يا أبي .

- منذ شهر يا ولدي ؟

- أكثر يا أبي .

- ثلاثة شهور يا ولدي ؟

- أكثر يا أبي .

- ستة شهور ؟

- ثمانية شهور يا أبي .

لقد بدأ . وسأله القس :

- وماذا تذكر منذ هذه الفترة ؟

وبدأ يعترف بخطاياہ : القداسات التي أمهلها ، والصلوات التي لم يؤديها ،
والأكاذيب .

- شيء آخر يا ولدي ؟

خطايا الغضب وحسد الآخرين ، والشهرة ، والغرور ، والعصيان .

- شيء آخر يا ولدي ؟

لا مفر . وتمتم : - لقد ارتكبت خطيئة الإثم يا أبي .

ولم يدر القس رأسه .

- وحدك يا ولدي ؟

- و ... مع الآخرين .

- مع النساء يا ولدي ؟

- أجل يا أبي .

- هل كن متزوجات يا ولدي .

لم يكن يعرف . وتدفقت خطاياہ من فمه واحدة وراء الأخرى ، تدفقت في
نقاط دنسة من روحه ، منبثقة تنز مثل القرح ، تيار خطيئة دنس . ونزت
آخر الخطايا في قذارة و دنس . ولم يعد هناك ما يقال من خطايا . ونكس
رأسه ، مغلوباً على أمره .

وكان القس صامتاً ، ثم سأل :

- كم عمرك يا ولدي ؟

- ستة عشر عاماً يا أبي .

ومرر القس يده عدة مرات على وجهه ، ثم ارتكز يجيئنه على يده ، ومال
نحو الكورة وتحدث في ببطء ولما تزل عيناه مخفوضتين . وكان صوته واهناً هرمماً .

قال : إنك صغير جداً يا ولدي . إني أتضرع إليك أن تترك هذه الخطيئة . إنها خطيئة مرعبة ، فهي تقتل الجسد وتقتل الروح . وهي سبب كثير من الجرائم والمصائب . اتركها يا ولدي بحق الرب . إنها هادرة للكرامة والرجولة . لا تستطيع التكهن بما ستقودك إليه هذه العادة أو متى ستقلب ضدك . وطالما ترتكب هذه الخطيئة يا ولدي المسكين فلن تساوي ذرة واحدة في عين الله . صلّ إلى أمنا ماري لمساعدتك . ولسوف تساعدك يا ولدي . صلّ إلى ماري المباركة حين تخطر هذه الخطيئة على بالك . إني واثق أنك ستفعل هذا ، أليس كذلك ؟ إنك نادم على كل هذه الخطايا . إني واثق من ذلك . وسوف تعد الله الآن أنك لن تسيء إليه بعد ذلك بهذه الخطيئة ، بمساعدة نوره المقدس . سوف تعد هذا الوعد المقدس لله ، أليس كذلك ؟

- أجل يا أبي .

ونزل الصوت الهرم الواهن برداً وسلاماً على قلبه المرتجف المتيبس . ياله من صوت عذب حزين !

- افعل ذلك يا ولدي المسكين . لقد أضلك الشيطان . ادفع به ثانية إلى الجحيم حين يغريك بإهدار كرامة جسدك بهذه الطريقة ، إنه الروح الكريه الذي يبغض إلنا . فلتعد الله الآن أنك ستترك هذه الخطيئة ، هذه الخطيئة البائسة ، البائسة .

وأحنى رأسه وقد أعمته دموعه ونور عطف الله ، وسمع كلمات الإبراء الرصينة تتلى ورأى يد القس ترتفع فوقه علامة على الغفران .

- باركك الله يا ولدي . صلّ من أجلي .

وجثا ليتلو صلاة التوبة في ركن من الكنيسة مظلم . وصعدت صلواته إلى السماء من قلبه المصفى كالعطر الذي يفوح عالياً من قلب وردة بيضاء .

وكانت الطرق الموحلة بهيجة . سار بخطوات واسعة إلى البيت ، يشعر

بطلاوةٍ داخليةٍ تتخلل أطرافه وتزيل ثقلها . لقد فعلها رغم كل شيء . لقد اعترف وغفر له الله . لقد عادت روحه جميلة مقدسة مرة أخرى ، مقدسة وسعيدة .

جميل أن يموت المرء الآن إذا أراد الله ذلك . جميل أن يحيى المرء بطلاوةٍ حياةً هادئةً فاضلةً مترنةً مع الآخرين .

وجلس بالقرب من النار في المطبخ ، لا يجروء من فرط سعادته على الكلام . لم يعرف حتى هذه اللحظة كم من الممكن أن تكون الحياة جميلة وهادئة . وعكست الورقة الخضراء المثبتة حول المصباح ظلاً رقيقاً . كان هناك طبق من السجق والبودنج الأبيض على المطبقية ، وبيض على الرف ، معد لإفطار الصباح بعد تناول القربان المقدس في كنيسة المدرسة . بودنج أبيض وبيض وسجق وأقداح الشاي . كم الحياة جميلة وبسيطة على كل حال ! وأمامه تمتد الدنيا .

ونام في حلم ، ونهض في حلم . ورأى الصباح وقد أقبل . وفي حلمٍ يقظٍ ذهب إلى مدرسته في الصباح الهاديء .

وكان الأولاد كلهم هناك ، يبحثون في أماكنهم . وجثا بينهم ، سعيداً خجلاً . وغطت المذبح أكوام من الزهور البيضاء الفواحة ، وبدت شعلات الشموع الشاحبة في ضوء النهار وبين الزهور البيضاء نقية ساكنة مثل روحه .

وجثا أمام المذبح مع زملائه وقد أمسكوا بقماش المذبح فوق صف حي من الأيدي . كانت يدها ترتجفان ، وارتجفت روحه وهو يسمع القس يمر بقدح القربان من متناولٍ إلى متناولٍ آخر .

— جسد ربنا .

هل هذا ممكن ؟ إنه يجثو هناك وجلاً دون خطايا ، وسيستقبل لسانه القربان المقدس سيدخل الله إلى جسده المتطهر .

- في حياة أبدية . آمين .
حياة أخرى ! حياة طهارة وفضيلة وسعادة ! هذا صحيح . لم يكن هذا
حلماً يمكن أن يستيقظ منه . ما مضى قد مضى .
- جسد ربنا .
لقد وصل كأس القربان إليه .

★

كان يوم الأحد مخصصاً لأسرار الثالوث المقدس الرباني ، والاثنين للروح القدس ، والثلاثاء للملائكة الحارسين ، والأربعاء للقديس يوسف ، والخميس لقداس المذبح المبارك ، والجمعة لآلام يسوع ، والسبت للعدراء المباركة ماري .

وكان يبارك نفسه كل صباح من جديد أمام صورة مقدسة أو سر من الأسرار الدينية المقدسة. ويبدأ يومه بأن يخصص في شهامة كل دقيقة من تفكيره وعمله لأغراض الخير الأعظم ، بالإضافة إلى قداس مبكر . وأنعش هواء الصباح الندي من عزمه على التقوى . وإذا كان يجثو مع قلة من المصلين عند المذبح الجانبي يتابع مهمة القس في كتاب صلواته المحتوي على الشريط القطيفة ، رفع بصره لحظة ناحية الشكل المغطى الذي وضعوه في الغبشة التي تقع بين الشمعتين . وكانا العهد القديم والعهد الجديد . وتخيل أنه يجثو في قداس يقام بين المقابر .

وكرس حياته اليومية لمظاهر العبادة . كان يحاول عن طريق ابتهالاته وصلواته تعويض قرون من الأيام والأربعينات والسنين للأرواح المحتجزة في المطهر ؛ غير أن شعوره بالانتصار الروحي لإنجاز مثل هذه الكثرة الخرافية من العقوبات الشرعية بسهولة لم يكن ثواباً كاملاً لحماسة صلواته ، إذ أنه لم يكن ليعرف كم من العقاب المؤقت قد أزالته صلوات الراحة التي أداها للأرواح المعذبة . وخاف ألا يكون لدعواه إلا أثر نقطة الماء وسط نيران المطهر التي لا

تختلف عن نيران الجحيم إلا في عدم أبديتها ؛ فدفن روحه كل يوم نحو مزيد من أعمال البذل والعطاء .

ودار كل قسم من أقسام يومه الذي تحكم فيه ما كان يعتبره الآن واجبات مكانه في الحياة ، حول مركز من الطاقة الروحية . وبدأت حياته كما لو أنها تنسحب إلى جوار الأبدية ؛ كل فكرة وكل كلمة وكل عمل وكل لحظة من لحظات الوعي تهتز لها السماء في نور . وأحياناً يكون إحساسه بمثل هذا التراجع الفوري عظيماً لدرجة يبدو معها أنه يحس بروحه تضغط كالأصابع في تقوى على مفاتيح آلة تسجيل المشتريات ويرى حساب مشترياته يرتفع في السماء ، ليس على هيئة أعداد بل على شكل عمود واهن من البخور أو على شكل زهرة رقيقة .

وأحالت التسابيح التي كان يتلوها دائماً (كان يحمل حبات المسبحة فارطاة في جيوب سرواله حتى يتلو تسابيحها حين يسير في الطرقات) أحالت نفسها إلى أكليل من الزهور لها نسيج غامض غير دنيوي حتى أنها بدت له خالية اللون خالية العبير كما هي خالية الاسم . وخصص واحداً من أكليله اليومية الثلاثة لأجل أن تقوى روحه في كل من الفصائل اللاهوتية الثلاث : الإيمان في الآب الذي خلقه ، والأمل في الابن الذي شفيع له ، وحب الروح القدس الذي ظهره . وكان يقدم هذه الصلاة المضاعفة ثلاثاً إلى الأشخاص الثلاثة عن طريق ماري باسم أسرارها البهيجة الأليمة والمجيدة .

وكان يصلي بالإضافة إلى ذلك في كل يوم من أيام الأسبوع السبعة لأجل أن تهبط على روحه واحدة من هبات الروح القدس السبع وتطرد منها يوماً بعد يوم الخطايا السبع المميتات التي دنستها في الماضي . وصلى لكل هبة في اليوم المخصص لها ، واثقاً أنها ستهبط عليه ، رغم أنه بدا له أحياناً من الغريب أن تكون الحكمة والإدراك والمعرفة متميزة هذا التمييز في طبيعتها الواحدة منها عن الآخرين لدرجة أن تقدم الصلوات لكل منها على حدة . ومع ذلك فقد آمن أن هذه الصعوبة ستزول في مرحلة مقبلة من مراحل تقدمه الروحي حين تنهض

روحه الخاطئة من ضعفها وقد استنارت من الشخصية الثالثة في الثالوث المقدس .
وازداد إيماناً بذلك ، في اضطراب مرتعد ، بسبب الجهامة والصمت المقدسين
الذين يحيا فيها الروح القدس الحقي ، ويُرْمز له باليامة والريح العظيم ، والذي
إن أخطأ أحد في حقه فقد أخطأ خطأ لا غفران له ، الوجود الحفي الملفز
الأبدي الذي يخص القسس له - كما يخصون إلى الله - قداساً مرة كل عام ،
وهم يرتدون الأردية القرمزية التي تشابه ألسنة اللهب .

كانت الكتب الدينية التي يقرأها تصور في غموض طبيعة وقرابة الشخوص
الثلاثة في الثالوث المقدس ، الأب يتأمل كاله المقدس من أبد الآبدين كما في المرأة ،
وينجب هذا في أبدية الابن الأبدي ، والروح القدس يخرج من الأب والابن من
أبد الآبدين . وكان أسهل على عقله أن يقبل هذا رغم تعذر إدراكه المجيد عن
أن يقبل الحقيقة البسيطة التي تقول بأن الله قد أحب روحه منذ الأزل ، من
عصور سابقة لمولده إلى هذه الدنيا ، من عصور سابقة لوجود العالم نفسه .

وقد استمع لأسماء عواطف الحب والكره ينطق بها القسيس من على المحراب
والمثلون من على المسرح ، ووجدتها مكتوبة في رصانة في الكتب ، وتساءل
لماذا لا تستطيع روحه أن تكن مثل هذه العواطف لأي مدة من الزمن ، أو
ترغم شفتيه بأن تنطقاً أسماءها عن اقتناع . وغالباً ما كان يتملكه غضب قصير
ولكنه لم يمكنه أبداً أن يجعل منه عاطفة مقيمة ، وكان دائماً يشعر بنفسه يمر
خارج هذه العاطفة كأن جسده يتخلص في سهولة من جلد أو من قشرة خارجية .
وكان قد شعر بوجود خفي دقيق فوار يتخلل كيانه ويشعله بشهوة قصيرة
جائرة . وقد عبرت هي أيضاً بعيداً عن متناوله وتركت ذهنه هادئاً لامبالياً .
ويبدو أن هذا كان الحب الوحيد والكره الوحيد الذي تستطيع روحه
الإحساس به .

ولكنه لم يستطع بعد ذلك إنكار حقيقة الحب ما دام الله نفسه قد أحب
روحه المقردة حباً إلهياً منذ الأزل . وإذا كانت روحه تثري بالمعرفة الروحية ،

رأى بالتدريج العالم كله يشكل تعبيراً واحداً رحباً متسقاً لقوة الله ووجهه .
وأصبحت الحياة هبة مقدسة يجب على روحه أن تمدح واهبها عليها وتشكره على
كل لحظة وكل شعور فيها ولو كان مجرد رؤية ورقة واحدة من الشجر معلقة على
غصنها . ولم تعد الدنيا بكل مادتها الصلدة وتشابكها أمام روحه إلا نظرية
للقوة والحب والشمول الإلهي . كانت روحه قد وهبت هذا الإحساس بالمعنى
الإلهي في الطبيعة بطريقة كلية أكيدة حتى أنه لم يكذب يتفهم لماذا يتعين عليه بأية
حال أن يبقى على قيد الحياة ؛ وعلى كل حال كان هذا جزءاً من القصد الإلهي
ولم يجروء على مناقشة فائدته أكثر من أي شخص آخر وهو الذي أخطأ إلى أبعد
أغوار الخطأ وارتكب أبشع الخطايا ضد القصد الإلهي . وحملت روحه مرة
أخرى أعباء التقوى والطقوس والصلوات والمقدسات والزهد وقد أحالها ذلك
الشعور بالحقيقة الواحدة الأزلية المقيّمة الكاملة وديعة مهينة . وعند ذلك ،
ولأول مرة منذ عكف على سر الحب الأعظم تشعر في داخله حركة دافئة
كحركة حياة أو فضيلة حديثة الميلاد للروح نفسها . وأصبحت الأيدي المرفوعة
المتفوحة ، والشفاه والأعين المفتوحة كأنما صاحبها على وشك الإغماء ، وكلها
اتجاهات السكينة في الفن المقدس ، أصبحت بالنسبة له صورة للروح في صلاتها
ذليلة غاشية أمام خالقها .

ولكن كان قد حُذِر سلفاً من أخطار الإعلاء الروحي ، ولم يسمح لنفسه
بالارتداد حتى عن أقل مظاهر الورع أو أتفهها شأناً . وكان يجاهد كذلك عن
طريق الزهد الدائم لإزالة ماضيه الخاطيء عنه لإحراز طهارة تهددها المخاطر .
وأخضع كل وسيلة من وسائل الحس لديه لنظام صارم ؛ وحتى يقمع إحساس
البصر اتخذ قاعدة له أن يسير في الطريق مسبل العينين لا يكاد يلتفت يمنة أو
يسرة ولا يلتفت خلفه أبداً ، وتجنبت عيناه أن تلتقيا بأعين النساء . وكان من
وقت إلى آخر يجبط عملها يجهد مفاجيء من إرادته ، كأنه يرفعها فجأة في
منتصف جملة لم تكمل ويفلق الكتاب . وحتى يقمع سمعه لم يمارس أي سيطرة

على صوته الذي كان يضمحل آنذاك ، فلم يغن* أو يصفر ولم يبذل أي محاولة للفرار من الضجيج الذي يسبب له ضيقاً عصبياً مثل سماع شحذ السكين على المسنن ، أو جمع الرماد من على رف المائدة أو نفض الأتربة عن البساط . أما قمع حاسة الشم عنده فكان أكثر صعوبة حيث لم يجد في نفسه نفوراً فطرياً من الروائح الكريهة سواء كانت رائحة المعالم الخارجي مثل الروث أو الزفت أو روائح جسده هو التي عقد بينها كثيراً من المقارنات والتجارب الغريبة . ووجد أخيراً أن الرائحة الوحيدة التي ينفر منها إحساسه رائحة سمكية معينة كدرة تننة تشبه البول الراكد ، فعمل على أن يتعرض لهذه الرائحة الكريهة كلما أمكن ذلك . وأخذ يمارس عادات صارمة عند الطعام حتى يقمع حس الذوق عنده ، وحافظ بدقة على أيام الصوم التي تليها الكنيسة ، واعتاد عن طريق الشرود أن يحول ذهنه عن تذوق نكهات الأطعمة المختلفة . غير أن قمع حاسة اللمس كان هو الميدان الذي حقق فيه أعظم الابتكارات جهداً وبراعة ، فكان يعتمد ألا يغير من وضعه الواحد أثناء النوم ، ويجلس في أشد الأوضاع إزعاجاً ، ويتحمل في صبر كل حكة وألم في جسده ، ويتعد عن كل وسائل التدفئة ، ويبقى جاثياً على ركبتيه طوال فترة القداس ، ما عدا في قداس البشارة ، ويترك جانباً من عنقه ووجهه مبللاً بالماء حتى يخزه الهواء بعد ذلك ؛ كما كان يلصق ذراعيه إلى جنبه في جمود كالمعدنين ولا يضعها في جيوبه أو يضمها خلف ظهره ، وذلك حين لا يكون مشغولاً بالتسييح .

ولم يعد يشعر بإغراء الخطيئة الكبرى . وقد أدهشه رغم ذلك أن يجد نفسه بعد نجاح منهاجه في التقوى المعقدة وكبح جماح النفس تحت رحمة نقائص صيانية تافهة تتملكه في سهولة تامة . ولم تكن صلواته وصيامه تجديه شيئاً في قمع غضبه حين يسمع أمه تتمخط أو حين يزعجه أحد إبان تعبه . وقد احتاج الأمر إلى جهد هائل من إرادته حتى يتحكم في الدافع الذي يحثه على التنفيس عن مثل هذا الضيق والغضب . وخطرت على ذهنه صور انفجارات

الغضب التافه التي طالما لاحظها بين مدرسيه ، حين كانت أفواههم تلتوي وشفاههم تنطبق ووجناتهم تتورد ، مما كان يفت في عضده حين يقارن نفسه بهم برغم كل مجهوداته لترويض النفس . كانت محاولة توحيد حياته مع المد العام لحياة الآخرين أصعب لديه من كل صوم أو صلاة ، وكان فشله في أداء ذلك على الوجه الذي يرتضيه يسبب له إحساساً بالجفاف الروحي في نفسه ونمى في الوقت ذاته الشكوك والهواجس فيها . وعبرت روحه فترة من الإفقار بدت له فيها المقدسات نفسها وقد تحولت إلى وسائل عقيمة . وأصبحت اعترافاته وسيلة للفرار من نقائص الهواجس والنقائص الأخرى التي لم يتب منها . ولم يعد عليه تناول المقدس بنفس لحظات إعطاء الذات العذري الذائبة التي تضيفها عليه التناولات الروحية التي يؤديها أحياناً عند نهاية زيارته لسر الأسرار . وكان الكتاب الذي يستعمله في مثل هذه الزيارات كتاباً قديماً مهملًا كتبه القديس « ألفونسوس ليجوري » قد غاضت حروفه وجفت أوراقه واصفر لونها . وكانت قراءة صفحاته التي تختلط فيها صورة الترانيم بصلوات المتناول تبدو وكأنها تبعث أمام روحه عالماً ذابلاً من الحب المتقد والتجاوب العذري . وكان صوت خافت يبدو ملاطفاً الروح ، حاكياً لها أسماء وأجماً ، داعياً إياها للنهوض والخروج كما لو إلى حفل زفافها ، داعياً إياها أن تظلل كالعروس من على « أمانا » ومن على جبال الفهود ؛ وبدت الروح كما لو تجيب في نفس الصوت الخافت وقد أسامت نفسها : « Inter ubera mea commorabitum »^(١) .

وكانت فكرة الاستسلام هذه تمثل إغراء خطر لذهنه الآن إذ يشعر بروحه تزعجها مرة أخرى أصوات الجسد الملحة التي بدأت تهمهم له مرة أخرى خلال صلواته وتأملاته . ومنحه إدراكه بأنه يستطيع بعمل واحد منه في لحظة تفكير واحدة أن يهدم كل ما بناه شعوراً فياضاً بالقوة . وبدالكما أنه

(١) « أسلم نفسي إلى الخسوبة » .

يشعر بفيضان يتقدم في بطنه نحو قدميه العاريتين وهو ينتظر أول موجة غاشية وجلة ساكنة لتلمس جلده الموار . وحينئذ ، وعند اللحظة التي تكاد تلمسه هذه الموجة ، وعلى شفا الاستسلام الخاطيء ، يجد نفسه يقف بعيداً عن الفيضان على صخرة جافة ، وقد أنقذته لفته من إرادته أو ابتهاج مفاجيء . وحين يرى خط الفيضان الفضي يمتد ثانية في بطنه ناحية قدميه تهز روحه إثارة جديدة بالقوة والرضا حين يرى أنه لم يستسلم أو يهدم ما بناه .

وحين اجتاز فيضان الإغراء مرات عديدة بهذه الطريقة ، انزعج وأخذ يتساءل عما إذا كان الصلاح الذي رفض أن يخسره لا يستل منه شيئاً فشيئاً على هذا المنوال . وأظلم وضح يقين حصانته وتبع ذلك الإظلام خوف غامض بأن روحه قد سقطت دون أن يشعر . واستعاد ثانية بصعوبة كبيرة وعيه القديم بحالة صلاحه وذلك بأن قال لنفسه أنه قد صلى لله عند كل إغراء وأن الصلاح الذي صلى من أجله لا بد أن يُمنح له بما أن الله مضطر إلى إعطائه إياه . وأظهر له ترداد الإغراء وعنفه الأخير حقيقة ما سمعه عن اختبار القديسين . كانت الإغراءات المتكررة العنيفة برهاناً على أن قلعة الروح لم تسقط وأن الشيطان ينتابه الهيجان حتى يسقطها .

وحين كان يعترف بشكوكه وهو واجسه ، كالحظسة شرود عند الصلاة أو حركة غضب يسيرة في روحه أو عناد في القول أو العمل - كان القسيس يدعو إلى ذكر إحدى خطاياها التي ارتكبها في ماضي حياته قبل أن يمنحه الإبراء . وكان يذكرها في إذلال وخجل ويتوب عنها مرة أخرى . وكان تفكيره بأنه لن يتحرر منها كليةً مهما عاش وابتهل ومهما اكتسب من فضائل وكال يملؤه بالذل والخجل . كان إحساس قلق بالذنب حاضراً معه دائماً ، فعليه أن يعترف ويتوب ويبرأ ، ويعترف ويتوب مرة أخرى ثم يبرأ مرة أخرى ، دون نتيجة . ألا يكون الاعتراف الأول المتعجل الذي انتزع منه تحت ضغط الخوف من الجحيم غير كاف ؟ هل أعماه اهتمامه بهلاكه الوشيك حتى أنه لم يكن

مخلصاً في توبته عن خطاياهم ؟ ولكنه كان يعرف أن العلامة الأكيدة على صلاح اعترافه وعلى إخلاصه في توبته عن خطاياهم هي التحسن الذي طرأ على حياته .
وسأل نفسه .

- لقد حسنت حياتي ، أليس كذلك ؟

* * *

وقف المدير القس في كوة النافذة وقد أعطى ظهره للنيران ، وارتكز يساعده على الستارة اللولبية البنية . وبينما كان يبتسم ويعقد حبل الستارة الأخرى ويهزه يمنة ويسرة ، كان ستيفن يقف أمامه يتابع بعينيه ضوء النهار الصيفي الطويل إذ يهين على الأسطح أو يرقب حركات الأصابع القسسية الماهرة البطيئة . كان وجه القس كله يغطيه الظل ، غير أن ضوء النهار الواهن كان يتسلل من الخلف ويمس أصداع رأسه ذات التشققات والانثناءات العميقة . وأنصت ستيفن كذلك بأذنيه إلى لهجات صوت القس وفواصله حين كان يتحدث في وقار وود في موضوعات متفرقة ، عن العطلة التي انتهت لتوها ، ومدارس الطائفة في الخارج ، وتنقلات المدرسين . واستمر الصوت الوقور الودي يواصل قصته في سهولة . وكان ستيفن يجد نفسه في فترات الصمت مدعواً إلى تجديد الحديث بأسئلة يلقيها في احترام . كان يدري أن القصة ما هي إلا مقدمة ، وانتظر عقله ما وراها . ومنذ وصلته الرسالة التي تدعوه إلى المدير وعقله يجاهد في سبيل معرفة معناها . وفي الفترة الطويلة القلقة التي جلس فيها في بهو المدرسة ينتظر دخول المدير كانت عيناه تتجولان من صورة وقورة إلى صورة وقورة أخرى حول الجدران وعقله ينتقل من حدس إلى حدس آخر حتى اتضحت له معنى هذه الدعوة أو كادت . وحينئذ ، وبينما كان يتمنى أن يعوق أي شيء خفي المدير عن الحضور ، سمع دورة مقبض الباب وهففة الثوب الكهنوتي .

وكان المدير قد شرع في الحديث عن طائفتي «الدومينيكان» و«الفرنسيسكان»

والصداقة بين القديس « توماس » والقديس « بوناقتير » . وكان يقول انه يعتقد أن الرداء الكهنوتي « الكابوتشيني »

ورد وجه ستيفن ابنسامة القس العظوفة ، ورسم علامة مبهمة خفية على شفتيه إذ لم يكن متلهفاً على التعبير عن رأيه .

وواصل المدير حديثه : أعتقد أن هناك الآن بعض الآراء بين « الكابوتشين » ذاتهم تنادي بإلغاء هذا الرداء وإتباع مثال الآخرين من الفرنسيين .

فقال ستيفن : أعتقد أنهم سيحتفظون به داخل الأديرة .
فقال المدير : آه طبعاً ، فهو ملائم للدير ، ولكن أعتقد أنه يستحسن إلغاؤه بالنسبة للطرفقات ، ألا ترى ذلك .

— أعتقد أنه مزعج .

— بالطبع هو كذلك ، بالطبع . تصور أنني حين كنت في بلجيكا كنت أراهم يتجولون في كل الأجواء بهذا الرداء الذي يرتفع فوق ركبهم ، ما أشد ما كان ذلك مضحكاً ! يسمونهم في بلجيكا « بالفساتين » .

— ماذا يسمونهم ؟

— الفساتين .

— آه !

وابتسم ستيفن مرة أخرى رداً على ابتسامته لم يكن يستطيع رؤيتها على وجه القس المغطى بالظلال ولا تمر سوى صورته أو طيفه بسرعة عبر ذهنه حين تسقط اللهجة الحفيضة الدمنة في أذنيه . وحلق في هدوء أمامه ، إلى السماء الواهنة ، وقد أسعدته برودة المساء والوهج الأصفر الواهي الذي يخفي مسحة التوهج الذي يتقد على وجنتيه .

كان ذكر أسماء الأدوات والملابس التي تستعملها النساء أو المواد الرقيقة التي يستخدمونها في الماكياج يبعث في ذهنه دائماً عطرأ رقيقاً خاطئاً . وكان يتصور في طفولته أعنة الجياد أثناء جريها خيوطاً حريرية رقيقة ، وصدم حين لمس في

« ستراد بروك » جلد اعنة الجياد الدهنية . وصدف أيضاً حين لمس لأول مرة تحت أصابعه المرتجفة نسيج الجورب النسائي الهش ، فهو لم يحتفظ في نفسه مما قرأه إلا بما يبدو له فيه صدق أو نبوءة لحالته التي كان فيها، فلم يجرؤ على التفكير في روج المرأة أو جسدها وهو يموج بالحياة الرقيقة إلا وسط العبارات ذات الكلمات الرقيقة أو في مواد لها رقة الورود .

ولكن العبارة التي قالها القس كانت خادعة لأنه يعرف أن القس لا يمكن أن يتحدث في هذا الموضوع في خفة . وقد نطق العبارة في خفة عن قصد ، وشعر بوجهه تتفحصه هاتان العينان من وراء الظلال . وأزاح جانباً كل ما كان قد سمعه أو قرأه عن مهنة الجزويت في صراحة لأنه ليس ناتجاً عن تجربته المباشرة . وحتى حين لم يكن يرتاح إلى بعض مدرسيه، كانوا يبدون له دائماً قسماً أذكياً جادين ، وعريفيين رياضيين ذوي روح عالية . كان يفكر فيهم كرجال يغسلون أجسامهم في نشاط بالماء البارد ويرتدون الكتان النظيف البارد . ولم يتلق عقاباً منهم خلال كل السنوات التي عاشها بينهم في كلونجوز وبلفدير سوى ضربتين بالعصا ؛ ورغم أنه نالهما ظملاً فقد كان يعرف أنه كان غالباً يفلت من العقاب . ولم يسمع طوال هذه السنوات كلمة جافة من مدرسيه ، وكانوا هم الذين علموه العقيدة المسيحية وحثوه على انتهاج حياة صالحة . وكانوا هم الذين أعادوه إلى الصلاح حين سقط في أحضان الخطيئة المقيتة . كان وجودهم هو الذي أحاله وجلاً من نفسه حين كان غراً في « كلونجوز » ، وأحاله وجلاً من نفسه أيضاً حين كان في موقفه المبهم في « بلفدير » . وقد لازمه الإحساس بهذا حتى آخر عام له في المدرسة ، فلم يعص الأوامر أو يسمح مرة الرفاق الأشقياء بإغرائه بالخروج عن عاداته في الطاعة الهادئة ؛ وحتى حين كان يشك في عبارة من عبارات المدرس ، لم يكن يمض إلى حد إعلان شكوكه . وكانت بعض أحكامهم تبدو صبيانية في أذنيه في الأيام الأخيرة ، وجعلته يشعر بالأسف والشفقة كأنما هو يخرج في بطن من عالم مألوف يسمع لفته لآخر مرة في حياته . وحين التفت

جمع من الصبية يوماً من الأيام حول قس تحت الظل بالقرب من كنيسة المدرسة ،
سمع القس يقول :

– أعتقد أن اللورد « ما كولي » ربما لم يرتكب أي خطيئة كبرى في حياته ،
أعني خطيئة كبرى مقصودة .

وحينئذ سأل بعض الصبية القس عما إذا كان « فكتور هوجو » هو أعظم
كاتب فرنسي ، فرد القس بأن فكتور هوجو حين تحول ضد الكنيسة لم يكتب
بنصف الجودة التي كان يكتب بها حين كان كاثوليكياً .

وأضاف القس : « ولكن هناك كثيراً من النقاد الفرنسيين العظام يعتقدون
أن « فيكتور هوجو » بكل عظمته المؤكدة لم يكن يمتلك ناصية أسلوب فرنسي
رصين مثل « لويس فيليو » .

وانحسرت الشعلة الصغيرة التي أوقدتها إشارة القس على وجنتي ستيفن ثانية ،
وكانت عيناه ما تزالان مثبتتين في هدوء على السماء التي لا لون لها . ولكنه شكاً
قلقاً تطاير هنا وهناك أمام عقله . ومرت ذكريات مقنعة مسرعة أمامه : وتعرف
على مناظر وشخوص ، ولكنه كان يشعر بأنه قد فشل في إدراك أي ظرف
حيوي فيها . ورأى نفسه يسير حول الملاعب يراقب الألعاب الرياضية في
كلونجوز ويأكل حلوى الربسوس من قبعة ملابس الكريكت . وكان بعض
الجزويث يسرون حول إفريز الفناء برفقة سيدات . وترددت أصداء تعبيرات
معينة كانت تستخدم في كلونجوز في كهوف قصية من ذهنه .

وكانت أذناه تصغيان إلى هذه الأصداء القصية وسط سكون الردهة حين
انتبه إلى أن القس يخاطبه في لهجة مختلفة .

– لقد أرسلت في طلبك اليوم يا ستيفن لأحدثك في موضوع جد هام .

– أجل يا سيدي .

– ألم تشعر يوماً أن لك مهنة .

وفتح ستيفن شفتيه ليقول لأجل ولكنه كتم الكلمة فجأة ، وانتظر القس

الجواب ثم أضاف :

– أعني ألم تشعر في داخلك ، في روحك ، برغبة في الانضمام إلى الطائفة ؟ فكر .

فقال ستيفن : لقد فكرت في ذلك أحياناً .

وترك القس حبل الستارة يسقط على أحد الجانبين ، وشبك يديه وأحنى ذقنه في رزانة عليها وهو يتحدث مع نفسه .

وقال أخيراً : – غالباً ما يوجد في مدرسة كهذه صبي أو ربما صبيان أو ثلاثة يدعوهم الله للحياة الدينية . ويكون مثل هذا الصبي مميّزاً عن زملائه بتقواه وبالقدوة الصالحة التي يضرها للآخرين . وهم ينظرون إليه في احترام ، وربما يختاره زملاؤه في الجمعية عريفاً لهم . وأنت يا ستيفن كنت هذا الصبي في هذه المدرسة ، عريفاً لجمعية سيدتنا المقدسة . ربما كنت صبي هذه المدرسة الذي يعترم الله أن يدعو إليه .

وأسرعت نغمة زهو قوية تدعها رزانة صوت القس من دقائق قلب ستيفن استجابة لتلك الكلمات .

وقال القس : إن استلام مثل هذه الدعوة يا ستيفن هو أعظم شرف يمكن أن يهبه العلي القدير لإنسان ، إذ ليس للملك أو الإمبراطور في هذه الدنيا قوة تماثل قوة قس الله . وليس للملائكة أو كبير الملائكة في السماء ولا للقديسين ولا العذراء المباركة نفسها القوة التي لقس الله : قوة الفتح ، قوة الفعل في الخطيئة أو الإبراء منها ، قوة الرقية ، قوة طرد الأرواح الشريرة من بين مخلوقات الله التي تتسلط عليها ، القوة والسلطة التي تجعل إله السماء العظيم يهبط أمام المذبح ليناول الخبز والنبيد . يا لها من قوة مخيفة يا ستيفن ! » .

وأخذت شعلة أخرى تتقد ثانية على وجنتي ستيفن حين سمع في هذا الخطاب الزهو صدى أفكاره المتعالية . كم مرة شاهد نفسه قساً يستخدم القوة الخفية التي يقف لها الملائكة والقديسون في احترام ! لقد أحببت روحه

أن تتأمل هذه الرغبة في خفية . لقد رأى نفسه ، قساً شاباً صموتاً ، يدخل مكان الاعتراف ، في خفة ، ويصعد درجات الهيكل ، يطلق البخور ، يحثو ، يؤدي طقوس القسس الغامضة التي تملؤه بالسرور بسبب مشابقتها للواقع وبعدها عنه في نفس الوقت . كان يخلع على نفسه في هذه الحياة المعتمة التي عاشها في تأملاته الأصوات والحركات التي لاحظها في عدد من القسس ، لقد أحنى ركبتيه مثلما يفعل واحد منهم ، وهز المجرمة في خفة مثل آخر ، وفتح رداءه الكهنوتي مثل ثالث إذ هو يلتفت إلى المذبح مرة أخرى بعد أن بارك الحاضرين . وقد أهبجه فوق كل شيء أن يتخذ مركزاً ثانوياً في هذه المناظر المعتمة في خيالاته ، فقد كان يخشى هيبية مركز الواعظ الرئيسي لأنه كان يزعجه تصور أن تنتهي كل هذه العظمة الغامضة بشخصه هو أو أن يعهد إليه الطقس الديني بمثل هذه الوظيفة الواضحة النهائية . وكان يتوق إلى الوظائف المقدسة الثانية ، أن يشتمل في صدارة مساعد الشماس عند القداس ، وأن يقف على مبعدة من المذبح وينسأه الحاضرون ، مغطى الكتفين بنقاب يحمل طبق العشاء الرباني بين طياته ، أو يقف حين ينجز القربان شماس في ثوب دلماشي^(١) على الدرجة التي تلي الواعظ ويدها متشابكتان ووجهه متجه نحو الحاضرين وهو يغني نشيد *Ite messa est*^(٢) . ولو أنه تصور نفسه واعظاً مرة يكون ذلك على هيئة الصور التي لديه في كتاب القداس للأطفال ؛ في كنيسة خلعت من المصلين إلا من ملاك القربان ، أمام مذبح عار ، ويقوم عليها قندلفت لا يكاد يكبره في السن . وظهر أن إرادته لا تميل إلى الخروج لملاقات الحقيقة إلا في أعمال قربانية غامضة أو مقدسة ، وكان غياب فريضة معلومة له يجبره أن يكون سلبياً نوعاً ما في عمله ، سواء إذا كان يسمح بالصمت أن يغطي غضبه أو زهوه أو حتى حين يعاني من قمع قبله كان يشناق إلى منحها .

(١) من « دلماشيا » أو منسوباً إليها .

(٢) كنت مرسل .

وأنصت الآن في سكون مبجل إلى نداء التمس ، وأنصت كذلك في وضوح أكثر عن طريق الكلمات التي سمعها إلى صوت يطلب منه الاقتراب ويقدم له المعرفة السرية والقوة السرية . سيعرف آنذاك ماذا كانت خطيئة « سيمون ماجوس » والخطيئة في حق الروح القدس التي لا غفران لها . سيعرف الأشياء الغامضة التي تخفى عن الآخرين ، عن أولئك الذين تحمل بهم أمهاتهم ويلدنهم أطفالاً في هذه الدنيا . سيعرف الخطايا ، لهفات الآخرين الخاطئة وأفكارهم الخاطئة وأفعالهم الخاطئة ، يمسونها إليه في الاعتراف تحت عار الكنيسة المظلمة ، تهمسها إليه شفاه نسوة وفتيات ، ولكنه يكون محصناً عن طريق رسامته كأنها برقع الأيدي ، ثم تعبر روحه ثانية نقية إلى هدوء المذبح الصافي . لن تبقى لمسة خطيئة على يديه حين يرفع القربان ويقطمه ، لن تبقى لمسة خطيئة على شفثيه إبان الصلاة لكي تؤكله وتشربه لعنة روحه حين لا يميز جسد الله . سوف يمسك معرفته السرية وقوته السرية ويصبح بريئاً بلا خطايا ، وسيكون قساً إلى الأبد حسب تعاليم « ملشيسديك » .

قال المدير : سوف أخصص قداسي صباح غد لأجل أن يكشف الله القدير لك إرادته المقدسة . وعليك أنت يا ستيفن أن تؤدي تاسوعاً^(١) لقديسك الحامي المقدس ، الشهيد الأول المقرب إلى الله ، حتى ينير الله عقلك . ولكن عليك أن تكون متأكداً جداً أنك تصلح لهذه الرسالة يا ستيفن ، لأنه إذا تبين لك بعد ذلك أنها ليست لك فسوف يكون الأمر فظيماً . تذكر أنك متى أصبحت قساً فستبقى كذلك إلى الأبد . أنت تعلم من دروس الوعظ أن تناول السيامة^(٢) المقدسة لا يمكن أن يتم سوى مرة واحدة لأنه يطبع على الروح علامته الروحية التي لا تبديد والتي لا يمكن أن تغنى . لا بد أن تفكر جيداً

(١) عبادة تستمر تسعة أيام .

(٢) رسم الشخص قساً .

قبل ذلك وليس بعده . إنها مسألة خطيرة يا ستيفن لأنه يعتمد عليها خلاص روحك الخالدة ، ولكننا سنصلي معاً » .

وأمسك بباب الردهة الثقيل يفتحه ومد يده كأنما يدها إلى زميل في الحياة الروحية فعلاً . وخرج ستيفن إلى المشى العريض بعد الدرج وأحس بنسيات هواء المساء اللطيف . وكان أربعة من الشبان يغذون الخطى نحو كنيسة «فندلتير» وأذرعهم متشابكة ، ويهزون رؤوسهم ويخطون على أنفاس صفارة قائدهم الرشيق . وعبرت الموسيقى في لحظة مثلما تفعل الألمان الأولى المفاجئة دائماً إلى أنسجة عقله الخرافي مزينة بإهاها دون عناء ودون ضجة كما تذيب الموجة المفاجئة أبراج الرمل التي يبنيها الأطفال على الشاطئ . وابتسم للهواء العليل ورفع عينيه إلى وجه القس ورأى فيه انعكاساً كثيباً لليوم المنصرم ، فجذب في بطنه يده التي ارتضت وهنا هذه الزمالة .

وإذ كان يهبط السلم كان الأثر الذي محا محاورته الذاتية التعبه قناعاً كثيباً يعكس يوماً ينحسر من عتبة المدرسة . وحينئذ عبرت ظلال حياته في المدرسة على وعيه في رزانة . كانت حياة رزينة منظمة لا عاطفة فيها في انتظاره ، حياة تخلو من المشاغل المادية .

وتساءل كيف سيمضي أول ليلة له في الرهينة ، وبأي ضيق سيصحو في أول صباح في عنبر النوم . وعادت إليه الرائحة السمجة للممرات الطويلة في كلونجوز وسمع خفق المصابيح الغازية المشتعلة الرصين . وأخذ القلق يشع على الفور من كل ناحية من نواحي وجوده . وتبع ذلك سرعة حامية لنبضه ، وأحبال رنين كلمات لا معنى لها أفكاره المنتظمة شذر منذر . وتمددت رثائه ثم غارتا كأنما يتنفس هواء رطباً دافئاً لا يحتمل ، وعادت إلى أنفاسه رائحة الهواء الرطب الدافئ الذي يحوم على الحمام في كلونجوز فوق المياه الخاملة المخضرة اللون .

وبعثت هذه الذكريات في نفسه فطرة أقوى من التعليم أو من الدين .

واضطرمت بداخله عند كل دنو من هذه الحياة فطرة دقيقة معادية سلحته ضد الموافقة . لقد صدته برودة هذه الحياة ونظامها . ورأى نفسه ينهض في برودة الصباح ويصطف مع الآخرين لحضور القداس الباكر ويحاول عبثاً استخراج صلواته مقاوماً غثيان معدته . ورأى نفسه يجلس مع جماعة المدرسة على الغداء . ماذا تبقى إذن من خجله العميق الغور الذي يجعله يكره الأكل أو الشرب تحت سقف غريب ؟ ماذا تبقى من كبرياء روحه الذي جعله يتصور نفسه مخلوقاً مختلفاً في كل شيء ؟

ستيفن ديدالوس المحترم ، ج. ي (١) .

قفز اسمه في هذه الحياة بحروفه أمام عينيه ، وتبع الاسم . إحساس عقلي بوجه غير محدد السمات أو بالأحرى لون وجه . وغاض اللون ثم قوي ، مثل الوهج المتغير لقالب القرميد الشاحب . أهدا هو الوهج الأحمر الحام الذي طالما رآه على أفواه القسس الحليقة في أيام الشتاء ؟ كان الوجه بلا عينين ، به نزعة إلى الغلظة والورع ، مضطرباً باللون الوردى الناتج عن غضب مكبوت . ألم يكن هذا طيفاً عقلياً لوجه واحد من الجزويت دغاه الصبية « لانترن جوز » ودعاه آخرون « فوكسي كامبل » ؟

كان يمر في هذه اللحظة أمام مبنى الجزويت في شارع « جاردنر » وتساءل في إبهام أين يا ترى ستكون نافذته فيه إذا التحق بالطائفة . ثم تعجب من إبهام تساؤله ، من بعد روحه عما تصور حتى الآن أنه ملاذها ، عن القبضة الواهية التي تؤثر بها عليه كثير من سنوات النظام والطاعة إذا برز له فعل محدد لا ينفك يهدد حرите إلى الأبد في الزمان وفي الخلود . وتردد في ذاكرته في كسل صوت المدير يغريه بفخر الهدف الكنسي وسر المنصب القسسي وقوته . ولم تكن روحه هناك لتسمع ذلك وترحب به ، وعرف الآن أن الترغيب الذي أنصت إليه قد

(١) اختصار « جمعية يسوع » .

انكشف فعلاً إلى حكاية شكلية عديمة الجدوى . لن يدير الحجرة أمام المذبح متقلداً وظيفة القس أبداً . سيكون نصيبه أن يجتنب أي أنظمة اجتماعية أو دينية . ولم تؤثر فيه حكمة المنصب القسسي أي تأثير ؛ كان مقدرأله أن يتعلم حكمته الخاصة بعيداً عن الآخرين أو يتعلم حكمة الآخرين بنفسه وهو يتجول بين شِراك الدنيا .

وشِراك الدنيا هي طرق خطاياها . سوف يسقط . إنه لم يسقط بعد ولكنه سيسقط في صمت ، في لحظة واحدة . عدم السقوط صعب جداً ، صعب جداً . وشعر بالعترة الصامتة لروحه وهي تسقط ، تسقط ، كما سيحدث في لحظة قادمة ، ولكنه لم يسقط بعد ، ما زال غير ساقط ، ولكنه على وشك السقوط .

وعبر الجسر المقام فوق جدول « تولكا » وأجال عينيه لحظة في برود نحو قبر العذراء المباركة الأزرق الباهت الذي يقوم كالطائر على ركيزة في منتصف معسكر لأكواخ الفقراء يتخذ شكل فخذ خنزير . ثم انعطفت ناحية اليسار وسار في الحارة التي تؤدي إلى منزله . وهبت عليه عفونة القرنبيط المتعفن الحريفة من بساتين الخضروات من الأرض المرتفعة على البحر . وابتسم إذ جال بخاطره أن هذه الفوضى ، هذا السوء وهذا الارتباك الذي يسود منزل والده ، وتعفن الخضروات ، هي التي ستربح هذا اليوم في روجه . ثم انطلقت من بين شفتيه ضحكة قصيرة حين تذكر صبي الزراعة الوحيد في بساتين الخضروات التي تقع خلف منزلهم ، ذلك الذي لقبوه « بالرجل ذي القبعة » . وانطلقت ضحكة ثانية من الضحكة الأولى بعد صمت قصير . انطلقت منه دون طواعية حين فكر كيف كان الرجل ذو القبعة يعمل ، إذ كان يُقدّر جوانب السماء وزواياها الأربع على التوالي ثم يدفع بمنجله إلى الأرض في أسف .

وفتح باب الردهة وعبر الصالة الخالية إلى المطبخ . كان فريق من إخوته وأخواته يجلسون حول المائدة . كان تناول الشاي قد انتهى تقريباً ، ولم يبق

سوى آخر الشاي الثاني الذي أضيف إليه الماء في قاع الجرار وبرطمانات المربي الزجاجية الصغيرة التي يستخدمونها كفناجين للشاي . وانتثر على المائدة فتات خبز سكري استحالت بنية اللون بفعل الشاي الذي صب عليها . واستقرت دوائر شاي صغيرة هنا وهناك على سطح المائدة ، وكانت سكين ذات مقبض عاجي مكسور مفروسة في قرار فطيرة قد نُهبت .

وانبعث وهج النهار المحتضر الحزين الهاديء الأزرق خلال النافذة والباب المفتوح ليغطي ويخفف في هدوء من فطرة مفاجئة من تأنيب الضمير في قلب ستيفن . كل ما حرموه أعطى له دون حساب باعتباره أكبرهم ، ولكن وهج المساء الهاديء لم يُبد له في وجوههم أي ضعينة .

وجلس بالقرب منهم إلى المائدة ، وسأل أين والدته والدة . وأجابته واحد منهم :

— ذهبوا يا للبحث يا عن يا منزل يا ... » .

انتقال آخر ! كثيراً ما سأله صبي اسمه « فالون » في بلفدير وهو يضحك ضحكة لماذا يغيرون مسكنهم كثيراً .

وأظلم جبينه بعبوس الاحتقار إذ هو يسمع ثانية ضحكة السائل السخيفة . وسأل أخاه :

— لماذا سننتقل ثانية إن كان لي أن أسأل هذا ؟

— لأن يا صاحب يا المنزل يا سيطردها يا خارجاً يا ...

وبدأ صوت أخيه الأصغر يعني ألحان « دائماً في الليل » من الطرف القصي للمدفأة . واشترك الآخرون في اللحن واحداً بعد آخر ، حتى تكون منهم « كورس » أصوات للغناء . سينغنون هكذا ساعات طوالاً ، لحناً وراء آخر ، نشيداً وراء نشيد ، حتى يموت آخر ضوء شاحب في الأفق ، حتى تأتي سحائب الليل الأولى السوداء ويسدل الليل ستاره .

وانتظر لحظات ، منصتاً ، قبل أن يشترك معهم في اللحن . كان يصغي

وروحه تتألم إلى نعمة العناء خلف أصواتهم الهشة الغضة البريئة ، يبدو عليهم العناء الفعلي من هذا الطريق حتى قبل أن يبدأوا رحلة الحياة .

وسمع كورس الأصوات في المطبخ يتردد ويتضاعف خلال ترجيعات لا نهاية لها لكورس أجيال لا نهاية لها من الأطفال ، وسمع في جميع هذه الترددات ترديداً لنعمة العناء والألم المتعاودة . بدا العناء من الحياة على الجميع حتى قبل أن يدخلوا إليها . وتذكر أن نيومان قد ميز هذه النعمة أيضاً في شذرات من سطور لفيرجيل تقول «تعب عن هذا الألم وهذا العناء مثل صوت الطبيعة نفسها» ولكن فيها كذلك الأمل في أشياء أفضل ؛ وهذا ما كان يجربه أطفالها في كل زمان » .

●
لم يستطع الانتظار أكثر من ذلك .

من باب مقهى بايرون إلى بوابة كنيسة كلونتارف ، ومن بوابة كنيسة كلونتارف إلى باب مقهى بايرون ثم العودة إلى الكنيسة فالرجوع ثانية إلى المقهى . ذرع الطريق في بطن في البداية ، غارساً خطواته في دقة في ثنايا مربعات الطريق ، ثم ضبط وقعها على وقع بعض الأشعار . مضت ساعة كاملة منذ ذهب والده مع « دان كروسباي » المعلم ليجثا له شيئاً خاصاً بالجامعة . وذرع المكان ساعة لاملة ، هنا وهناك ، منتظراً ، ولكنه لم يستطع الانتظار أكثر من ذلك .

وانطلق بفتة نحو منطقة « بول » ، يسير بسرعة لثلاث أرجعه صفارة حادة من والده . وفي لحظات قليلة كان قد عبر المنحنى عند ثكنات البوليس وأصبح في منجى .

أجل ، لقد عارضت أمه الفكرة ، كما استنتج من صمتها العزوف . ورغم ذلك فقد وخزته شكوكها بجدة أكثر من زهو والده ؛ وفكر في برود كيف أنه رأى الإيمان الذي كان يخبو في روحه يضطرم ويقوى في عينها . وتجمعت

قوى العداء المعتمة في داخله وأظلمت عقله تجاه عدم طاعتها مثلما تفعل السحب؛
وحين عبرت عبور السحابة ، مخلقة عقله هادئاً مطيعاً إياها ثانية ، شعر باول
انشقاق هادىء في حياتها بإبهام وبدون أسف .

الجامعة ! إذن لقد عبر بعيداً عن تحديات الحراس الذين وقفوا له كقوامين
على طفولته وحاولوا إبقاءه بينهم حتى يكون تابعاً لهم يحقق غاياتهم . ورفعته
الزهو بعدما رفعه الرضى مثل الموجات الطويلة البطيئة . قادته العناية ، التي
خلق من أجلها ومع ذلك لم يرها ، إلى الفرار عن طريق خفي ؛ وتشير له الآن
مرة أخرى وما هي مغامرة جديدة على وشك أن تنفتح أمامه . وبداله كأنه
يستمتع إلى ألحان موسيقى متشنجة تقفز إلى أعلى اللحن ثم تنخفض مقتصرة على
نغمة خفيفة ، ثم تملو إلى لحن كامل وتنخفض إلى ثلث رئيسي ، مثل اللهب
ذي الفروع الثلاثة ، تقفز في تشنج ، هب وراء هب ، خارج غابة مظلمة . كانت
مقدمة موسيقى شيطانية ، لا نهاية لها ولا شكل . وإذا كانت تزداد وحشية
وسرعة ، ويقفز اللهب خارج حدود الزمان ، بدا كأنه يسمع من تحت الأغصان
والحشائش أصوات مخلوقات وحشية تتسابق ، وتنقر أقدامها الأرض كصوت
المطر على أوراق الشجر . وداست أقدامها على عقله في صخب مدمدم ، أقدام
فرائس وأرانب ، أقدام أيول ذكور وأيول أنثى وظباء ، حتى لم يعد يسمعها
بعد ذلك ، ولم يعد يتذكر سوى إيقاع مزهو لسطور من « نيومان » :

— « من أقدامه كمثل أقدام أنثى الأيل ، ولكن تكمن تحتها الأسلحة
الخالدة » .

وأعدت كبرياء تلك الصورة المعتمة إلى ذهنه هيبة المنصب الذي رفضه .
لقد تأمل طويلاً خلال فترة طفولته كلها فيما اعتبره غاية حياته ، وحين حانت
اللحظة التي يجب عليه فيها أن يجيب النداء ، تحول جانباً وراء فترة ملتوية .
ولقد فات الوقت الآن : لن يمسح زيت الترسيم جسده أبداً . لقد رفض .
لماذا ؟

وتحول ناحية البحر عن طريق « دوللي ماونت » . وحين وصل إلى الجسر الخشبي الرفيع شعر بالواحه تهتز بوقع أقدام أحذية ثقيلة . كانت شرذمة من القسس المسيحيين في طريق عودتها من منطقة « بول » وبدأت تعبر الجسر مثنى مثنى . وعلى الفور أخذ الجسر يهتز ويصلصل وعبرت به الوجوه الغليظة مثنى مثنى وقد لطخها البحر بالألوان الصفراء أو الحمراء أو الزرقاء الداكنة . وإذا كان يجاهد أن ينظر إليهم براحة ولا مبالاة ارتفعت إلى وجهه لطخة عار وشفقة شخصيين . وحاول وقد غضب من نفسه أن يخفي وجهه عن عيونهم بالتطلع جانباً إلى المياه الضحلة الدوارة تحت الجسر ، ولكنه رأى هناك أيضاً انعكاس قبعاتهم الحريرية المثقلة الطرف وياقاتهم المتواضعة التي تشابه الشريط وملابسهم الكنسية التي تفيض على أجسادهم .

– الأخ هيكي

الأخ كايد

الأخ ماك آر دل .

الأخ كيوج .

ستكون تقواهم مثل أسمائهم ، مثل وجوههم ، مثل ملابسهم . وكان باطلاً منه أن يخبر نفسه أنه قد يكون في قلوبهم المتواضعة الخاشعة من ثراء التدين أكثر مما كان له في يوم من الأيام ، وهي هبة مقبولة مائة مرة أكثر من عباداته المنمقة . كان باطلاً منه أن يدفع نفسه أن يكون كريماً معهم ، أو أن يقنع نفسه أنه لو أتى إلى أبوابهم عارياً من كبريائه ، مهاناً ، مشتملاً في أسمال الشحاذين فسوف يكونون كرماء معه ويحبونه كما يحبون أنفسهم . وأخيراً كان باطلاً ومريراً منه أن يجادل ضد يقينه الفاتر بأن الدين لم يأمرنا أن نحب جارنا كما نحب أنفسنا بنفس مقدار الحب وحدته ، بل بأن نحبه كأنفسنا بنفس النوع .

واستخرج عبارة من كنوز ذكرياته ورددتها لنفسه في رفق .

– يوم سحب بحرية رقطاع .

واتسقت العبارة واليوم والمشهد مؤتلفة بعضها مع بعض . مجرد كلمات .

أهي ألوانها ما تسبب الاتساق؟ وسمح لها بالتوهج ثم الانطفاء، لونها وراء لون: الشروق ذهبي، بساتين التفاح صفراء، وخضراء، الأمواج زرقاء، ندف السحب سنجابية الوشي. كلا، ليست هذه ألوانها، إنها توازن وإيقاع هذه العبارة نفسها. إذن، هل هو يجب ارتفاع الكلمات وانخفاضها الإيقاعي أكثر من ارتباط هذه الكلمات باصطلاحات أو ألوان؟ أو هل يكون الأمر، إذ هو يشكو ضعف الإبصار ووجل النفس، انه يستمد مسرة أقل من انعكاس العالم الحسي المتوهج عن طريق منشور لغة عديدة الألوان ثرية الطبقات عنها من التأمل في عالم داخلي من العواطف الفردية التي تنعكس في كمال في عبارات نثرية هادئة مرنة.

وعبر الجسر المهتز إلى الأرض الثابتة ثانية. وبدا له في تلك اللحظة أن الهواء قد برد، وحين نظر بطرف عينه إلى المياه رأى عصفاً طائراً يُظلم المد ويموجه فجأة. ومرة أخرى أظهرت له دقة واهنة في قلبه وخفقة واهنة في حلقه كيف يخشى جسده رائحة البحر الباردة تحت الإنسانية، ولم ينعطف مع ذلك إلى المروج التي تقع على يساره بل واصل سيره إلى الأمام على طول سلسلة الصخور التي قامت في مواجهة فوهة البحر.

وأضاء شعاع باهت من الشمس صفحة المياه الداكنة حيث ينحصر البحر في الخليج. وعلى البعد، على طول مجرى بحر «لايفي» البطيء السريان، ملأت السماء تنف رقيقة من السحاب؛ وأبعد من ذلك، كان نسيج المدينة المعتم يرقد منكباً في اغبرار. وكمثل منظر مرسوم على قماش ثمين غامض، وقديم قدم متاعب البشر، بدت لناظريه صورة مدينة المسيحية السابعة عبر الهواء غير المحدود، غير قديمة ولا تعبة ولا أقل اصطباراً على العبودية أكثر مما كانت في أيام البرلمان الإسكندينا في الأول.

ورفع عينيه وقد فترت همته ناحية السحب البطيئة السريان البحرية. كانت ترحل عبر فيافي السماء، جماعة من البدو يرتحلون، يضربون في أعماق أيرلندا

ووجهتهم الغرب . وترقد أوروبا التي جاءوا منها هناك وراء البحر الايرلندي ،
أوروبا ذات اللسان الغريب المليئة بالأودية ، المحاطة بالغابات ، المكتظة بالقلاع ،
ذات العناصر المحضة المحتشدة .

وسمع موسيقى مهوشة في داخله ، شبيهة بذكريات وأسماء يكاد يكون واعياً
لها ، ولكنه لم يستطع الإمساك بها ولو لحظة واحدة . ثم بدت الموسيقى وكأنما
ترتد ، ترتد ، ترتد ، ومن كل رنة مرتدة من الموسيقى السديمية كان يسقط دائماً
لحن هاتف واحد طويل الترجيع ، يخز غبشة الصمت كالنجم . ثانية ، ثانية !
ثانية ! كان الصوت ينادي من وراء الدنيا .

– هاللو ، ستيفانوس !

– ها هو ديدالوس !

– آو ... ! إه ، قلت لك توقف عن ذلك يا « دواير » وإلا سأعطيك ركلة

لم تكن تحلم بها ، ... آو !

– أيها الرجل الطيب « تاووزر » ، انفض رأسه .

– تعال يا ديدالوس ! « بوس ستيفانو مينوس ! » ، « بوس ستيفانو مينوس ! »

– انفض رأسه ، اجعله يعب الشراب الآن يا « تاووزر » .

النجدة ! النجدة ! آو !

وتعرف على حديثهم مجتمعين قبل أن يميز وجوههم . وسرت الرعدة إلى
عظامه من مجرد النظر إلى هذا الخليط من العربي المبلل . والتمعت أجسادهم
برطوبة البحر ، بيضاء كالجلث أو مخضبة بالضوء الذهبي الشاحب أو لفحتها
الشمس . وكانت الصخرة التي يستخدمونها منطاً والمقامة على عمد طبيعية وتهتز
لدى قفزاتهم وصخور المياه المناسبة المنحوتة الحشنة التي كانوا يتسلقونها في هوم
المزعج تلتمع بضياء رطب بارد . وكانت المناشف التي يحففون بها أجسادهم مثقلة
برطوبة البحر وشعرهم القاتم مبللاً بماء البحر البارد .

ووقف ساكناً إكراماً لنداءاتهم ، وتفادى هذرهم بكلمات سهلة . كم يبدوون

عديمي الشخصية ؛ « شولى » مجرداً من ياقته العريضة المفكوكة ، و « إينيس » مجرداً من حزامه القرمزي ذي المشبك الثعباتي ، و « كونولي » مجرداً من معطفه الذي جلبه « من نورفوك » ذي الجيوب الخالية من الأهداب ! كانت رؤيتهم ألماً له ، ويزيده ألماً على ألم رؤياهم وعليهم أمارات المراهقة التي جعلت من عريهم المثير للشفقة غثياناً . ربما لجأوا إلى الصحبة والصخب هرباً من الوجل الخفي في أرواحهم . وتذكر بعيداً عنهم وفي صمت الوجل الذي انتابه من لغز جسده .

— ستيفانوس ديدالوس ! بوس ستيفانو مينوس ! بوس ستيفانو نيفوروس !

لم يكن هذرم جديداً عليه ، وعمل الآن على تملق سيطرته اللطيفة المتعالية . والآن بدا له اسمه الغريب نبوءة ، كما لم يحدث من قبل . كم يبدو الهواء الدافئ الرمادي أزلياً ، ومزاجه مرناً غير شخصاني ، حتى استوت في نظره كل العصور . وأطل عليه منذ لحظة واحدة تسبح مملكة الدنرك القديمة من خلال وشاح المدينة التي يلفها الاغبرار . والآن ، وعلى ذكر اسم الصانع الخرافي ^(١) ، بدا كأنه يسمع ضجة أمواج معتمة ويرى جسماً مجنحاً يطير فوق الأمواج ويتسلق الهواء في ببطء . ماذا يعني ذلك؟ أتكون حيلة فارهة تفتح أمامه صفحة كتاب من القرون الوسطى عن النبوءات والرموز ، رجل على هيئة الصقر يطير تجاه الشمس فوق البحر ، نبوءة عن الغاية التي ولد ليخدمها والتي كان يتتبعها خلال ضبابات الطفولة والشباب ، رمز الفنان في مصنعه يعيد خلق المادة الأرضية الهزيلة ويحيلها إلى كيان جديد مخلق لا يحس ولا يفنى ؟

وارتجف فؤاده ، وتلاحقت أنفاسه ، وعبرت روح وحشية على أطرافه كأنها يخلق إلى موضع الشمس . وارتحف فؤاده في نشوة وخوف ، وغمرت

(١) يقصد النحات والمثال اليوناني « ديدالوس » الذي قالت الأساطير اليونانية انه شيد مبنى التيه للأمير الكريتي « مينوس » ثم غضب عليه الأمير فسجنه هو وابنه فيه ، فصنع ديدالوس له ولابنه أجنحة وطارا إلى صقلية .

روحه حالة استعلاء . كانت روحه تخلق في الأجواء وراء الدنيا ، وكان البدن الذي يعرفه يتطهر في زفرة ويتخلص من الشق ويتألق ويمتزج بمنصر الروح . وأحالت نشوة من الاستعلاء عينيه متألقتين وأنفاسه حادة وأطرافه التي عصفت بها الريح مرتجفة حادة .

— واحد ! اثنين ! انتبه .

آه « يا كريبس » ، إني أغرق !

— واحد ! اثنين ! ثم عند ثلاثة .

— التالي ! التالي !

— واحد ! آه .

— ستيفانيفوروس .

واحترق حلقة برغبة في الصياح عالياً ، صيحة البازي أو النسر محلقة في الجو ، صياح نفاذ يعلن انتقاله إلى الرياح . كان هذا دعوة الحياة لروحه ، مخالفاً للصوت السقيم الغليظ الذي يدعوه لعالم الواجبات واليأس ، مخالفاً للصوت غير الإنساني الذي دعاه إلى خدمة المذبح السقيمة . لقد أنقذته لحظة استعلاء وحشي ، وشقت ذهنه صيحة الفوز التي حبستها شفتاه .

— ستيفانيفوروس .

ما هذه الأشياء الآن سوى الأكفان وقد نفضها البدن الميت عن نفسه — الخوف الذي اشتمله في المساء والعشى ، الشك الذي كان يلفه من جميع نواحيه ، العار الذي جالته من فوقه ومن تحته ؛ أكفان ، ثياب القبر ؟

لقد خرجت روحه من قبر الطفولة ، وهي تنضو أكفانها . أجل ! أجل !
أجل ! سوف يخلق في فخر من حرية روحه وقوتها ، مثلما فعل الصانع العظيم الذي يحمل اسمه ، شيئاً حياً ، جديداً ، سامياً ، جميلاً ، لا يحس ، لا يفنى .

وانطلق في عصبية من عند كتل الحجارة ، فلم يكن باستطاعته أن يطفىء

النار التي تجتاح دماءه أكثر من ذلك . وشعر بجذبه ملتهبين ، وحلقه يردد أغنية . كانت شهوة السير في قدميه تدفعه إلى الانطلاق إلى أواخر الدنيا . وبدا كما لو أن قلبه يردد : سر ! سر ! ، سيتكاثف المساء فوق البحر ، ويسقط الليل على السهول ، ويلتصع الفجر أمام الهائم ويكشف لناظره حقولاً وتلالاً ووجوهاً غريبة . أين ؟

ونظر شمالاً نحو « هاوت » . كان البحر قد انحسر عن خط حشائش البحر على الجانب الضحل من المياه ، وكانت مياه المد آخذة في التزايد بسرعة على طول الشاطئ ، كما كان هناك شط بيضاوي طويل من الرمال يرقد دفيناً جافاً بين الموجات الصغيرة . وكانت تلتصع هنا وهناك جزر دفيئة من الرمال فوق المد الضحل ، بينما يخوض أشخاص أنصاف عرايا ويفوصون حول الجزر وحول السد الطويل وبين تيارات الشاطئ الضحلة .

وفي لحظات كان عاري القدمين ، وطوى جوربيه ووضعها في جيبه وعلق على كتفه حذاءه المطاطي بشريطه المعقود ، والتقط عصا مدببة أكلها الملح من مطروحات البحر من بين الصخور وهبط المنحني .

كان هناك جدول صغير في الشاطئ ، وخاض فيه ببطء ، وتمعجب من أكوام حشائش البحر التي لا تنتهي ، زمردية وسوداء وصفراء وزيتونية ، تتحرك تحت المجرى ، تترنح وتلتفت . وكانت مياه الجدول الصغير داكنة من الحشائش العديدة وتمعكس السحب المتكاثفة . كانت السحب تسبح فوقه في سكون ، وفي سكون تسبح مياه البحر تحته والهواء الرمادي الدافئ ساكن وحياة جديدة جامحة تغني في عروقه .

أين فترة صوته الآن ، أين الروح التي كانت تبتمد عن مصيرها لكي تعكف في عزلة على عار جراحها في مرقد وحلها ومهربها ، ثم يجللها في أكفان زاوية وأكاليل تذوي عند لمسها ؟ آه ، أين كان ؟

كان وحيداً ، كان خالياً ، سعيداً وقريباً من قلب الحياة الجامح . كان

وحيداً وشاباً وعينياً جامع القلب، وحيداً وسط بياب من الهواء الجامح ومياه أجاج وجني البحر من الصدف واشعة الشمس المشتبكة المحجبة الرمادية، وشخص الأولاد والبنات أنصاف العرايا المرحين وأصوات الأولاد والبنات ترتفع في الهواء .

كانت فتاة تقف أمامه في مجرى الجدول ، وحيدة ساكنة ، تحملق في البحر . بدت كما لو كانت واحدة قد أحالها السحر إلى ما يشابه طائر البحر الغريب الجميل . كانت ساقها الطويلتان اللطيفتان العاريتان رقيقتين مثل ساق الكركي ، وصافيتين إلا من خيط زمردني من حشيش البحر شكلت نفسه على هيئة العلامة فوق اللحم . وكان فخذها ، المستديرتان والناعمتا الصياغة كالعاج ، عاريتان حتى العجز تقريباً ، حيث أطراف سراويلها البيضاء تشبه ريش الطير الناعم الأبيض . وكانت تنورتها الزرقاء ملفوفة في جراحة حول وسطها ومقودة خلفها على هيئة اليمامة . وكان صدرها مثل صدر الطير ، رقيقاً نحيلاً ، نحيلاً رقيقاً كصدر يمامة داكنة الريش . غير أن شعرها الجميل الطويل كان بنوتياً ، بنوتياً ، ويلمس وجهها في عجب الجمال الآدمي .

كانت وحيدة ساكنة ، تحملق في البحر . وحين أحست وجوده وصلاة عينيه ، تحولت عينها إليه في معاناة هادئة من نظرتة دون خجل أو خلاعة . طويلاً ، عانت من عينيه طويلاً ، ثم نحتت عينها عن عينيه في هدوء وأحنتها إلى الجدول الصغير وهي تحرك المياه في رفق بقدمها هنا وهناك . وقطع الصمت ضجة المياه الخافتة وهي تتحرك في رفق ، خفيضة وخافتة وهامسة ، خافتة كأجراس النوم ، هنا وهناك ، هنا وهناك ، وارتعد وهج خافت على خديها .

وصاحت روح ستيفن في انبثاقه فرح دنيوي :

- يا إله السماوات .

وتحول عنها فجأة وحث خطاه نحو الشاطئ . كان خداه متوهجين ،

وجسده مشتعلاً ، وكانت أطرافه ترتعد . وخطا سائراً سائراً إلى الأمام على الرمال ، يغني للبحر في جموح ، يصيح مرحباً بالحياة التي نادته . لقد دخلت صورتها إلى روحه إلى الأبد ولم تحطم كلمة واحدة صمت نشوته المقدس . لقد نادته عينها وقفزت روحه للنداء . نادته ليحيا ، ليخطىء ، ليسقط ، لينتصر ، ليعيد خلق الحياة من الحياة ! لقد ظهر له ملاك جامع ، ملاك الشباب والجمال الدنيوي ، مبعوث الحياة الجميلة ، ليفتح أمامه في لحظة نشوة أبواب طرق الخطأ والمجد . سار وسار وسار وسار .

وتوقف فجأة وأنصت إلى قلبه في السكون . كم سار ؟ ما الساعة الآن ؟ لم يكن بقربه مخلوق ، ولم يحمل له الهواء أي صوت . ولكن المد كان على وشك الانحسار والنهار يحتضر . وتحول ناحية اليابسة وجرى إلى الشاطئ وارتقى المنحنى غير مبال بالحصى الحادة ، وعثر على تل رملي وسط حلقة من الروابي الخضراء وقد عليها علّ هدوء المساء وسكونه أن يهدئنا من ثورة دمائه .

وشعر بالقبة اللامبالية المريضة فوقه ومسار الأجرام السماوية الهادئة ، والأرض من تحته ، الأرض التي حملته ، قد احتضنته في صدرها . وأغلق عينيه في فتور النوم ، وارتعد جفناه كأنما أحسا بالحركة الدائرية المريضة للأرض وحراسها ، ارتعدا كأنما أحسا بضوء غريب لعالم جديد . كانت روحه تغشى في عالم جديد ، خرافي ، معتم ، متقلب ، كأنما يرقد تحت المياه ، تتخلله هيئات ومخلوقات غامضة . عالم ، أم لمعة ، أم زهرة ؟ يلتعم ويرتعد ، يرتعد ويكشف ، ضوء يتكسر ، زهرة تتفتح ، تفتحت لنفسها في تتابع لانهائي ، تفتحت في قرمزية كاملة وانتشرت ثم تقلصت إلى زهرة شاحبة ، ورقة ورقة وموجة ضوء وراء موجة ضوء ، مفرقة السماء جميعاً في تورداتها الرقيقة ، وكل تورد أشد عمقاً من سابقه . وكان المساء قد أسدل ستاره حين استيقظ ولم يعد يتوهج الرمل ولا

الحشائش القاحلة التي تؤلف مرقدته . ونهض في بطنه واستعاد سحر نومه وتنهد
من بهجته .

وصعد إلى قمة التل وتطلع من حوله : لقد انسدل المساء . وكانت حافة
القمر الشاب تشق يباب خط السماء الشاحب ، حافة طوق فضي مطمور في
الرمال الرمادية . وكان المد يرتفع على الأرض في سرعة وتهمس موجاته
همساً خفيضاً ، ويحاصر قليلاً من الشخوص الأخيرة الذين يخوضون في البرك
البعيدة .

* * *

أفرغ الكوب الثالث من الشاي الخفيف حتى الثمالة، ثم انهمك في مضغ فتات الخبز المحمر الجاف الذي كان متناثراً بجانبه ، وأخذ يخلق في بركة الإناء السوداء . كانت القطرات الصفراء تنز كالأرض الموحلة . وأعاد منظر البركة التي تكونت المياه القائمة الاخضرار في حمام كلونجوز إلى ذاكرته . وكان صندوق قسائم الرهونات عند مرفقه قد بدأ ينثلم . وتناول في كسل بأصابعه الملطخة بالدهن إشارات القسائم الزرقاء والبيضاء ورقة وراء أخرى ، مسطرةً ملوثة بالرمل ومغضنة وتحمل اسم الراهن مثل « دالي » أو « ما كيفوي » .

١ زوج من النعال .

١ معطف داكن .

٣ متنوعات وملاءات .

١ سروال رجالي .

ثم وضعها جانباً وحدث متأملاً في غطاء الصندوق المغطى بعلامات قدرة ، وسأل في غموض : كم الساعة الآن ؟

وأقامت أمه المنبه القديم الذي كان مقلوباً على أحد جانبيه في منتصف رف المدفأة حتى أبانت صفحته الساعة الثانية عشرة إلا رباعاً ثم أنامته ثانية على جنبه .

قالت : ساعة وخمس وعشرون دقيقة . الوقت الصحيح الآن هو العاشرة

والثالث . يعلم الله ان الواجب عليك أن تحاول اللحاق بمحاضراتك .
قال ستيفن : املاي لي الحوض لأستحم .
- « كاتي » ، املاي الحوض لستيفن ليستحم .
- « بودي » ، املاي الحوض لستيفن ليستحم .
- لا أستطيع ، فإني ذاهبة لشراء زهرة الغسيل . امليه أنت يا ماجي .
وحين ثُبت الحوض المطلي بالمينا قرب البالوعة وألقيت عليه فرشاة الحمام القديمة ، سمح لوالدته أن تحك رقبتها وتنظف ثنايا أذنيه وطاقتي أنفه .
قالت : إنه شيء مؤسف حين يكون طالب الجامعة على مثل هذه القدرة حتى تضطر أمه أن تنظفه .
فقال ستيفن في هدوء : ولكن هذا يبعث فيك السرور .
وانبعث صفير يخرق الآذان من الدور الأعلى ، وألقت أمه بمنشفة رطبة في يديه قائلة : جفف نفسك وأسرع بحق السماء .
ودفعت صفارة حادة أخرى أطالها الغضب بواحدة من الفتيات إلى أسفل السلم .

- أجل يا أبي ؟

- ألم يخرج أخوك الكسول الكلبة ؟

- بلى يا أبي .

- أنت متأكدة ؟

- أجل يا أبي .

- ها ؟

وعادت الفتاة وهي تشير إليه أن يسرع ويخرج في هدوء من الباب الخلفي ، وضحك ستيفن وقال :

- إن فكرته عن أجناس الكلمات غريبة إن كان يظن أن الكلبة مذكر .
فقال أمه : إنه عار مخجل لك يا ستيفن ، وسوف تعيش لتندم على اليوم

الذي وضعت قدمك في مثل هذا المكان . إني أعرف كم غيرك . فقال ستيفن وهو يبتسم ويقبل أطراف أصابعه مودعاً : سعدتم صباحاً جميعاً .

كانت الحارة خلف الشرفة غارقة في الوحل ، وحين سار فيها ببطء محاذراً الخطى وسط أكوام من النفايات المبتلة ، سمع راهبة مخبولة تصرخ في بيت الراهبات المجنونات من خلف الجدران :

— يسوع ! يا يسوع ! يلسوع !

ونفض الصوت من أذنيه بهزة غاضبة من رأسه وأسرع في سيره يتعثر بين القمامة المتراكمة وقد خز قلبه ألم الازدراء والمرارة. وتحول صغير والده وتمتات والدته وعويل المجنونة الخفية إلى أصوات جد كثيرة تسيء إلى زهو شبابه وتهدد بكسر أنفته . وطرده أصداؤها خارج قلبه وهو يلعنها . وإذا كان يسير في الطريق ويشعر بضوء الصباح الرمادي يسقط عليه من خلال الأشجار النادية ويشم الرائحة الغريبة الجائحة للأوراق ولحاء الأشجار المبتلة ، انطلقت روحه من إسار شقوتها .

وأثارت الأشجار المحملة بالمطر في الطريق في نفسه— كما تفعل دوماً — ذكريات الفتيات والنساء في ملاعب « جيرهارت هوبتمان » ، واختلطت ذكرى أحزانهن الشابة مع العبير الذي يسقط من الأفنان المبتلة في حالة من الفرح الهاديء . لقد بدأت مسيرته الصباحية عبر المدينة ، وكان يعرف سلفاً انه حين يمر على أرض « فيرفيو » الموحلة فسوف يفكر في نثر نيومان التعبدى ذي الأوردة الفضية ، وأنه حين يسير في طريق « نورث ستراند » يتطلع في كسل إلى نوافذ محلات البقالة فسوف يستعيد مرح « جيدو كافالكانتي » المكفهر وبتسم ؛ وأنه حين يمر على محلات « بيرد » لأعمال قطع الأحجار في « تالبوت بليس » ستنبثق فيه روح « إيسن » كالريح الحاد ، روح جمال صيباني عنيد ، وأنه حين يمر على محل قدر من محلات المعاملات الملاحية وراء نهر « الليفي » فسوف يردد أغنية بن

جونسون التي تقول :

لم أكن أكثر ضنى حيث أرقد

وحين يتعب ذهنه من البحث وراء جوهر الجمال وسط كلمات أرسطو أو أكويناس الطيفية كان غالباً ما يتحول إلى بهجة الأغاني الأليزابتية الحلوة . وكان ذهنه يقف دوماً في ثياب الكاهن الشاك في ظلال نوافذ هذا العصر، يستمع إلى موسيقى عازفي الفلوت الرزينة الساخرة أو ضحكة صريحة لأحد السكارى ، إلى أن تحز كبرياهه ضحكة خفيضة أو عبارة فاحشة صلفة لوثها الزمن وتدفعه إلى الخروج من برج مراقبته .

وكانت الحكمة التي يُعتقد أنه يمضي أيامه عاكفاً عليها لدرجة شغلته عن صحبة الشباب من أمثاله ليست إلا مجموعة من العبارات الرقيقة من كتاب الشعر والسيكولوجي لأرسطو و « Synopsis philosophiae Scholasticae ad mentem divi Thomae » . وكان تفكيره غبشةً من الشك والريبة في النفس ، يضيئه نور الحدس أحياناً ، ولكنه نور ذو بهاء وضاح حتى أن العالم يفنى تحت قدميه في تلك الأوقات كأنما قد التهمته النيران . وبعدها ثقل لسانه وقابل أعين الآخرين بعيون لا جواب فيها ، فقد شعر بأن روح الجمال قد طوته كالملاءة ، وأنه قد تعرف بالنبالة الحققة في أحلام اليقظة على الأقل . غير أنه حين كان زهو الصمت القصير يكف عن مساعدته يسعده أن يجد نفسه ما يزال وسط الحياة العادية ، يمر في طريقه بين قدارة المدينة وصخبها وتوانيتها دون خوف وخالي الفؤاد .

وبالقرب من سياج القنطرة صادف الرجل المصدرور ذا الوجه الذي يشبه دمي الأطفال والقبعة التي بلا حواف ، يسير نحوه تحت منحدر الجسر بخطوات قصيرة ، ومعطفه النبي مغلق عليه بإحكام ، ويمسك بمظلته المطوية أمامه شبراً أو شبرين مثل عصا الركوب . وجال في فكره أن الساعة ربما تكون الحادية عشرة ، وأطل في محل للألبان ليرى الساعة .

وأخبرته ساعة المحل أن الوقت الخامسة إلا خمس دقائق ؛ غير أنه سمع وهو يلتفت جانباً ساعة بقربه من ناحية ما ، ولكنها غير مرئية ، تدق إحدى عشرة مرة في دقة سريعة . وضحك حين سمعها فقد جعلته يفكر في « ما كان » ، وتمثله شخصاً مكتنزاً في ملابس الصيد وسراويله ، بلحية لطيفة يقف في الرياح عند منعطف هوبكنز ، وسمعه يقول :

- يا ديدالوس ، أنت شخص غير اجتماعي ، مغلولق على نفسك . إنني لست مثلك . إنني ديمقراطي وسأعمل وأجاهد من أجل الحرية والمساواة الاجتماعية بين جميع الطبقات والعناصر في الولايات المتحدة الأوروبية في المستقبل .

إحدى عشرة ! إذن فقد تأخر كذلك عن المحاضرة . أي يوم من أيام الأسبوع هذا ؟ وتوقف لدى متعهد صحف ليقراً رأس إحدى الصحف . الخميس . الحادية عشرة إلا عشر دقائق ، لغة إنجليزية ، الثانية عشرة إلا إحدى عشرة دقيقة : لغة فرنسية ، الواحدة إلا اثنتي عشرة دقيقة : طبيعة . وتمثل لنفسه محاضرة اللغة الإنجليزية وشعر وهو على هذا البعد بالقلق واليأس . ورأى رؤوس زملاء صفه ، ينحنون في دعة إذ يكتبون في كراساتهم النقاط التي يُطلب منهم أن يلاحظوها ، تعريفات اسمية ، تعريفات أساسية وأمثلة وتواريخ ميلاد أو وفاة ، الأعمال الرئيسية ، نقد تقريظي ونقد هجائي جنباً إلى جنب . ولم يكن رأسه هو محنياً معهم ، فقد جالت أفكاره خارجاً ؛ وسواء جال بناظره حول صف الطلبة الصغير أو خارج النافذة عبر حدائق المتنزه المهجورة كانت تهاجمه رائحة رطوبة المخازن الكئيبة والعفونة . وتمركز رأس آخر غير رأسه أمامه مباشرة في الصفوف الأمامية فوق رؤوس زملائه المنحنين ، وكان يشبه رأس قس يتضرع في غير ذل أمام الهيكل من أجل المصلين الخاضعين من حوله . لماذا لم يستطع أبداً حين فكر في كراني أن يتمثل أمام ذهنه صورة جسده الكاملة ، بل اقتصر على صورة رأسه ووجهه فقط ؟ بل أنه رآه أمامه الآن على ستار الصباح الرمادي مثل طيف الأحلام : وجه كالرأس المقطوع أو كقناع

الموت، يتوّجه شعره الجامد الأسود المنتصب مثل التاج الحديدي حتى حاجبيه. كان وجهه شبيهاً بوجوه القسس ، شبيهاً بوجوههم في شجوية وأنفه العريض المجنح وظلال ما تحت العينين وعلى الفكين ، شبيهاً بوجوههم في شفتيه الطويلتين الخاليتين من الدماء واللّتين تكادان تبسمان . وحين يتذكر ستيفن في خفة كيف أخبر كرانلي بكل الصخب والقلق والتلهفات التي تملأ روحه يوماً بعد يوم وليلة بعد ليلة ليحبيه صديقه بالصمت المنصت ، ليخبر نفسه أن وجهه كرانلي يشبه وجه قس مذنب يستمع إلى اعترافات من لا يملك السلطة على إبرائهم. ولكنه شعر ثانية في ذاكرته بنظرة عينيه الأنثويين .

وتمثل من خلال صورته لمحةً من كهفٍ تأملٍ عجيبٍ مظلم ، ولكنه تحول عنه على الفور وهو يشعر أن الساعة لم تحن بعد لدخوله ، ولكن لامبالاة صديقه بدت وكأنها تنفث رائحة خافتة قتالة في الهواء الذي يحوطه . ووجد نفسه ينقل البصر من كلمة عابرة إلى أخرى على يمينه أو يساره ، متعجباً في فتور من خلوها لهذه الدرجة الساكنة من الإحساس العفوي حتى أن أي يافطة محل حقير تجذب ذهنه ككلمات سحر وروحه تتقلص وتزفر من الكبر بينما هو يغذ السير في إحدى الحوارية بين أكوام اللغة الميتة . وكان إحساسه الخاص باللغة يطفو من عقله ويتسرب إلى نفس الكلمات ذاتها التي تجمع نفسها ثم تنفصل في إيقاعات ملتوية :

اللبلاب ينتحب فوق الجدار
وينتحب وينجدل على الجدار
اللبلاب الأصفر على الجدار
لبلاب ، لبلاب فوق الجدار .

هل سمع أحد مثل هذا الهذر من قبل؟ يا لله القدير! من ذا سمع عن لبلاب ينتحب فوق جدار؟ لبلاب أصفر، هذا جميل. عاج أصفر أيضاً. وماذا عن

اللبلاب العاجي؟ (١) .

ولمعت الكلمة الآن في عقله أكثر وضوحاً ولمعاناً من أي عاج مقطوع من ناب فيل موكت (٢) : عاج ، أيقوري ، أقوريو ، إيبور (٣) من الأمثلة الأولى التي تعلمها في اللغة اللاتينية هي : *India mittit ébur* (٤) . واستعار وجه المدير الشمالي الفطن الذي علمه كيف يترجم « تحولات » « أوفيد » إلى لغة إنجليزية سليمة ؛ ذلك الوجه الذي يربد ويتقلص عند ذكر الخنازير وقطع الفخار المكسورة وفقار لحم الخنزير . كان قد أدرك مدى قلة معرفته بأحكام الشعر اللاتيني من كتاب مزق كتبه قس برتغالي :

Contrakit orator, variant in carmine vates. (٥)

وقد وصلت إليه أحداث الأزمات والانتصارات والانشقاقات في التاريخ الروماني في الكلمات الثلاثة : *In tanto discrimine* (٦) . وحاول أن ينظر في الحياة الاجتماعية لمدينة المدن من خلال الكلمات *Implere ollam denariarum* ، التي ترجمها المدير في جلجلة بأنها ملء الجرة بالقطع النقدية . ولم يكن يلمس صفحات كتاب « هوراس » البالي بارداً أبداً حتى حينما تكون أصابعه ذاتها باردة « كانت صفحات آدمية ، قلبتها منذ خمسين عاماً أصابع « جون دنكان إنقراتي » الآدمية وأصابع أخيه « وليام مالكولم إنقراتي » . أجل ، كانت هذه أسماء نبيلة مسطرة على صفحة الغلاف المغبرة . ولكن هذه الأشعار الغبراء كانت - حتى لشخص ضعيف في اللاتينية

(١) هنا تورية على كلمتي *ivy* لبلاب و *ivory* عاج ، بالإنجليزية .

(٢) أي أثر من البياض في سواده أو أثر من السواد في بياضه .

(٣) يذكر المؤلف هنا اسم « عاج » باللغات المختلفة .

(٤) « ترسل الهند العاج » .

(٥) « رسول مترابط حديثه ، متنوعة أغانيه » .

(٦) « متميزة إلى مثل هذا الحد » .

مثله - عبقة^١ كأنما رقدت طوال هذه السنوات بين نبات الأس واللافندر والقيروثين^(١) . وقد آلمه رغم ذلك التفكير بأنه لن يكون سوى ضيف خجول أمام مائدة ثقافة الدنيا ، وأن معرفة الرهبان التي كان يجاهد عن طريقها في فلسفة جمالية ، لا يُقدّرُها العصر الذي يعيش فيه بأكثر من اللغو العجيب الدقيق للشعوذة أو صيد الصقور .

وجذب روحه إلى الواقع ثانية مبني « ترينيتي » الرماذي على يساره ، يقوم في ثقل على جهل المدينة كالحجر السقيم الذي يقام على حلقة عائقة . وبينما هو يجاهد بهذه الطريقة أو تلك ليحجر قدميه من أغلال الضمير المنصلح وصل إلى تمثال شاعر أيرلندا القومي الغريب .

نظر إليه دون نقمة ، فعلى الرغم من أن فتور الجسد وفتور الروح قد زحفا عليه كاللودة الحفية ، على الأقدام المتناقلة وفوق ثنايا العباءة وحول الرأس الخنوع ، فقد بدا واعياً في هوان إلى حقارته . لقد كان أشبه « بفير بولج » في عباءة « فيلبسيان » المستعارة . وفكر ستيفن في صديقه « دافين » ، الطالب الريفي . كان ذلك لقباً هاذراً بينهما ولكن الريفي الشاب تحمله في خفة قائلاً :
- إيه يا ستيفي ، إن لي رأساً عنيداً كما تقول ، فلتنادني بما شئت من أسماء .

وابتهج ستيفن عندما نطقت شفتا الصديق بالنسخة المنزلية لاسمه الأول حين سمعه لأول مرة لأنه كان رسمياً في معاملاته مع الآخرين كما كانوا هم معه . وغالباً ، حين كان يجلس في منزل دافن في « جرانتم ستريت » متعجباً من أحذية صديقه الجميدة الصنع التي تصطف إلى جانب الجدار زوجاً زوجاً ، يردد على مسمع آذان صديقه البسيطة أشعار الآخرين ولزوماتهم التي تمثل غشاء تلهفاته وصدده ؛ وقد جذب عقل محدثه اللفظ على طريقة « فير بولج » ذهن ستيفن نحوه وورده عنه ثانية ، يجره إليه عن طريق أدب استماع هادئ متأصل أو عن طريق منحى

(١) نباتات عطرية .

غريب لحديث بالإنجليزية القديمة أو بقوة متعته بالمهارة الجسدية الفظة . فقد كان دافن تلميذ « ميشيل كوزاك » الجالي المطيع . وصده عنه بسرعة وفجأة بخشونة ذكائه أو ببلادة الشعور أو بنظرة رعب سقيمة في العينين ، رعب الروح في القرية الأيرلندية التي تموت جوعاً ، والتي يمثل فيها الناقوس رعباً ليلياً .

وكان الريفي الشاب يعبد أسطورة أيرلندا الحزينة جنباً إلى جنب مع ذكرى الأعمال الجريئة لعمه « مات دافن » الرياضي . وكانت ثروة زملائه الطلبة الذين يجاهدون في تحويل حياة الكلية الرتيبة إلى شيء من الأهمية بأي ثمن ، تيل إلى أن تتصوره شاباً « فنيانياً »^(١) . كانت مربيته قد علمته اللغة الأيرلندية وشكلت خياله الخام عن طريق الأضواء المحطومة للأسطورة الأيرلندية . لقد وقف من هذه الأسطورة التي لم يجد أي عقل مفرد أي سطر من الجمال فيها والتي تتضارب قصصها في تناقض مستمر عبر العصور ، ككنفس موقفه من الديانة الكاثوليكية الرومانية ، موقف العبد المخلص سقيم البديهة . وكان عقله يقف مسلحاً بموجب كلمة المرور ضد أي فكرة أو شعور يأتي إليه من إنجلترا أو عن طريق الثقافة الإنجليزية . ولم يكن يعرف عن العالم الذي يقع وراء إنجلترا سوى مفوضية فرنسا التي كان يتحدث عن عزمه على العمل فيها .

وبالنظر إلى هذا المظم مضافاً إليه مزاج الشاب ، كان ستيفن كثيراً ما يدعوه بالأوزة المستأنسة . وكانت هناك نقاط مضايقة في هذا الاسم المبين ، منها أن تردد هذا الصديق في القول والفعل تبدو كثيراً ما تقف بين عقل ستيفن المتلهف على التأمل وبين الوسائل الخفية للحياة الأيرلندية .

وفي إحدى الليالي ، وكانت روح الريفي الشاب قد وخزتها اللغة العنيفة الفاخرة التي يفر بها ستيفن من صمت التمرد الفكري البارد ، مثلت أمام عقل

(١) Fenian أي عضو في الجمعية القومية لطرد الإنجليز من أيرلندا .

ستيفن رؤيا غريبة . كان الاثنان يسيران في بطن نحو مسكن « دافين » خلال طرق اليهود الفقراء الضيقة المظلمة .

– « لقد حدث لي شيء « يا ستيفي » في الحريف الماضي حين جئت في الشتاء ولم أخبر أي مخلوق حي به وأنت أول شخص أخبره به الآن . لا أذكر إذا كان هذا قد حدث في أكتوبر أو في نوفمبر . لقد حدث في أكتوبر لأنه كان قبل أن أحضر هنا لأستعد لدروس الشهادة التوجيهية » .

وكان ستيفن قد حول عينيه الباسمتين نحو وجه صديقه ، وقد ملأته هذه الثقة بالملق ، وجذبته لكننة المتحدث البسيطة إلى التعاطف معه .

– « كنت غائبا طوال هذا اليوم عن مسكني ؛ كنت في « بوتفانت » ، ولا أعرف إذا كنت تعرف هذه المنطقة ، لأشهد مباراة عنيفة بين فريق « أولاد كروك » وفريق « ثيرل الجريء » ، وبالله يا ستيفي ، كم كان صراعاً جباراً . وقد تجرد ابن عمي من ثيابه ذلك اليوم فقد كان عليه أن يلاحظ أبناء « ليهريك » ولكنه كان معظم الوقت في مقدمة الملعب يصيح كالمجانين . لن أنسى ذلك اليوم أبداً . وذات مرة ، صوب أحد لاعبي « كروك » ضربة رهيبه بعصاه تجاهه ، وأشهد أمام الله أنها كانت على مقربة ذراع من جانب صدغه . أوه ، بحق الإله لو أن حرفها أصابه آنذاك لكان قد قضى على الفور » .

قال ستيفن وهو يضحك : إني سعيد أنه قد نجا . ولكن ليس هذا بالتأكيد الشيء الغريب الذي حدث لك ؟

– حسناً ، أعتقد أن هذا لا يهمك ، ولكن حدثت ضجة هائلة بعد المباراة نسيت في عدم لحاقي بقطار العودة ، ولم أتمكن من العثور على أي عربة من عربات الثيران لتنتقلني ، فقد شاء الحظ أن يكون هناك اجتماع ديني في نفس هذا اليوم في « كاستون روش » وكانت كل عربات البلدة هناك . ولم يكن من مفر من قضاء الليل بها أو العودة سيراً على الأقدام . حسناً ، بدأت في السير وحشت الخطى ، وحل الظلام حين وصلت إلى تلال « بالي هورا » على بعد أكثر من

عشرة أميال من « كيلمالوك » وهناك طريق طويل منعزل بعدها . وهناك لا ترى علامة منزل مسيحي على طول الطريق أو تسمع صوتاً . كانت ظلمة بهيمية . وتوقفت مرة أو مرتين في الطريق تحت شجيرة لكي أشعل غليوني ، ولو لم يكن الندى ثقيلاً لكنت قد تمددت ونمت . وأخيراً ، بعد منحني الطريق ، لمحت كوخاً صغيراً يمين الضوء من نافذته ، فتوجهت إليه وقرعت الباب وسألني صوت عمن أكون وأجبت أنني كنت أحضر المباراة في « بوتيفانت » وأعود سائراً وأنا أكون شاكراً لو سُمح لي بكوب ماء . وبعد برهة فتحت الباب امرأة شابة وأعطتني جرة كبيرة من اللبن . كانت نصف عارية كأنما كانت تتأهب للذهاب للفراش حين طرقت الباب وشعرها متهدل على كتفها ، وقد افترضت من هيئتها ومن شيء في نظرة عينها أنها لا بد أن تكون حاملاً . وشغلتنني مدة طويلة بالحديث على عتبة الباب ، وفكرت أن ذلك غريب لأن صدرها وكتفها كانت عارية . ثم سألتني إن كنت متعباً وإن كنت أحب أن أقضي الليل بالكوخ . وقالت انها وحدها تماماً في البيت وأن زوجها قد ذهب ذلك الصباح إلى « كوتيرتون » مع أخته ليرافقها في الرحلة . وطوال الوقت الذي كانت تحدثني فيه يا ستيفي ، كانت عينها مركزتين على وجهي ، وكانت تقف على مقربة مني لدرجة كنت أسمع معها أنفاسها . وحين رددت إليها الجرة أخيراً أمسكت بيدي لتجرني على عتبة الباب وهي تقول « تعال واقض الليل هنا . لا داعي للخوف . ليس هناك أحد سوانا ... ولكنني لم أدخل يا ستيفي . لقد شكرتها ثم واصلت سيرتي ثانية وقد غمرتني الحمى . وعند أول منحني للطريق نظرت خلفي وكانت ما تزال واقفة على الباب » .

وتغنت الكلمات الأخيرة لقصة دافن في ذاكرته ، ومثلت صورة هذه المرأة منعكسة مع صور أخرى للنسوة الريفيات اللاتي رأهن يقفن على الأبواب في « كلان » حين كانت عربية المدرسة تمر عليهما ، كنموذج لعنصرهن وعنصره ، روح خفاشية تستيقظ على وعي بنفسها في ظلمة وسرية وعزلة ، وعن طريق

عيني امرأة خاليتين من الحداد وصوتها وإشاراتها تدعو الغريب إلى فراشها .
وأمسكت يد بذراعه ، وصاح صوتٌ فتيٌ :
- آه أيها المحترم ، ابنتك يا سيدي . أول قطعة اليوم يا محترم . اشترِ هذه
الحزمة الجميلة ، أرجوك يا محترم .

وبدت الزهور الزرقاء التي رفعتها نحوه وعيناها الزرقاوان في تلك اللحظة
صوراً للبراءة . وتوقف حتى تلاشت الصورة ولم يعد يرى سوى ثوبها الممزق
وشعرها الرطب الحشن ووجهها الغليظ .
- اشترِها أيها المحترم ! لا تنسَ ابنتك يا سيدي !

فقال ستيفن : ليس معي نقود .

- اشترِ هذه الزهور الجميلة ، ألا تفعل يا سيدي ؟ بنساً واحداً فقط .

فسألها ستيفن وهو ينحني نحوها : ألم تسمعي ما قلته لك . لقد أخبرتك
أنني لا أملك نقوداً ، وهأنذا أخبرك مرة أخرى .
فردت الفتاة بعد لحظة : حسناً سوف يكون معك يوماً ما يا سيدي ،
إن شاء الله .

فقال ستيفن : جائز ، غير أنني لا أعتقد ذلك .

وتركها بسرعة بعد أن خشي أن تتحول مودتها إلى عناد ورغبة في الابتعاد
عن الطريق قبل أن تقدم بضاعتها إلى آخر ، إلى سائح إنجليزي أو طالب «كلية
ترينيتي» .

واستطال شارع « جرافتون » الذي كان يسير فيه من تأثير الفاقة المثبطة .
وفي الطريق العمومي ، فوق مستوى رأسه ، أقيم لوح تذكاري « لولف تون »
وتذكر أنه حضر إقامته مع والده . وتذكر في مرارة منظر هذا الاحتفال
المبهرج . كان هناك أربعة وفود فرنسية في مركبة تجرها الجياد ، وأمسك
واحد منهم ، وهو شاب سمين باسم ، بعضاً بأعلاها لافتة مطبوع عليها : عاشت
أيرلندا .

ولكن الأشجار في متنزه ستيفن كانت تعبق بالمطر ، وأخرجت الأرض الرطبة شذاها الآدمي ، بخور واهن يرتفع إلى أعلى خلال القالب من أفئدة كثيرة . لقد اضمحلت روح المدينة الوريديّة الكريمة التي حدثه الأقدمون عنها بفعل الزمن إلى شدى آدمي واهن يرتفع من الأرض . وعرف في لحظة حين دخل الكلية المعتمة أنه سيتعرف على فساد آخر مختلف عن حالتي « باك إيجان » و « بيرنتشابل هويلي » .

كان الوقت قد فات للدخول إلى محاضرة اللغة الفرنسية في الدور العلوي . وعبر الردهة واتخذ ممشى اليسار الذي يؤدي إلى مدرج الطبيعة . كان الممشى مظلماً ساكناً ولكنه ليس خلواً من مراقب خفي . لماذا شعر أنه لا يخلو من خفي ؟ هل يرجع ذلك إلى أنه سمع أنه من أيام « باك هويلي » كان هناك سلم خفي فيه ؟ أو هل يكون منزل الجزويت خارج المنطقة وأنه يسير الآن بين غرباء ؟ لقد بدت له أيرلندا التي تخص « توم » و « بارنل » تتقهقر إلى الخلف .

وفتح باب المدرج وتوقف عند النور الرمادي البارد الذي يجاهد من خلال النوافذ المتربة . كان رجل يقمي أمام الموقد الكبير ، وعرف من نحافته ورماديته أنه عميد الدراسات بوقد النار . وأغلق ستيفن الباب في هدوء واقترّب من الموقد .

– صباح الخير يا سيدي ! هل لي في مساعدتك ؟

ورفع القس بصره بسرعة وقال :

– لحظة واحدة يا مستر ديدالوس وسترى . إن إشعال النار فن . هناك

فنون سامية وفنون نافعة ، وهذا واحد من الفنون النافعة .

فقال ستيفن : سأحاول أن أتعلمه .

فقال العميد وهو يعمل بهمة في مهمته : لا تضع كثيراً من الفحم ، هذا سر

من أسرار هذا الفن .

وأخرج أربعة أعقاب من الشموع من الجيوب الداخلية لسترته الكهنوتية

ووضعها بمهارة بين الفحم والورق الملفوف . وراقبه ستيفن في صمت . بدا وهو يجثو على البلاط ليشعل النيران منهمكاً بأوضاع رزم أوراقه وأعقاب شمعاته أكثر من أي وقت مضى ، خادماً مطيعاً يجهز المكان للقربان في معبد خال ، سادناً من سدنة الله . ويمثل رداء السادن من الكتان الحشن كان الكساء الكهنوتي البالي الباهت للرجل الجاثي الذي يضايقه وتغيظه قوانين الكنيسة أو رداء الحبر الكهنوتي الموشى بالأجراس . لقد شاخ جسده ذاته في خدمة الله ، في العناية بالنيران فوق المذبح وفي حمل الرسائل خفية ، في خدمة الدنيويين ، في الضرب بسرعة حين يؤمر بذلك – ومع ذلك فقد بقي غير مكرم بأي شيء مقدس أو بأي جمال أسقي . أجل ، بل ان روحه ذاتها قد شاخت في هذه الخدمة دون الاقتراب من النور والجمال أو بعث عيب قدسيها المحبب خارجاً . كان إرادة خائبة لا يستجيب لهزة الطاعة إلا كمثل استجابة جسده المعجوز المغضن لهزة الحب أو الصراع ، وقد استحال رمادياً كمثل أطراف النقود الفضية .

وجلس العميد القرفصاء وراقب العصي تشتعل . وقال ستيفن ليقطع الصمت :

– إنني واثق بأنني لا أستطيع إشعال النار .

فقال العميد وهو يرفع بصره ويغمز بعينيه الساحبتين :

– أنت فنان ، أليس كذلك يا مستر ديدالوس ؟ إن مهمة الفنان هي خلق الجمال . أما ما هو الجمال فهذا شيء آخر .

وحك يديه في بطء وجفاف حول هذه القضية .

وسأل : هل تستطيع أن تحل هذه القضية الآن ؟

قال ستيفن: يقول أكونياس : *Pulera sunt quae visa placent*

فقال العميد : ستكون هذه التي أمامنا بهيجة المنظر ، فهل تكون جميلة وفقاً لذلك ؟

– إنها تكون جميلة فيما يتعلق بكونها تدرك بالأبصار ، وأعتقد أنه يعني

هنا الإدراك الجمالي . غير أن أكونياس يقول كذلك :

Bonum est in quod tendit appetitus .

فالتار حسنة فيما يتعلق بكونها ترضي مطلب الحيوان في الدفء . ومع ذلك فهي شر في الجحيم .

فقال العميد : بالضبط . لقد أصبت الهدف تماماً .

ونفض في رشاقة واتجه ناحية الباب وتركه موارباً وقال :

— يقال ان جرعة تفيد في هذه المسائل .

وحين عاد ثانية إلى الموقد ، يعرج قليلاً ولكن في خطوات خفيفة ، رأى ستيفن روح الجزويتي الصامته تطل عليه من العينين الشاحبتين الحاليتين من الحب . كان أعرج مثل « إغناطيوس » ولكن الحماس الذي كان يتقد في عيني إغناطيوس لم يكن يتقد في عينيه . وحتى مهنة الجماعة الجزويتية الأسطورية ، وهي مهنة أكثر فراهة وألغازاً من كتبها الملققة عن الحكمة الفارمة الخفية ، لم تشعل روحه بطاقة الرسولية . بل بدا الأمر كأنه يستخدم حيل العالم وحكته وبراعته كما يأمرونه أن يفعل ، من أجل زيادة مجد الله ، دون مسرة في معالجتها أو كراهية لما فيها من شرور ؛ ولكنه يحولها ثانية على نفسها في طاعة ثابتة . ومن أجل كل هذه الخدمات الصامته بدا كأنه لا يحب السيد على الإطلاق ولا يحب الغايات التي يخدمها إلا قليلاً إن لم يكن لا يحبها مطلقاً *Similiter atque senis baculus* لقد كان على ما فعل منه المؤسس مثل الشيء في يد الرجل العجوز ، ينحني عليه في الطريق عند سدول الليل أو عند اكفهرار الجو ، أو يرقد مع باقصة زهر لإحدى السيدات على مقعد في حديقة ، أو يرفع عالياً للتهديد .

وعاد العميد إلى الموقد وبدأ يربت على ذقنه .

سأل : متى يمكن أن ننتظر منك شيئاً حول الموضوع الجمالي ؟

فقال ستيفن في دهشة : مني ؟ إنني أصادف فكرة كل عدة أسابيع لو ساعدني الحظ .

فقال العميد : هذه الموضوعات عميقة جداً يا مستر ديدالوس . مثلها كمثل أن تنظر من أعالي هضاب « موهير » إلى الأعماق . كثير يفوصون إلى الأعماق ولا يظهرون أبداً ثانية . الغواص المدرب وحده هو الذي يستطيع أن يهبط إلى تلك الأعماق ويستكشفها ثم يعود إلى السطح ثانية .

فقال ستيفن : إن كنت تعني التأمل يا سيدي فإنني أيضاً متأكد أنه ليس هناك من شيء يدعى بالتفكير الحر من حيث أن كل تفكير يجب أن يكون محكوماً بقوانينه الخاصة .
- ها !

- ولأجل هذا الغرض ففي إمكاني أن أهتدي في عملي في الوقت الحاضر بفكرة أو فكرتين من أرسطو وأكونياس .
- فهمت . فهمت وجهة نظرك .

- إنني لا أحتاج إليها إلا لاستعمالي وإرشادي الخاص حتى أخلق شيئاً يهديها لنفسي . إذا كان المصباح يدخن أو يبخر فسأحاول أن أصلحه . أما إذا لم يكن يعطي الكفاية من الضوء ، فسأبيعه وأشتري غيره .

فقال العميد : كان « لإبيكتيتوس » أيضاً مصباح وبيع بثمن خيالي بعد موته . لقد كان المصباح الذي كتب مقالاته الفلسفية على نوره . أتعرف « إبيكتيتوس » ؟

فقال ستيفن بخشونة : إنه سيد قديم قال إن الروح أشبه شيء مجردل من الماء .

فاستطرد العميد قائلاً : إنه يخبرنا بأسلوبه الأليف أنه قد وضع مصباحاً حديدياً أمام تمثال أحد الآلهة وأن لصاً سرق هذا المصباح . فماذا فعل الفيلسوف ؟ لقد قال إن طبيعة اللص تجبره على السرقة وصمم على شراء مصباح خزفي في اليوم التالي بدلاً من المصباح الحديدي .

وانبعثت رائحة الشحم المنصهر من أعقاب شمعات العميد وانسابت إلى وعي

ستيفن مع طنين كلمات : جردل ومصباح ومصباح وجردل . وكان لصوت القس أيضاً رنة مطنّة . وتوقف ذهن ستيفن بالفطرة وقد صدته الرنة الغريبة والصورة ووجه القس الذي بدا كالمصباح المنطفئ أو كعاكس معلق في بؤرة خاطئة . ماذا وراءه أو بداخله ؟ سبات روح سقيم أم سقم الخيلة (١) محملة بالإدراك وقادرة على جهامة الله ؟

قال ستيفن ؟ إنما عنيت نوعاً مختلفاً من المصباح يا سيدي .
فقال العميد : بلا شك .

فقال ستيفن : من صعوبات المناقشة في علم الجمال إدراك ما إذا كانت الكلمات تستخدم وفقاً للتقاليد الأدبية أو وفقاً للتقاليد الشائعة . أذكر عبارة «نيومان» يقول فيها عن العذراء المباركة أنها كانت «معطلة» (٢) بين جمع حاشد من القديسين . واستخدام هذه الكلمة بالمعنى الشائع مختلف تماماً ، مثل « أرجو ألا أكون قد عطلتك » .

فقال العميد في أدب : لا ، أبداً .
فقال ستيفن وهو يبتسم ؛ كلا ، إنما عنيت ...
فقال العميد بسرعة : أجل ، أجل ، فهمت . فهمت تماماً ، تعني كلمة « معطلة » .

ومد فكه الأسفل إلى الأمام وسمل سعالاً جافاً قصيراً .
قال : لنعد إلى المصباح . إن تغذيته كذلك مشكلة لطيفة . لا بد أن تختار الزيت النقي ولا بد أن تنتبه حين تصبه فيه لئلا ينسكب ، فعليك ألا تصب فيه أكثر مما يتسع له القمع .
فسأل ستيفن : أي قمع ؟

(١) السحابة فيها مطر وبرق .

(٢) يعني بها هنا « في حفظ » والكلمة الإنجليزية واحدة هي « detained » .

– القمع الذي تصب خلاله الزيت إلى مصباحك .
فقال ستيفن : هذا ؟ أيسمى هذا قمعاً ؟ ألا يدعى موصلًا ؟
– ما هو الموصل ؟
– إنه ... إنه ... القمع .

فأل العميد : أيسمى هذا موصلًا في أيرلندا . لم أسمع هذه الكلمة في حياتي .

فقال ستيفن وهو يضحك : إنها تدعى موصلًا في « درمكوندرا » السفلى حيث يتحدثون اللغة الإنجليزية الفصلى .

فقال العميد متفكرًا : موصل . إنها كلمة عجيبة جداً . لا بد أن أراها في القاموس . بحق الإله سوف أفعل .

ووقعت مجاملته في المعاملة موقعاً يكاد يكون زائفاً . ونظر ستيفن إلى المهتدي الإنجليزي بمثل العين التي ينظر بها الابن الأكبر إلى الابن الضال في المثل المعروف : تابع دليل في صحوة الهدايات الصاخبة ، إنجليزي مسكين في أيرلندا ، بدا كأنه قد دخل على خشبة تاريخ الجزويت حين قاربت عروض المؤامرات والمعاناة والحسد والصراع والمهانة كلها على نهايتها ، قادم متأخر ، روح متوانية . من أين بدأ ؟ ربما ولد ونشأ بين مخالفين للرأي جادين ، يرى الخلاص في يسوع فقط ويزدري أبهة النظام العبثية . ألم يشعر بالحاجة إلى إيمان واضح بين حمأة المذهبية ولغو تصدعاتها المقلقة ، ست من الشخصيات الرئيسية ، رجال نخبولون ، معمدانيو بذور وثعابين ، عقيديون فوق مبدأ الزلة ^(١) ؟ هل عثر على الكنيسة الحقة فجأة عن طريق فك خط دقيق النسيج من التفكير حول موضوع النفخ عند التعميد بواسطة وضع الأيدي أو حول طقوس الثالوس المقدس ؟ أو هل لمس السيد

(١) Supralapsarian أتباع مذهب أن أوامر الله ليست بسبب زلة آدم وحواء الأولى .

المسيح وأمره أن يتبعه ، مثل ذلك الحوار الذي جلس على مكتب الجمر
يتشابهاً ويحسب نقود النذورات كما تعود أن يجلس على باب الكنيسة المسقفة
بالزنك ؟

وأعاد العميد الكلمة ثانية :

— موصل . حسناً ، هذا شيق .

فقال ستيفن في برود :

— يبدو لي السؤال الذي وجهته لي منذ لحظة أكثر تشويقاً . ماهية ذلك
الجمال الذي يجاهد الفنان في التعبير عنه من بين ركام الدنيا .

وبدت الكلمة الصغيرة وقد تحولت إلى سيف مدبب من سيوف حساسيته
ضد هذا العدو الساهر الدمث . وشعر في امتعاض خفيف أن الرجل الذي
يحادثه من أبناء بلد « بن جونسون »^(١) . وفكر : — إن اللغة التي نتحدث بها
لغته قبل أن تكون لغتي . لشد ما تختلف كلمات : البيت — المسيح — الجمعة —
السيد على شفثيه عنها على شفثي . إني لا أستطيع أن أنطق أو أكتب هذه
الكلمات دون أن يحتاج القلب روعي . ستظل لغته بكل ما فيها من ألفة
وغرابة بالنسبة لي لغة مكتسبة دائماً . إنني لم أصنع أو أقبل كلماتها : إن صوتي
يعارضها تماماً . إن روعي تظل قلقه في ظلال لغته .

وأضاف العميد : ولا بد من التمييز بين الجميل والسامي . لا بد من التمييز
بين الجمال الآدمي والجمال المادي . ولا بد من البحث في نوع الجمال المناسب لكل
فن من الفنون المختلفة . هذه بعض النقاط الهامة التي يمكن أن نبهتها .

وصدمت ستيفن وقد فترت همته من جراء لهجة العميد الصارمة الجافة .
وارتفعت من خلال السكون من جهة السلم ضجة قصية لصوت أقدام وأصوات
مختلطة .

(١) بن جونسون (١٥٧٣؟ ١٦٣٧) من الكتاب الانجليزي المعاصرين لشكسبير . من
مسرحياته : قولبوني ، كل شخص في مزاجه ، المرأة الصامتة .

وقال العميد جازماً :

ومع ذلك ، يمكن في متابعة مثل هذه التأملات خطر الخواء ؛ يجب أن تنال شهادتك أولاً ، ضع ذلك هدفاً أولاً وبعدئذ سترى طريقك شيئاً فشيئاً . أعني في كل شيء ، طريقك في الحياة وطريقك في التفكير . وقد يكون ذلك بمثابة المجاهدة في صعود تل من التلال في البداية . خذ مثلاً مستر « موان » ، لقد قضى زمناً طويلاً قبل أن يصل إلى القمة . ولكنه وصل فملاً .

فقال ستيفن في هدوء : قد لا تكون لي مثل موهبته .

فقال العميد في انشراح : لا تستطيع الجزم . لا يمكننا أبداً إدراك دخيلتنا . إني واثق جد الثقة أنه لا يجب أبداً أن ييأس المرء :
« Per aspera ad astra »

وترك الموقد بسرعة وتوجه ناحية منبسط السلم لكي يرقب وصول صف أدبي أول .

وسمعه ستيفن إذ كان مرتكزاً على المدفأة يحيي كل طالب في الصف بنشاط وبلا تمييز ، وكان يكاد يرى ابتسامات الطلبة الحشنين الصريحة . وبدأ رثاء كظيم يسقط كالندى فوق قلبه الهش على خادم « ليولولا » الأمين هذا ذي الروح الفروسية ، على أخي الكهانة هذا ، الأكثر ضعةً من الكهنة في القول ، ولكنه أكثر حزمًا في روحه عنهم ؛ واحد لا يمكن أن يدعوه مطلقاً بالأب القدس . وجال في خاطره كيف أن هذا الرجل وزملاءه قد اكتسبوا لقب « الدنيويين » على يدي كل من الدنيويين وغير الدنيويين كذلك ، لأنهم يتضرعون لدى عدالة الله وحكمتها من أجل أرواح المتهاونين والبلداء والمتبصرين .

وأعلنت دخول الأستاذ حكايات قليلة من الأحذية الثقيلة للطلبة الذين جلسوا في الصف العلوي من المدرج الكئيب تحت النوافذ الرمادية التي تشبه نسيج العنكبوت . وابتدأ نداء الأسماء وتعالى الردود بكل اللهجات حتى وصل إلى اسم « بيتر بايرن » .

- موجود!

وصدر الرد من صوت عميق جمهوري من الصف العلوي ، تبعته سماعات احتجاج على طول الصفوف الأخرى .

وتوقف الأستاذ عن القراءة ، ثم نادى الاسم التالي :

- كراني !

- لا جواب .

- مستر كراني !

وعبرت ابتسامة على وجه ستيفن حين فكر في سير دراسات صديقه .

وصاح صوت من الصف الخلفي : جرب اسم « ليباردستون » .

ونظر ستيفن بسرعة ، ولكن وجه موينيهان ذي الأنف الخنزيري الذي تبدت حدوده على الضوء الرمادي ، كان هادئاً . وأعطيت إحدى المعادلات . والتفت ستيفن خلفه وسط ضجة الكراسيات وقال .

- أعطني بعض الأوراق من فضلك .

فسأل موينيهان بتكشيرة عريضة : أوصلت إلى هذا الحد ؟

وجذب صفحة من كراسة مسوداته ومررها إليه وهو يهمس :

- في حالة الضرورة يمكن لأي رجل عادي أو امرأة أن تحلها .

وبهت عقل ستيفن وأضنته المعادلة التي كتبها في طاعة على صفحة الورقة ، وحسابات الأستاذ الطاوية والبساطة ، ورموز القوة والعنف التي تشبه الأطياف . وكان قد سمع البعض ينعت الأستاذ المعجوز بأنه ملحد من الماسونيين . آه ، يا لليوم السقيم الغائم ! لقد بدا هذا اليوم كسجن للوعي الصبور غير المتألم التي تهيم أرواح المشتغلين بالحساب خلاله ، يعرضون أنسجة طويلة رقيقة من مستويات الشفق الذي يأخذ في الندرة والشحوب ، مشعاً دوامات سريعة نحو الحواف الأخيرة لكون سريع أبدأ قصي أبدأ ، وأكثر شفافية أبدأ .

- ولذلك يجب أن نميز بين الشكل الإهليلجي والشكل الإهليلجي

الناقص . ربما يكون بعضكم يا سادة على دراية بمؤلفات مستر « و. س. جلبرت » ،
ففي إحدى أغنياته يتحدث عن أحد من يغشون في لعبة البلياردو ، الذي يضطر
إلى اللعب :

على مائدة مزيفة

وبعضا ملتوية

وكرات بليارد إهليلجية

وهو يعني كرة لها الشكل الإهليلجي الناقص للمحاور الأساسية الذي تحدثت
عنه منذ لحظة .

وانحنى موينيهان على أذن ستيفن وهمس له :

- كم تساوي الكرات الإهليلجية ! اتبعني أيتها النسوة ، فإني من الفرسان .
وجرى مزاح زميله الجاف مثل اللفحة خلال مسارب عقل ستيفن ، وهز
الأردية الكهنوتية المعلقة على الجدران في حياة بهيجة ، وجعلها تترنح وتراقص
في فوضى قداسية ، وخرجت شخوص وأشكال رجال طائفة الجزويت من بين
الأردية المفلوحة : عميد الدراسات ، الصراف ذو الهيئة الناضرة وقبعته ذات
الشعر الرمادي ، الرئيس ، القس الصغير ذو الشعر الذي يشبه ريش الطيور
والذي يكتب الشعر الديني ، الشكل الريفي المكتنز لأستاذ الاقتصاد ، الشكل
الطويل للأستاذ الشاب لمادة العلوم العقلية يناقش في أرضية السلم حالة الضمير
مع طلبة صفه مثل الزرافة التي تحصد أوراق الشجر العالية بين قطيع من
الغزلان ؛ عريف الزمالة الرزين القلق ، أستاذ الايطالية البدين المستدير الرأس
بعينه الماكرتين . جاءوا مسرعين يتعثرون ، يتقاطرون ويتقافزون ، طاوين
أثوابهم ليففزوا كالضفادع ، ماسكين بظهور بعضهم البعض ، يهزم ضحك عميق
زائف ، غامزين أحدهم الآخر من الخلف ويضحكون من أحقادهم الجافة ، ينادون
بعضهم البعض بأسمائهم الأولى المألوفة ، يحتجون في هيئة مفاجئة عند أي معاملة
جافة ، ويتهامسون مثنى مثنى من وراء أكفهم .

وتوجه الأستاذ إلى الحافظة الزجاجية على الجدار الجانبي ، وأنزل من احد الرفوف مجموعة من الأسلاك الكهربائية ، وأزاح الغبار عن كثير من نواحيها وحملها في حرص إلى المائدة ، ووضع إصبعه عليها بينما استمر في إلقاء محاضرتة . وقال إن الأسلاك الكهربائية الحديثة مصنوعة من مركب يدعى بلاتينويد اكتشفه « ف. و. مارتينو » .

ولفظ الحروف الأولى ولقب المكتشف في وضوح . وهمس موينيهان من الخلف :

— « فرش ووتر مارتين » العجوز الطيب .

ورد ستيفن الهمس في مزاح تعب : أسأله إن كان يريد متطوعاً لتجربة الإعدام الكهربى . يمكنني أن أتقدم .

ونهرس موينيهان من مقعده حين رأى الأستاذ محنياً فوق الأسلاك ، وأخذ يفرقع أصابع يده اليمنى دون صوت ، ثم أخذ يصيح في صوت الطفل الباكي : — من فضلك يا أستاذ ! هذا الولد يقول ألقاهاً بذئثة يا أستاذ .

واستطرد الأستاذ في رصانة : « والبلاتينويد مفضل عن الفضة الألمانية لأن به مقاومة معاملية أقل عن طريق تغيير درجة الحرارة . والسلك البلاتينودي معزول ، والغطاء الحريري الذي يعزله ملفوف على البوبينات المطاطية حيث يشير إصبعي تماماً ؛ وإذا كانت ملفوفة بطريقة فردية فسيجرى التيار في الأسلاك .

والبوبينات قصيرة مشبعة بشمع البرافين الساخن ... »

وقال صوت حاد من أولستر^(١) من صف خلف ستيفن :

— هل ستأتي لنا أسئلة عن العلوم التطبيقية ؟

وبدأ الأستاذ يتلاعب في رصانة باصطلاحات العلم الخاص والعلم التطبيقي . وحملق طالب متين البنيان يرتدي نظارات ذهبية نحو السائل في عجب . وهمس

(١) مقاطعة في أيرلندا .

موينيهان من الخلف في صوته الطبيعي :

— أليس ماك أليستر شيطاناً حقيقياً ، حين يهز لحمه المكتنز ؟

ونظر ستمفن في برود إلى الهجوم البيضاوية في الصف التالي وقد غلبها
الشعر الرمادي المتشابك . لقد أزعجه صوت السائل ولهجته وعقليته ، وسمح
للإزعاج أن يحمله إلى القسوة المتعمدة وحمل ذهنه أن يفكر بأنه كان يحسن
بوالد الطالب لو أنه أرسل ابنه إلى بلفاست للدراسة ويوفر بذلك شيئاً من
مصاريف القطار .

ولم تستدر الهجوم البيضاوية التي في الصف التالي لتقابل هذه اللحمة من
التفكير ، ومع ذلك عادت اللحمة ثانية إلى مستقرها ، فقد رأى بعد لحظة
وجه الطالب المكفهر .

وقال لنفسه بسرعة : ليست هذه الفكرة فكرتي . لقد نبعت من الأيرلندي
الفكه في الصف الخلفي . صبراً ، هل يمكنك القطع بين قايض على روح عنصرك
وخان صفوفهم ؟ هل هو السائل أم المتهم . صبراً . تذكر إيبكتيتوس . ربما
كان سيراً على نهجه أن يُسأل مثل هذا السؤال في مثل هذه اللحظة بمثل هذه
اللهجة وأن تُنطق كلمة « علوم » على أنها كلمة من مقطع واحد .

واستمر صوت الأستاذ المكسال يلف نفسه ببطء حول الأسلاك التي يتحدث
عنها ، مضاعفاً مثنى وثلاث ورباع طاقته الناعسة كما يضاعف السلك وحدات
مقاومته الكهربائية .

ونادى صوت موينيهان من الخلف مررداً أصدااء جرس بعيد :

— حان وقت العلق يا سادة .

كانت ردهة الاستقبال مزدحمة تلغظ بانديث ، وعلى المائدة بجانب الباب
صورتان في إطارها وبينها وثيقة ورق طويلة تحمل ذبلاً متعرجاً من التوقيعات .
وكان « ما كان » يسير جيئةً وذهاباً في خفة بين الطلبة ، يتحدث بسرعة ، يرد
على التمنعات ويقود الواحد إثر الآخر إلى المائدة . ووقف عميد الدراسات في

الردهة الداخلية يتحدث مع أستاذ شاب وهو يربت على ذقنه في رزانة ويهز رأسه .

وتوقف ستيفن في تردد وقد صده الزحام عند الباب . وكانت عينا كرانلي تراقبانه من تحت رق قبعة لينة عريض ملتو .

وسأله ستيفن : هل وقّعت ؟

وأغلق كرانلي فمه الطويل ذا الشفاه الرقيقة وتحاور مع نفسه برهة ثم أجاب : Ego habeo (١) .

– ما الغرض منها ؟

– quod ؟ (٢)

– ما الغرض منها ؟

وأدار كرانلي وجهه الشاحب إلى ستيفن وقال في عذوبة ومرارة :
per pax universalis (٣) .

وأشار ستيفن إلى صورة القيصر وقال :

– إن له وجه مسيح ذاهل .

وأعاد الازدراء والغضب في صوته عيني كرانلي من استعراض هادىء للصور التي على جدران الردهة .

وسأل : هل أنت مستاء ؟

فرد ستيفن : كلا .

– هل أنت منحرف المزاج ؟

– كلا .

(١) « لقد فعلت » .

(٢) « ماذا ؟ »

(٣) « من أجل السلام العالمي » .

فقال كرانلي : Greedo ut vos sanguinarius mendax estis :
quia facies vostra monstrat ut vos in damno malo
humore estis .^(١)

ومس موينيهان لستيفن في طريقه إلى المنضدة :
— إن « ما كان » يشتعل حماساً ؛ مستعد ليريق آخر قطرة . عالم جد
جديد . لاحماس ولا أصوات لأولاد الكلاب .
وابتسم ستيفن لشدة ثقته ، وتحول ثانية ليقابل عيني كرانلي بعد مرور
« موينيهان » .

قال : ربما استطعت أن تخبرني لماذا يصب روحه بمطءاء في أذني . هل
تستطيع ؟

وعبرت جهامة سقيمة على جبين كرانلي . وحلق في المائدة حيث انحنى
موينيهان ليكتب اسمه في الوثيقة . ثم قال في بلادة :
— معسول اللفظ .

فقال ستيفن : من منا منحرف المزاج ، أنا أم أنت ؟
ولم ينتبه كرانلي لهذه الغمزة . كان عاكفاً في خشونة مرددأ في نفس القوة
البليدة : معسول اللفظ لعين ، هذا هو !

هكذا كان نعمته لكل الصداقات الميتة ، وتساءل ستيفن عما إذا كان سيقول
نفس الكلام عنه حين يذكره . ومرت العبارة الثقيلة المكومة في بطن بعيداً عن
الأسماع مثل الحجر الذي يرق خلال طين الأرض . وراها ستيفن تمر كما رأى
الكثير غيرها ، وشعر بثقلها بثقل فؤاده . لم يكن في حديث كرانلي ، على
عكس دافن ، أي عبارات نادرة من العصر الاليزابيتي ولا صيغ محرفة في حدق
للتعابير الايرلندية . كانت ثقافته صدى لمراقء دبلن تعيدها صورة مرفأ مهجور

(١) « أعتقد أنك كاذب لعين لأنه من أفعالك يبدو أنك في مزاج سيء لعين » .

متهدم ، وطاقته صدى لبلاغة دبلن المقدسة يعيدها في بلادة صورة منبر
« ويكلو » .

واختفت الجهامة من وجه كرانلي حين توجه « ماكان » نحوها في خفة من
الجانب الآخر من الردهة .

قال « ماكان » في مرح : هاأنتم !

فقال ستيفن : هاأنا .

– متأخران كمعادتكما . ألا تستطيعان أن تقرنا أفكاركما التقديمية باحترام

المواعيد ؟

فقال ستيفن : هذا السؤال ليس ضمن البرنامج . فلننتقل إلى المسألة التالية .

وكانت عيناه الباسمتان مثبتتين على لوح شيكولاته اللبني ذات الورق المفضض
يطل من جيب صدارة القائم بالدعاية . والتفت حلقة صغيرة من السامعين حولهم
ليسمعوا عراك الأذكياء . ودس طالسب نحيف ذو بشرة زيتونية وشعر أسود
مسترسل وجهه بين الاثنين ، ينقل بصره من أحدهما إلى الآخر عند كل عبارة
ويبدو كما لو كان يحاول أن يلتقط كل عبارة طائفة في فمه المفتوح الرطب .
وتناول كرانلي كرة رمادية صغيرة من جيبه وبدأ يتفحصها في إتقان وهو يقلبها
بين يديه .

قال ماكان : المسألة التالية ؟ ها ...

وأطلق ضحكة عالية ، وابتسم ابتسامة عريضة وهو يجذب مرتين لحيته
الصغيرة التي في لون القش التي تتدلى من ذقنه الجافة .

– المسألة التالية أن توقعا الوثيقة .

فسأل ستيفن : هل ستدفع لي شيئاً إن أنا وقعت ؟

فقال « ماكان » : ظننتك من المثاليين .

وتلفت الطالب ذو المظهر العجري حوله وخاطب الملتفين في صوت ناغٍ

غير واضح :

- « بحق الجحيم ، إنها فكرة عجيبة . أنا أعتبر هذه الفكرة فكرة أنانية » .
وذاب صوته في الصمت . لم يلقِ أحد بالآ لكلماته . وأدار وجهه الزيتوني ،
ذا التعبير الحصاني نحو ستيفن يدعوهُ إلى الحديث ثانية .

وبدأ « ما كان » يتحدث في طاقة فياضة عن الأمر الإمبراطوري القيصري ،
وعن « ستيد » وعن نزع السلاح العام والتحكيم في حالات المشكلات العالمية ،
وعن ظواهر العصر ، والبشرية الجديدة ، وإنجيل الحياة الجديد الذي يجعل
مهمة الجماعة أن تضمن أعظم سعادة ممكنة بأرخص نفقة ممكنة لأكبر عدد
ممكن من الناس .

واستجاب الطالب العجري للعبارة الأخيرة في الحديث بأن صاح :
- اهتفوا ثلاثاً للأخوة العالمية .

وقال طالب بدين متورد يقف إلى جانبه . استمر « ياتمبل » ، سوف
أدعوك للشراب بعد ذلك .

فقال تمبل وهو يحمق فيما حوله من عينيه السوداوين البيضاويين : إني من
دعاة الأخوة العالمية . إن ماركس ما هو إلا سمكة لعينة .

وقبض كراني ذراعه بشدة حتى يمنع لسانه عن الحديث ، وابتسم في قلق
وردد : مهلاً ، مهلاً ، مهلاً !

وجاهد تمبل ليخلص ذراعه ؛ ولكنه استمر وفمه ملطخ بالرغوة الخفيفة :
- لقد أقام الاشتراكية أيرلندي وكان كولينز هو أول إنسان في أوروبا
يدعو لحرية الفكر . منذ مائتي عام . ولقد أدان الكهنوتية فيلسوف مقاطعة
« ميدلسكس » . اهتفوا ثلاثاً لجون أنتوني كولنز !

وأجاب صوت رفيع من طرف الحلقة : - بيب ! بيب !
وممس « موينيهان » في أذن ستيفن :

- وماذا عن أخت جون أنتوني الصغيرة المسكينة :

لقد فقدت لوثي سراويلها
ألا تعيرينها سراويلك ؟ »

وضحك ستيفن ، وهمس موينيهان ثانية وقد سرته النتيجة :
- سوف يقفز كل منا خمس مرات من أجل جون أنتوني كولنز .
قال « ما كان » باقتضاب : إني في انتظار جوابك .
فقال ستيفن في وهن : إن الموضوع لا يثير لدي أي اهتمام وأنت تعرف
ذلك جيداً ، فلماذا تثير البلبلة حوله ؟
فقال ما كان وهو يلوي شفتيه : حسناً ، أنت رجعي إذن ؟
فسأل ستيفن : هل تعتقد أنك ستؤثر علي إذا استلقت سيفك الحشبي ؟
فقال « ما كان » في بلادة : تشبيهات ! انزل إلى الواقع .
وتورد وجه ستيفن واستدار جانباً . وثبت « ما كان » في مكانه وقال في
مزاح معادي :

- أعتقد أن صغار الشعراء فوق قضية تافهة مثل قضية السلام العالمي .

ورفع كرانيه رأسه وأمسك بالكرة بين الطالبين كأنما يعرض عليها السلام
وقال : *Pax super totum sanguianrium globum.*^(١)
وأزاح ستيفن الملتفين حولهم وهز كتفيه في غضب نحو صورة القيصر وقال :
احتفظوا بقدساتكم . إذا كان لا بد لنا من مسيح فليكن مسيحاً شرعياً .
فصاح الطالب العجري لمن حوله : بحق الجحيم ، أحسنت .. هذا تعبير جميل .
إني أحب هذا التعبير للغاية .

وازدرد لعابه كأنما يزدرد العبارة وتحول إلى ستيفن متمسكاً بأصابعه إلى
طرف قبمته التويد وقال : من فضلك يا سيدي ، ماذا تعني بالتعبير الذي
قلته الآن ؟

(١) « السلام الأعلى لكل الكون اللعين » .

ولما أحس أن الطلبة من حوله يزاحمونه قال لهم :

– إني أتطلع إلى معرفة ما يعني بهذا التعبير .

وتحول ثانية نحو ستيفن وهمس له :

– هل تؤمن بالمسيح ؟ إني أؤمن بالإنسان . أنا لا أعرف طبعاً إن كنت تؤمن

بالإنسان . إني معجب بك يا سيدي . إني معجب بعقل الإنسان مستقلاً عن

جميع الأديان . أهذا هو رأيك في عقل يسوع ؟

فقال الطالب البدن المتورد راجعاً كمادته إلى فكرته الأولى :

– استمر يا تمبل ، إن كأس الشراب بانتظارك .

فشرح تمبل الأمر لستيفن قائلاً : إنه يظن أنني أبه لأنني من المؤمنين بقوة

العقل .

وعقد كراني ذراعيه في ذراع ستيفن ومعجبه وقال :

Nos ad manum bellum jocabimus^(١)

ولمخ ستيفن وهو على وشك أن ينقاد لجاذبه وجه « ما كان » المتورد ذا

الملامح المتبلدة . وقال في أدب :

– إن توقيعى لا قيمة له . إنك على حق في انتهاج هذا الطريق ، فدعني

أسير في طريقي .

فقال « ما كان » في صلابه : إني أعتقد أنك رفيق طيب يا ديدالوس، ولكن

عليك أن تتعلم كرامة حب الآخرين ومسئولية الفرد الإنساني .

وقال صوت : إن المحاور المثقفة تكون أحسن حالاً بعيداً عن هذه الحركة

أكثر من أن تكون فيها .

وتعرف ستيفن في الصوت على لهجة « ماك آليستر » الخشنة ، ولم يلتفت

نحوه . وتقدم كراني في رزانة وسط حشد الطلبة ممسكاً بذراعي ستيفن

(١) « نحن نلهو في حرب خاصة » .

وتقبل كالواعظ يحف به تابعوه في طريقه إلى المذبح .

والنخى تبلى في لهفة عبر صدر كرانيلى وقال :

— هل سمعت ما قال ماك آليستر؟ إنه غيور منك ، ألا ترى ذلك؟ أراهن

أن كرانيلى لم يدرك ذلك بحق الجحيم ، لقد أدركت ذلك على الفور .

وبينما كانوا يعبرون الردهة الداخلىة كان عميد الدراسات يحاول الفرار من الطلبة الذين يجادلونه . ووقف عند أرضية السلم وقدمه على الدرج الأخير وثوبه الكهنوتى الرث مضموماً حوله ليصعد فى حذر نسائى ، وهو يهز رأسه كثيراً ويردد : لا شك فى ذلك يا مستر « هاكيت » ، حسن جداً ، لا شك فى ذلك .

وفى وسط الردهة ، كان عريف زمالة الكلية يتحدث فى جد فى صوت رقيق شكس مع طالب من القسم الداخلى . وكان يعقص قليلاً حاجبه المبقع بالنمش حين يتحدث ، ويعض قلماً صغيراً من العظم بين عبارة وأخرى :

— أمل أن يحضر خريجو الثانوية كلهم . أما طلبة الصف الأول الأدبى فهو كد .

والصف الثانى الأدبى أيضاً . لا بد أن نضمن الطلبة الجدد .

والنخى تبلى ثانية عبر كرانيلى حين كانوا يعبرون باب الخروج ، وقال فى

مس خاطف :

— أتعلم أنه متزوج ؟ لقد كان متزوجاً قبل أن ينتظم فى الجماعة . لديه زوجة

وأطفال فى مكان ما . بحق الجحيم ، أعتقد أن هذا أعجب شيء سمعته ، هه ؟

وانتهت همسته بضحكة خبيثة مهذارة . وفى اللحظة التى أصبحوا فيها

فى الخارج أمسكه كرانيلى بعنف من رقبتة وهزه قائلاً :

— أيها الأبله « المقاوچ » النارى ! أقسم بالكتاب المقدس أنه ليس هناك من

قرء لعين كبير أعظم منك فى كل الدنيا اللعينة النارية !

وتعلم تبلى فى قبضته وهو ما يزال يضحك فى سرور خبيث ، بينما ردد

كرانيلى فى بلادة عند كل هزة عنيفة :

— أبله نارى متألّق لعين !

وعبروا معاً الحديقة المعشوشبة . وكان الرئيس متجها ناحيتهم عبر أحد المماشي ملتحقاً بعباءة ثقيلة فضفاضة يتلو طقوسه . وتوقف عند نهاية المشى قبل أن يستدير ورفع عينيه . وحيّاه الطلبة ، وتمبل يتحسس طريقه إلى ذرى قبعته كعادته . وساروا إلى الأمام في صمت . وحين اقتربوا من الحارة تمكن ستيفن من سماع لطمت أيدي اللاعبين وضربات الكرة وصوت دافن يصيح حماساً عند كل ضربة .

وتوقف الطلبة الثلاثة حول الصندوق الذي جلس عليه دافن ليتابع المباراة . وبعد لحظات قليلة ، تسلل تمبل جانباً نحو ستيفن وقال :

— أريد أن أسألك من فضلك ، هل تعتقد أن جان جاك روسو كان مخلصاً ؟

وضحك ستيفن على الفور . والتقط كرانلي عارضة خشبية لبرميل مكسور من على الحشائش بين قدميه واستدار في خفة وقال في صرامة : أعلن أمام الله الحي يا تمبل أنك إن نطقت بكلمة أخرى — أتعرف ذلك — لأي شخص في أي موضوع ، فسوف أقتلك في التو والساعة .

وقال ستيفن : أظن أنه كان مثلك ، رجلاً عاطفياً .

فقال كرانلي في انطلاق : أحرقه الله ، عليه اللعنة . لا تتحدث إليه على الإطلاق . إذا تحدثت إليه فكأنك تتحدث إلى مزهرية نارية . عد إلى بيتك تمبل . بحق الإله ، عد إلى بيتك .

فأجاب تمبل وهو يبتعد عن مرمى لوح البرميل الخشبي المرفوع نحوه ويشير إلى ستيفن :

— إني لا أهتم بك إطلاقاً يا كرانلي ، هذا هو الرجل الوحيد في هذه المنشأة الذي له عقل مفرد .

فصاح كرانلي : منشأة ! مفرد ، عد إلى بيتك ، أحرقك الله ، فأنت إنسان لعين لا أمل فيه .

فقال تمبل : إنني إنسان عاطفي . ياله من تعبير صادق . وإني جدد فخور

إنني عاطفي .

وتحول مبتعداً عن الحرارة وهو يبتسم في خبث . وراقبه كراني بوجه غفل
لا تمبير فيه .

قال : انظر إليه ! هل رأيت مثل هذا مساحاً للجدران .

ورحبت ضحكة غريبة أطلقها طالب كان يتلکأ بجانب الحائط بهذه
العبارة ، ويكاد طرف قبعته يغطي عينيه . وبدت الضحكة وقد انطلقت في
نبرة عالية ومن صاحب جسم مفتول مثل عواء الفيل . واهتز جسد الطالب من قمة
رأسه إلى أخمص قدميه ثم حك كلتا يديه في بهجة على فخذه لكي يهدى ، من
مراحه .

قال كراني : لقد استيقظ « لينش » .

وبسط « لينش » نفسه إجابة على هذه العبارة ودفع ب صدره إلى الأمام .

فقال ستيفن : يبرز لينش صدره انتقاداً للحياة .

وضرب لينش بقبضته على صدره في صخب وقال :

— هل من اعتراض على مقاسات جسدي ؟

وأخذ كراني كلامه مأخذ الجد ، وبدأ الاثنان يتصارعان . ولما توهج
وجهاهما من الصراع افترقا وهما يلهثان . وتوجه ستيفن نحو دافن الذي كان
مستغرقاً في المباراة ولم يلتفت إلى حديث الآخرين . سأل : وكيف حال أوزتي
الصغيرة الوديمة ؟ هل وقع هو أيضاً ؟ فأوماً دافن برأسه وقال : وأنت
يا ستيفن ؟

فهز ستيفن رأسه .

فقال دافن وهو يخرج الغليون القصير من فمه : إنك إنسان مرعب ياستيقي ،
وحدك دائماً .

فقال ستيفن :

— والآن وقد وقعت التماس السلام العالمي ، أعتقد أنك لا بد ستحرق ذلك

الدفتر الصغير الذي رأيته عندك .

وحين لم يرد دافن ، بدأ ستيفن يقتبس منه بعض العبارات :
— خطوة سريعة ، فيانا ، إلى اليمين در فيانا ! فيانا ، عدّ واحد ، اثنين !
فقال دافن : هذه مسألة أخرى . إنني وطني أيرلندي في البداية وقبل كل شيء . ولكن هكذا أنت دائماً . إنك ساخر بطبعك يا ستيفن .

فقال ستيفن : حين تشرع في تمردك المصطخب القادم وتحتاج إلى المخبرين اللازمين فأبلغني . بإمكانني أن أعثر لك على قليل منهم في هذه الكلية .

فقال دافن : إني لا أستطيع فهمك ، أسمعك يوماً تهاجم الأدب الإنجليزي ، وها أنت تهاجم المخبرين الأيرلنديين . ما الأمر في اسمك وفي أفكارك
أأنت أيرلندي على الإطلاق ؟

فقال ستيفن : تعال معي الآن إلى السجلات وسأريك شجرة عائلتي .
فقال دافن : إذن كن واحداً منا . لماذا لا تتعلم اللغة الأيرلندية ؟ لماذا
تركت دروس عصبتنا بعد الدرس الأول ؟

فأجاب ستيفن : أنت تعرف سبباً لذلك .
فضرب دافن رأسه بيده وضحك .
وقال : آه ، غير معقول . أذلك من أجل تلك الفتاة والأب موران؟ ولكن
هذا كله من وحي خيالك يا ستيفن . لقد كانا يتجادلان ويضحكان ليس إلا .

وتوقف ستيفن ووضع يداً ودودة على كتف دافن .
قال : هل تذكر يوم عرفنا بعضنا لأول مرة ؟ لقد سألتني في الصباح الأول
لتعارفنا أن أدلك على طريق صف الشهادة الثانوية وأنت تضغط ضغطاً قوياً على
المقطع الأول من الكلمة . أتذكر ؟ ثم اعتدت أن تدعو الجزويت بالأباء ، أتذكر ؟
وسألت نفسي عنك : أهو ساذج السذاجة التي تتبدى في حديثه ؟

فقال دافن : إنني شخص بسيط . أنت تعرف ذلك . بحق الله يا ستيفي ،
حين أخبرتني تلك الليلة في شارع «هار كورت» تلك الأشياء عن حياتك الخاصة ،

لم أستطع أن أتناول طعامي . لقد كنت على درجة كبيرة من السوء . وبقيت
ساعراً جانباً كبيراً من الليل . لماذا أخبرتني تلك الأشياء ؟

فقال ستيفن : شكراً . إنك تعني أنني متوحش .

فقال دافن : كلا . ولكن كنت أتمنى لو لم تخبرني .

وبدأ مد يفرور تحت سطح ود ستيفن الهاديء قال :

- إنني نتاج هذا العنصر وهذه البلدة وهذه الحياة . سأعبر عن نفسي كما أنا
عليه في الواقع .

فكرر دافن : حاول أن تكون واحداً منا . إنك أيرلندي في فؤادك
ولكن كبرياءك أقوى من اللازم .

فقال ستيفن : لقد ألقى أجدادي لغتهم واستبدلوا بها لغة أخرى . لقد
سمحوا لطفنة من أن يستعبدوهم . هل تتصور أنني سوف أدفع من حياتي ومن
شخصي ديوناً ارتكبوها هم ؟ لماذا ؟

فقال دافن : من أجل حريتنا .

فقال ستيفن : لم ينجح إنسان محترم ومخلص نفسه وشبابه أبداً منذ أيام
« فون » إلى أيام « بارنل » إلا وبعمومه إلى الأعداء أو خذلتموه في وقت الحاجة
أو لعنتموه وتركتموه إلى غيره . ثم تدعوني إلى أن أكون واحداً منكم . إنني
سأراك ملعوناً قبل ذلك .

فقال دافن : لقد ضحوا من أجل مثاليتهم . وسوف يأتي يومنا ، صدقني .

وظل ستيفن صامتاً برهة شارداً مع أفكاره . ثم قال في غموض .

- إن الروح تولد البداية في مثل هذه اللحظات التي أخبرتك بها . إن مولدها
بطيء وغموض ، أكثر غموضاً من مولد الجسد . وحين تولد روح إنسان في هذا
البلد فإنهم يلقون عليها الشباك ليمنعوها من التحليق . إنك تحدثني عن الوطنية
واللغة والدين . إنني سأحاول أن أفر من هذه الشباك .

ونفض دافن الرماد من غليونه .

قال : إنك عميق حتى لتستعصي عليّ . ولكن بلد المرء يأتي أولاً . أيرلندا أولاً يا ستيفي . ويمكنك أن تصبح شاعراً أو صوفياً بعد ذلك .
فقال ستيفن في برود: هل تعرف ما هي أيرلندا ؟ أيرلندا هي الخنزير الذي يأكل أبناءه .

ونفض دافن من مكانه وتوجه ناحية اللاعبين وهو يهز رأسه في حزن . غير أن حزنه فارقه بعد لحظة وأخذ يتجادل في حرارة مع كرانلي واللاعبين اللذين انتهيا من لعبها . وأعدوا اللعبة يشترك فيها أربعة ، وقد أصر كرانلي رغم ذلك على استخدام كرتة . وقذفها وتناولها في يده ثانية مرتين أو ثلاث مرات ثم رمى بها بقوة إلى قرار الحارة وهو يصيح متجاوباً مع لطماتها :
- روحكم !

ووقف ستيفن مع لينش إلى أن بدأت الأهداف تترى ، ثم جذبه من ردفه لكي يمضيا . وأطاعه لينش قائلاً :
- فلنزع وجودنا من هنا كما يقول كرانلي .
وابتسم ستيفن لهذه الغمزة .

وعبرا الحديقة وخرجا إلى الردهة حيث كان البواب المرتج يثبت إعلاناً على اللوحة . وعند أسفل الدرج توقفا وتناول ستيفن علبة سجائر من جيبه وقدم واحدة منها إلى رفيقه .
قال : أعرف أنك فقير .

فرد لينش : اللعنة على وقاحتك الصفراوية .
وأعاد هذا البرهان الثاني على ثقافة لينش البسمة إلى شفق ستيفن .
قال : لقد كان يوماً عظيماً للثقافة الأوروبية حين قررت أن تلعن بالصفراوية .
وأشعلا سيكارتيتها وخرجا يميناً . وبعد صمت بدأ ستيفن :
- لم يقدم أرسطو تعريفاً للشفقة والخوف ، ولقد توصلت أنا إلى مثل هذا التعريف . إني أقول
- ٢٢٧ -

وتوقف لينش وقال ببلادة :

– قف ، لن أنصت ! إني مريض . لقد قضيت ليلة أمس في الشرب الأصفر
مع « هوران » و « جوجنز » .

واستطرد ستيفن :

– الشفقة هي الشعور الذي يستولي على الذهن في حضرة كل ما هو خطير
ودائم في المعاناة البشرية ويربطها بالإنسان الذي يعاني ؛ والخوف هو الشعور الذي
يستولي على الذهن في حضرة كل ما هو خطير ودائم في المعاناة البشرية ويربطها
بسببها الخفي .

فقال لينش : أعد .

وأعاد ستيفن التعريفين ببطء .

واستطرد « » كانت فتاة تمر في إحدى المركبات منذ يومين في لندن .
وكانت في طريقها لملاقاة والدتها التي لم ترها منذ سنين عدة . وعند ركن الطريق ،
حطمت الشاحنات زجاج المركبة وأحاله إلى قطع مدببة . واخترقت قطعة
طويلة رقيقة من الزجاج قلب الفتاة وماتت لساعتها . وقال الصحفي إنه كان
موتاً تراجيدياً . ولكنه ليس كذلك . إن ذلك بعيد عن الشفقة والخوف وفقاً
لاصطلاحات التعريف الذي قدمته .

– العاطفة التراجيدية في الواقع وجه يتجه إلى ناحيتين ، نحو الخوف ونحو
الشفقة ، وهما اثنان من مظاهرها . لقد رأيت أنني استخدمت كلمة يستولي ،
وأعني بذلك أن العاطفة التراجيدية عاطفة سكونية ، أو بالأحرى العاطفة
الدرامية . أما المشاعر التي تثيرها الفنون غير الخالصة فهي حركية ، تحرك
الرغبة أو الكره . والرغبة تحثنا على الامتلاك ، على الاقتراب من شيء ، ويحثنا
الكره على الترك ، على الابتعاد عن شيء . وعلى ذلك فإن الفنون التي تثير هذه
الأشياء ، أدبياً مكشوفاً كانت أو تعليمية ، هي فنون غير خالصة . وعلى ذلك
فإن العاطفة الجمالية (وأنا أستخدم الاصطلاح العام) سكونية . وفيها يُستولى

على الدهن ويرتفع فوق الرغبة والكره .

فقال لينش : أنت تقول إنه من الواجب ألا يثير الفن الرغبة؛ ولقد أخبرتك أنني كتبت اسمي ذات مرة بالقلم الرصاص على ظهر تمثال فينوس لبراكسيتيليز في المتحف . ألم تكن هذه رغبة .

فقال ستيفن : إني إنما أتحدث عن الطبائع العادية . لقد أخبرتني أيضاً أنه عندما كنت صبياً في تلك المدرسة الدينية الساحرة أكلت قطعاً من الروث الجاف . وانفجر لينش مرة أخرى في نشيج من الضحك وحك ثانية يديه على فخذيته ولكن دون أن يخرجها من جيوبه .

وصاح : أجل ، لقد فعلت ، لقد فعلت .

والتفت ستيفن نحو رفيقه وحملق برهة بجرأة في عينيه . وأجاب عليه لينش بعد أن استفاق من ضحكه بعينيه المتواضعتين . وعكست الجمجمة الرقيقة الممتدة تحت القبة الطويلة المدببة أمام ذهن ستيفن صورة سلحفاة ذات قناع . وكانت العينان أيضاً عيني سلحفاة في لمعاتها ونظراتها .

ورغم ذلك ففي هذه اللحظة ، إذ هما ذليلتان وحذرتا النظرات ، أضاءتها نقطة إنسانية صغيرة ، نافذة روح منكشة حادة النفس مريرتها . وقال ستيفن في إدراك مؤدب : إننا جميعاً حيوانات فيما يختص بذلك . أنا أيضاً حيوان .

فقال لينش : إنك كذلك حقاً .

فاستطرد ستيفن : ولكننا في عالم عقلي حتى الآن . ليست الرغبة والكره اللذان تستثيرهما الوسائل الجمالية غير الخالصة عواطف جمالية في الحقيقة ، ليس لأنها حركية الصفة فقط ، ولكن لأنها كذلك لا تزيد على عواطف جسمانية . إن جسدنا يبتعد عن كل ما يخشاه ويستجيب إلى الدوافع التي يرغب فيها عن طريق فعل منعكس خالص للجهاز العصبي . مثل ذلك أن جفوننا تنغلق قبل أن ندرك أن الذبابة على وشك أن تدخل عيوننا .

فقال لينش ناقداً : ليس دائماً .

فقال ستيفن : يحدث هذا بنفس الطريقة التي استجاب بها جسدك لدافع التمثال العاري ، ولكني أقول ان ذلك كان ببساطة عملاً انعكاسياً للأعصاب . لا يستطيع الجمال الذي يخلقه الفنان أن يوقظ فينا عاطفة حركية أو إحساساً جسمانياً خالصاً . إنه يوقظ ، أو يجب أن يوقظ أو يثير أو يجب أن يثير ، سكونية جمالية ، شفقة مثالية أو خوفاً مثالياً ، سكونية تنبعث ثم تستطيل وأخيراً تتصفى عن طريق ما أسميه إيقاع الجمال .

فسأل لينش : وما هو ذلك بالضبط ؟

فقال ستيفن : الإيقاع هو أول علاقة جامدة جمالية للجزء بالجزء الآخر في الكل الجمالي أو علاقة الكل الجمالي بجزئه أو بأجزائه أو علاقة أي جزء بالكل الجمالي الذي هو جزء منه .

فقال لينش : إذا كان هذا هو الإيقاع ، فقل لي ماذا تسمي الجمال ، وأرجوك أن تتذكر أنه رغم أنني أكلت يوماً كعكة من الروث ، إلا أنني لا أعجب بشيء سوى الجمال .

ورفع ستيفن قبعته كأنما يرحب بذلك . ثم تورد وجهه قليلاً ووضع يده على رदन لينش التويد السميك .

قال : إننا على حق والآخرين مخطئون . الفن هو أن نتحدث عن هذه الأشياء وأن نحاول فهم طبيعتها ، وبعد أن نفهمها نحاول في ببطء وتواضع وباستمرار أن نعبّر عن صورة للجمال الذي فهمناه وأن نجعل ثانية من الأرض الجافة أو نتاجها ، من الصوت والشكل واللون التي هي نوافذ سجن أرواحنا صورة لهذا الجمال .

وكانا قد بلغنا جسر القنّاة ، وانحرفا عن طريقها وسارا بمحاذاة الأشجار . وكان الضوء الرمادي الجاف الذي ينعكس على المياه الخاملة ورائحة الأفنان المبتلة فوق رؤوسهم تبدو كأنما تشنها حرباً على سياق تفكير ستيفن .

قال لينش : ولكنك لم تجب على سؤالي : ما هو الفن ؟ ما هو الجمال الذي يعبر عنه الفن ؟

فقال ستيفن : لقد كان ردي هو الاعتراف الأول الذي أعطيته لك ، أيها الأخرق البائس ، حين بدأت أحاول مناقشة المسألة مع نفسي . أتذكر تلك الليلة ؟ حين فقد كرانلي أعصابه وأخذ يتحدث عن لحم خنزير « ويكلو » .
قال لينش : إني أذكرها . أخبرنا يوماً عن الخنازير السمينة النارية الشيطانية .

فقال ستيفن : الفن هو الخلق الإنساني للمادة المحسوسة أو المدركة من أجل غاية جمالية . لقد تذكرت الخنازير ونسيت هذا . إنكما رفيقان متعبان ، أنت وكرانلي .

وعبس لينش في وجه السماء الرمادية الكثيفة وقال : إن كنت سأستمع إلى فلسفتك الجمالية فلا أقل من أن تعطيني سيجارة أخرى . لا أهتم بها . إني لا أهتم حقاً بالنساء . اللعنة عليك وعلى كل شيء . أريد عملاً بخمسة جنيه في العام . إنك لا تستطيع منحي هذا العمل .
وناوله ستيفن علبة السجائر . وأخذ لينش آخر واحدة فيها قائلاً في بساطة :
استمر .

فقال ستيفن : يقول أكويناس إن الجميل هو الذي يسبب إدراكه السرور .
وأوماً لينش وقال :

— أتذكر أنه . *Pulcra sunt quae visa placent* .^(١)

فقال ستيفن : إنه يستخدم كلمة *visa* ليغطي الإدراكات الجمالية من كل نوع ، سواء عن طريق الإبصار أو السمع أو عن طريق أي وسيلة إدراك أخرى . وهذه الكلمة ، رغم غموضها ، فهي واضحة كفاية للفصل بين الخير والشر اللذين

(١) « الجميل هو ما يُرى ساراً » .

يشيران الرغبة والكره . إنها تعني بالتأكيد سكونية وليس حركية . وماذا عن الحق ؟ إنه ينتج سكونية في الذهن كذلك ، فأنت لا يمكن أن تكتب اسمك بالقلم الرصاص على وتر المثلث القائم الزاوية .

فقال لينش : كلا ، بل أعطني وتر فينوس لبراكستيليز .

فقال ستيفن : وعلى هذا فهو سكوني . لقد قال أفلاطون - كما أعتقد - إن الجمال هورونق الحق . ولا أظن أن لذلك له معنى ، ولكن الحق والجميل شيان متقاربان . الحق يُرى بعيني البصيرة التي هدأتها نسب الإدراك الأكثر إرضاءً . والجمال يُرى بعين الخيال الذي هدأته نسب الحس الأكثر إرضاءً . والخطوة الأولى في اتجاه الحق هو فهم إطار البصيرة ذاتها ومجالها ، وإدراك الفعل البصري ذاته . يقوم النظام الفلسفي كله عند أرسطو على كتابه عن علم النفس ، وأعتقد أن هذا الكتاب يعتمد بدوره على بيانه بأن نفس الصفة لا يمكن في نفس الوقت وفي نفس المقام أن تنتمي إلى نفس الموضوع ولا تنتمي إليه . والخطوة الأولى في اتجاه الجمال هي فهم إطار الخيال ومجاله وإدراك فعل التفهم الجمالي ذاته . أهذا واضح ؟

فقال لينش في ضجر : ولكن ما هو الجمال . عليك بتعريف آخر . شيء نراه ونحبه ! أهذا أفضل ما تستطيع أنت وأكونياس أن تقدماه .

فقال ستيفن : فلنأخذ المرأة .

فقال لينش بحماس : فلنأخذها .

فقال ستيفن : الإغريق ، الأتراك ، الصينيون ، الأقباط ، الهوتنوت ، كلهم أعجبوا بأنماط مختلفة من الجمال . يبدو هذا ورطة لا يمكننا الخروج منها . غير أنني أرى مخرجين . الأول الافتراض بأن كل صفة جسمانية أعجب بها الرجال في النساء لها صلة مباشرة بالوظائف المباشرة للنساء لحفظ النوع . قد يكون ذلك . ويبدو أن العالم أشد كآبة مما كنت تتخيله يا لينش . أما من جانبي فأني أبغض هذا الحل ، فهو يقود إلى علم تحسين النسل أكثر من علم الجمال . إنه يقودك خارج الورطة إلى غرفة محاضرات جديدة خادعة حيث تجد « ما كان » وإحدى

يديه على نسخة من أصل الأنواع ويده الاخرى على العهد الجديد ، يقول لك انك قد أعجبت بجانبي فينوس العريضين لأنك شعرت أن بإمكانها أن تنجب لك ذرية ضخمة ، وأعجبت بصدرها العريض لأنك شعرت أن بإمكانها توفير لبن كثير لأطفالها وأطفالك .

فقال لينش في نشاط : إذن « فما كان » كاذب صفراوي كالكبريت .

فقال ستيفن وهو يضحك : يبقى هناك مخرج آخر .

فقال لينش : عليّ به .

وبدأ ستيفن بقوله : هذا الحل ...

وأقبلت شاحنة محملة بالحديد الخردة حول منحني مستشفى « سير باتريك دان » وغطت على نهاية حديث ستيفن بزئير المعدن المصلصل المجلجل الحاد .

وغطى لينش أذنيه وأخذ يطلق السباب تلو السباب إلى أن مرت الشاحنة ، وعندها دار على عقبه في خشونة . واستدار ستيفن كذلك وانتظر لحظات قليلة حتى انصرف كدر رفيقه .

وردد ستيفن : هذا الحل هو الفرض الآخر ، وهو أن نفس الموضوع قد لا يبدو جميلاً لكل الناس ، فإن كل الناس التي تعجب بموضوع جميل تجد فيه نسباً معينة ترضي وتتفق مع مراحل الإدراك الجمالي ذاتها . وعلى ذلك فإن نسب المحسوس هذه التي تبدو لك عن طريق شكل من الأشكال وتبدو لي عن طريق شكل آخر لا بد أن تكون هي الصفات اللازمة للجمال . والآن ، لنا أن نعود إلى صديقنا القديم القديس توماس من أجل قيراطين من حكته .

وضحك لينش . قال :

— يتمتع جداً أن أسمعك تقتبس منه المرة تلو المرة مثل القسيس الطروب البدين . هل تضحك في نفسك ؟

فرد ستيفن : لو كان « ماك ليستر » لدعا نظريتي الجمالية تطبيقات أكويناس . وطالما يمتد هذا الجانب من الفلسفة الجمالية فسيحملني أكويناس في هذا الطريق .

أما حين نأتي إلى ظاهرة التصور الفني ، المخاض الفني والإنتاج الفني، فإني أحتاج إلى اصطلاحات جديدة وتجربة شخصية جديدة .

فقال لينش : طبعاً . وعلى كل حال فإن أكويناس كان قسيساً سميناً طيباً تماماً رغم كل بصيرتك . ولكنك ستخبرني عن التجربة الشخصية الجديدة والاصطلاحات الجديدة في يوم آخر . أسرع الآن وأنه القسم الأول .

فقال ستيفن مبتسماً : من يدري ؟ ربما فهمني أكويناس أفضل منك . لقد كان شاعراً هو نفسه . لقد كتب ترتيلة دينية ليوم الخميس المقدس وتبدأ بالكلمات : *Pange lingua gloriose* ^(١) . يقولون إن هذا أعظم مجد يمكن أن يبلغه المرتل . إنها ترتيلة معقدة ومهدئة . إني أحبها ، غير أنه لا يوجد ترتيلة يمكن أن تقارن بتلك الأغنية الجلالية البكائية المنسقة *Vexilla Regis* « لقيناتتوس فورتوناتوس » .

وبدأ لينش يعني برقة ورزانة في صوت « باص » عميق :

Impleta sunt quae concinit

David fideli carmine

Dicendo nationibus

Regnavit a ligno Deus ^(٢)

قال : هذا عظيم ! حسناً جداً . موسيقى عظيمة .

وانعطفا على شارع « لووار ماونت » وعلى بعد خطوات قليلة من الجانب

(١) « يكتب لغة مجيدة » .

(٢) « أغنية المخلص داويد

من يفتيها فهو راض

من ولد جيلاً

حاكماً على غابة الله » .

حياتها شاب بدين يرتدي وشاحا من الحرير ثم توقف . وسأل : هل عرفتما نتائج الامتحانات ؟ لقد رسب « جريفين » ، و « هالين » و « أوفلين » في طريقهما إلى الوظيفة ، ومونان الخامس في وظائف الهند ، وأوشنسي الرابع عشر . لقد أعد لهم الرفاق الأيرلنديون في كلية « كلارك » مأدبة في الليلة الماضية وأكل الجميع البهارات الهندية .

وبدا على وجهه الشاحب المنتفخ تعابير الخبث الرحيم ، وبينما كان مستمراً في إذاعة أخبار النجاح ، اختفت عيناه الصغيرتان المنتفختان عن الأبصار وذاب صوته الضعيف الصافر عن الأسماع .

وعادت عيناه وصوته ثانية من مكنها إجابة على سؤال ستيفن . قال : أجل ، « ماكولا » وأنا . سيدرس الحساب وسأدرس أنا التاريخ الدستوري . هناك عشرون مادة . وسأدرس النبات أيضاً . أنت تعلم أنني عضو في النادي الريفي .

وابتعد عن الاثنين بطريقة مبهرجة ووضع يداً سمينه ذات قفاز صوفي على صدره الذي انطلقت منه ضحكات صافرة على الفور .

وقال ستيفن يجفاف : أحضر لنا لفتاً وبصلاً حين تخرج مرة أخرى في إحدى الرحلات لكي نعد منه « يحنة » .

فغمز الضحك الطالب البدين وقال :

— كلنا أتاس محترمون جداً في النادي الريفي . وقد خرجنا يوم السبت الماضي إلى « جلماليور » ، سبعة منا .

فقال لينش : وهل كان معكم نساء يا دونوفان ؟

ووضع دونوفان يده مرة أخرى على صدره وقال :

— إن غايتنا هي تحصيل المعرفة .

ثم قال بسرعة : سمعت أنك تكتب مقالاً عن علم الجمال .

فقام ستيفن بحركة إنكار غامضة .

فقال دونوفان : لقد كتب « جوته » و « لسنج » كثيراً حول هذا الموضوع عن المدرسة الكلاسيكية والمدرسة الرومانسية وكل هذه الأشياء . لقد أثار كتاب « لاوكون » اهتمامي حين قرأته . إنه بطبيعة الحال مثالي ، ألماني ، فوق العميق . ولم يتكلم أحد من الحاضرين . واستأذن دونوفان منها في أدب . قال في رقة وإحسان : لا بد أن أذهب ، ولدي إحساس قوي يكاد يرتفع إلى مرتبة الاقتناع أن أختي تعترم صنع الفطائر الحلوة على الغداء اليوم لأسرة دونوفان . وقال ستيفن في طريقه : مع السلامة . لا تنسَ اللفت لي ولرفيقي . وتطلع لينش خلفه وشفته تتقلصان في احتقار بطيء حتى أصبح وجهه يشابه قناع الشيطان .

وقال أخيراً : تصور أن هذا الروث الصفراوي ، آكل الفطائر ، يستطيع الحصول على وظيفة طيبة ، بينما أنا أدخن السجائر الرخيصة ! وحولاً وجهتها ناحية ميدان « مريون » ومضياً برهة في صمت .

قال ستيفن : دعني أنهي ما كنت أقوله عن الجمال . إن النسب الأكثر إرضاءً للمحسوس لا بد بهذا أن تتطابق مع الأشكال اللازمة للإدراك الفني . لو وجدت هذه النسب لوجدت صفات الجمال العام . يقول أكويناس :

*Ad pulcritudinem tria requiruntur,
integritas , consonantina, claritas.*

وأترجمها هكذا : هناك ثلاثة أشياء ضرورية للجمال : الاكتمال ، التناسق ، والبهاء . هل تتطابق هذه الأشياء مع أشكال الإدراك ؟ أنت معي ؟ فقال لينش : طبعاً ؛ إذا كنت تظن أن لي ذكاه رَوَئياً فلنك أن تجري خلف دونوفان وتطلب منه أن يستمع لك .

وأشار ستيفن إلى سلسلة يعلقها صبي جزار معكوسة على رأسه وقال :
— انظر إلى هذه السلة .

فقال لينش : إني أراها .

قال ستيفن : لكي ترى هذه السلة ، يفصل ذهنك في البداية السلة عن باقي الكون المرئي الذي لا يتضمن السلة . ويكون أول شكل الإدراك هو خط فاصل يُرسم حول الموضوع الذي سيُدرك . وتقدم لنا الصورة الجمالية إما في المكان أو في الزمان . وكل ما هو مسموع يقدم في الزمان وكل ما هو مرئي يقدم في المكان . ولكن الصورة الجمالية ، سواء كانت مكانية أو زمانية ، تدرك أولاً في وضوح منطوية منفردة على خلفية المكان أو الزمان الذي لا حد له والذي ليس هو تلك الصورة . إنها تدركها كشيء « واحد » وتراها ككل واحد . إنك تدرك اكتمالها ، وهذا هو « الاكتمال » .

فقال لينش وهو يضحك : العين المستديرة ! استمر .

فقال ستيفن : ثم تنتقل من نقطة إلى أخرى ، تقودك خطوطها الجامدة ، وتدركها كجزء متوازن مع جزء آخر داخل حدودها ، وتشعر بإيقاع تركيبها . وبعبارة أخرى ، يتبع تركيب الإحساس الفوري تحليل الإدراك ، وبعد أن تشعر أولاً أنها شيء « واحد » تشعر الآن أنها « شيء » ، وتدركها كمركب ، مضاعف ، منقسم ، منفصل ، مصنوع من أقسام ، ونتيجة أقسامه وجموعها يسبب تناسقها ، وهذا هو التناسق .

فقال لينش مستسماً : العين المستديرة ثانية . أخبرني الآن ما هو البهاء فتكسب السيجار .

فقال ستيفن : إن مفهوم الكلمة غامض نوعاً ما . وأكويناس يستخدم اصطلاحاً يبدو غير دقيق ، وقد خدعني زمناً طويلاً . فهو يؤدي بك إلى أن تمتد أنه يقصد الرمزية أو المثالية ، والصفة العليا للجمال هي أنه نور من عالم آخر ، الفكرة التي تقول ان المادة ظل وحقيقتها الوحيدة هي الرمز . واعتقدت أنه إنما عنى أن البهاء هو الاكتشاف الفني والتصوير الفني للقصد الإلهي من كل شيء أو قوة تتمم تجعل من الصورة الجمالية صورة عامة وتجعلها تتفوق على

أوضاعها الصحيحة . ولكن هذا كلام أدب . إنني أفهمها هكذا . فأنت حين أدركت هذه السلة كشيء واحد ثم حلتها بعد ذلك طبقاً لشكلها وأدركتها كشيء ، تكون قد فعلت التركيب المنطقي الوحيد والمسموح به من الناحية الجمالية . وأنت ترى أنها هي هذا الشيء الذي هي عليه ولا شيء غيره . والبهاء الذي يتحدث عنه في الـ quidditas الإسكولائية هو « ماهية » الشيء . وهذه الصفة العليا يحسها الفنان حين يتصور الصورة الجمالية ، أول مرة في خياله . وقد شبه شيللي الذهن في هذه اللحظة الغامضة تشبيهاً جميلاً بذبالة الفحم . واللحظة التي يدرك فيها الذهن بوضوح تلك الصفة العليا للجمال ، هذا البهاء الواضح للصورة الجمالية ، بعد أن يكون قد استولى عليه اكتاها وبهره اتساقها هي السكونية الصامتة المضيئة للسرور الجمالي ، حالة روحية شبيهة جد الشبه بالحالة العاطفية التي دعاها النفساني الإيطالي « لويجي جالفاني » ، مستخدماً عبارة تكاد تضارع في جمالها جمال عبارة شيللي ، بافتتان الفؤاد .

وتوقف ستيفن ؛ ورغم أن رفيقه لم يتحدث ، فقد شعر بأن كلماته قد بعثت حولها صمتاً من السحر الفكري .

وبدأ يقول ثانية : إن ما قلته الآن يشير إلى الجمال بمعناه الأوسع ، بالمعنى الذي تعنيه كلمة الجمال في التقاليد الأدبية ، أما بمعناها الشائع فهو شيء آخر . حين تتحدث عن الجمال بمعناه الثاني يتأثر حكننا في المقام الأول بالفن ذاته وبالشكل الذي عليه هذا الفن . ومن الواضح أن الصورة يجب أن توضع بين ذهن الفنان نفسه أو إحساسه وبين ذهن الآخرين وإحساسهم . وإذا تذكرت ذلك فسوف تفهم أن الفن يقسم نفسه تبعاً للضرورة إلى ثلاثة أشكال يتطور الواحد منها إلى الآخر . وهذه الأشكال هي : الشكل الفئائي وهو الشكل الذي يقدم فيه الفنان فكرته بانعكاس مباشر من شخصيته ثم الشكل الملحمي وهو الشكل الذي يقدم فيه الفكرة بانعكاس من شخصيته وشخصيات الآخرين ، ثم الشكل الدرامي وهو الشكل الذي يقدم فيه الفنان فكرته بانعكاس مباشر

من الآخرين .

فقال لينش : لقد قلت هذا منذ أيام مضت ، وبدأنا عندها تلك المناقشة الشهيرة .

قال ستيفن : لدي في المنزل دفتر كتبت فيه أسئلة أكثر مدعاة للتسلية من أسئلتك . وفي البحث عن أجوبة هذه الأسئلة عثرت على نظرية الجمال التي أحاول أن أشرحها الآن . ومن أمثلة الأسئلة التي وضعتها لنفسني : هل المقعد المصنوع بمهارة تراجيدي أم كوميدية ؟ هل تكون صورة الموناليزا جيدة إن أنا رغبت في رؤيتها ؟ هل تمثال سير « فيليب كرامبتون » النصفي غنائبي أم ملحمي أم درامي ؟ وإن لم يكن كذلك ، فلماذا ؟

فقال لينش وهو يضحك : لماذا ، حقاً ؟

واستطرد ستيفن : إذا كان هناك رجل يحفر في سورة غضبه على قطعة من الخشب ، ورسم عليها صورة بقرة بهذا الحفر ، فهل تكون هذه الصورة عملاً فنياً ؟ وإن لم تكن ، فلماذا ؟

فقال لينش وهو يضحك ثانية : هذه فكرة جميلة ، ففيها الرائحة الإسكولائية الأصلية .

قال ستيفن : لم يكن يجب على لسنج أن يتناول مجموعة من التائيل ليكتب عنها . إن هذا الفن ، وهو أقل في المرتبة ، لا يصور الأشكال التي تحدثت عنها مميزة بوضوح بعضها عن البعض الآخر . وحق في الأدب ، وهو الفن الأكثر سمواً وروحية ، تختلط الأشكال في أغلب الأمر . والشكل الغنائي هو في الواقع أبسط كساء لفظي للحظة العاطفة ، صيحة إيقاعية كتلك التي كان يطلقها منذ عصور مضت من يجذف في القارب أو يدفع الأحجار فوق المرتفعات . ويشعر من ينطق بها بلحظة العاطفة أكثر مما يشعر بنفسه كشخص يحس بهذه العاطفة . ويتطور أبسط الأشكال الملحمية من الأدب الغنائي ، حين يطيل الفنان تفكيره في ذاته كمرکز حدث ملحمي ، ويتطور هذا الشكل حتى يتساوى بؤعد مركز

الثقل العاطفي من الفنان نفسه ومن الآخرين . وفيه لا تصبح القصة شخصية تماماً ، بل تجوس شخصية الفنان خلال القصة ذاتها ، وتحف بالشخوص والأحداث كالبحر الحي المتدفق . وتجذ هذا التطور بسهولة ممثلاً في تلك القصة الشعرية الإنجليزية القديمة « تيرين بطلا » التي تبدأ على لسان البطل وتنتهي على لسان الغائب . ونصل إلى الشكل الدرامي حين تملأ حيوية الفنان التي سبق أن جفت وأحاطت بالشخصيات الأخرى هذه الشخوص من الداخل حتى أن كل شخوص القصة تتخذ حياة جمالية قائمة خفية . وتأخذ شخصية الفنان ، التي كانت أولاً صريحة أو نعمة أو حالة ثم قصة لامعة سيالة ، تأخذ في البعد آخر الأمر بنفسها عن الوجود ، أو تلغي شخصيتها ، إن صح هذا التعبير . والصورة الجمالية في الشكل الدرامي هي الحياة مصفاة ومنعكسة ثانية من الخيال الإنساني . وتم بهذا دورة لغز الجمال ، كمثل الخلق المادي ، ويظل الفنان كالإله ، داخل ما صنعت يده أو خلفه أو وراه أو فوقه ، خفياً ، بعيداً عن الوجود ، لا مبالياً ، يقلم أظافره .

فقال لينش : محاولاً إبعادها عن الوجود هي أيضاً .

وبدأ مطر خفيف يساقط من السماء الملبدة ، وعرجا على مرج الدوق ليصلا إلى المكتبة الوطنية قبل نزول الشايب .

وسأل لينش بغلظة : ماذا تعني بالترفة بين الجمال والخيال في هذه الجزيرة البائسة التي ازدراها الإله ؟ لا عجب إذا انعزل الفنان داخل ما صنعت يده أو خلفه بعد أن يجني على هذا البلد .

واشدد المطر . وحين عبرا المعمر الذي يقع بجانب مبنى « كldار » وجدا كثيراً من الطلاب يحتمون تحت سقف ممشي المكتبة . وكان كرانلي متكئاً على أحد الأعمدة ويحفر في أسنانه بعود ثقاب مدبب وينصت إلى بعض الرفاق . ووقفت بعض الفتيات بالقرب من باب الدخول . وهمس لينش لستيفن : حبيبتك هنا .

واتخذ ستيفن مكانه في صمت على الدرج الذي يقع أسفل مجموعة الطلاب ، غير ملق بالآ إلى المطر الذي اشتد نزوله ، موجهاً بصره تجاهها من آن لآخر . ووقفت هي الأخرى صامته بين رفيقاتها. وجمال في خاطره ، في وعي مرير ، وقد تذكر آخر مرة رآها فيها ، أنه ليس معها قس حتى تغازله . إن لينش على حق . وارتد ذهنه وقد خلا من النظريات ومن الشجاعة إلى هدوء فاتر . وسمع الطلبة يتحدثون . كانوا يتحدثون عن صديقين نجحا في امتحان الطب النهائي ، وعن فرص الحصول على عمل في البواخر العابرة للمحيطات ، وعن الوظائف الغنية والفقيرة .

— كل هذا هراء ، أفضل الأعمال في الريف الأيرلندي .

— لقد قضى هاينز عامين في ليثربول ويقول نفس الشيء . قال إنها كانت كالهوة المخيفة ، لا عمل فيها سوى حالات الولادة .

— أتريد أن تقول انه من الأفضل الحصول على عمل هنا في الريف عن العمل في مدينة غنية كهذه ؟ أعرف صديقاً

— هاينز لا عقل له . إنه لم يصل إلى هدفه لأنه ليس له عقل ، هذا كل ما في الأمر .

— لا تهتم بذلك . في الإمكان جمع ثروة كبيرة من العمل في مدينة تجارية كبرى .

— هذا يعتمد على نوع الزبائن .

• Ego credo ut vita pauperum est simpliciter atrox, simpliciter sanguinarius atrox, in Liverpoolio ^(١)

وبلغت أصواتهم مسامعه كأنها آتية من بعيد في خفق متقطع . كانت تنهياً للذهاب مع رفيقاتها .

(١) « أنا أعتقد أن الحياة الفقيرة في ليفربول تكون ببساطة فظيمة . فظيمة لعينة » .

وانقطع الرذاذ الخفيف ، متمهلاً في تجمعات ماسية بين شجيرات المربع حيث تنفث الأرض المسودة تضرعاتها . وأخذت أحذيتهن الدقيقة تدق حين كن يقفن على درجات البهو ذي الأعمدة ، يتحدثن في هدوء ومراح ، يتطلعن إلى السحب ، حاملات مظلاتهن في زوايا ماكرة يتقن بها نقاط المطر الأخيرة ، ثم يغلقتها ثانية ، وهن يمسن بفساتينهن في رصانة .

وماذا لو كان قد قسا عليها في الحكم ؟ ماذا إن كانت حياتها سلسلة بسيطة من الساعات ، حياتها بسيطة وغريبة مثل حياة الطائر ، مرح في الصباح ، وقلق طوال النهار ، وتعب عند الغروب ! ماذا لو كان قلبها بسيطاً عنيداً مثل قلب الطائر ؟



وصحاً قرب الفجر . آه ، يا لها من موسيقى عذبة . كانت روحها كلها يغطيها الطل النادي . لقد عبرت موجات باردة شاحبة من النور أطرافه في المنام . وورقد ساكناً ، كأنما ترقد روحه وسط المياه الباردة تستشعر الموسيقى العذبة الواهنة . كان ذهنه يصحو في ببطء على عرفان صباحي مرتعد ، إلهام صباحي . لقد غمرته روح صافية كأصفى ما يكون الماء ، عذبة كالطل ، لها سحر الموسيقى . ولكن لشد ما كانت نفثاتها واهنة لا انفعال فيها ، كأنما ينفثها الملائكة أنفسهم فوقه ! كانت روحه تصحو في ببطء ، تخاف لو تصحو كلية كانت الساعة ساعة الهدوء في الفجر حين يستيقظ الجنون وتفتح نباتات غريبة للنور وتطير الفراشة بعيداً في سكون .

نشوة الفؤاد ! لقد كانت ليلة سحرية . لقد عرف نشوة الحياة الملائكية في حلم أو في رؤيا . هل كانت لحظة واحدة من لحظات السحر أم ساعات طويلة ودهوراً ؟

وبدت تنعكس لحظة الإلهام الآن من جميع الجوانب على الفور من جمهرة

ظروف غبشاء من الأحداث التي وقعت أو الأحداث التي قد تقع . وومضت اللحظة كطرف الضياء ، أخذ الآن شكلاً متشابكاً يغطي وهجه في رقعة من سحب فوق سحب من الظروف الغامضة . آه ! لقد اكتست الكلمة لحماً ودماً في رحم الخيال العذري . لقد حضر الملاك جبريل إلى غرفة العذراء . وعمق في روحه غسق جديد ، ذهبته عنه الطلاوة البيضاء ، وعمق إلى نور وردي حاد . إن النور الوردي الحاد هو قلبها العنيد ، غريب غرابية لم يعرفها بشر أو سيعرفها بعد ذلك ، عنيد من قبل بداية العالم ، وقد استهوى ذلك الوهج الوردي الحاد جماعة الملائكة فسقطوا من السماء .

ألس متعباً من وسائلك الحارة

يا هوى الملائكة الساقطين

لا تحك بعد اليوم عن الأيام الساحرة

وعبرت أبيات الشعر من ذهنه إلى شفتيه ، ورددتها عدة مرات ، وشعر بالحركة الإيقاعية لقصائد الفيلانيل^(١) تمر خلالها . وبعث الوهج الوردي أشعة قوافيه : حارة - ساحرة ، قلوب - لهيب . وأحرقت أشعتها الدنيا . وأفنت قلوب الإنس والملائكة . أشعة الوردية التي هي قلبها العنيد .

لقد أشعلت عينك من الرجال القلوب

وأصبح ملكاً لك في كل شيء

ألس متعباً من وسائلك الحارة ؟

ثم ماذا ؟ مات الإيقاع ، توقف . وبدأ يتحرك ويخفق ثانية . ثم ماذا ؟ دخان ، بخور يتصاعد من مذبح العالم .

يرتفع دخان المذبح فوق اللهب

من طرف المحيط إلى أقصاه

لا تحك بعد اليوم عن الأيام الساحرة

(١) نوع من القصائد يحتوي على ثمانية عشر بيتاً وقافيتين .

وارتفع الدخان من كل الأرض ، من المحيطات المبخرة ، دخان مديحها .
وكانت الأرض مثل المبخرة المتأيلة الراقصة ، كرة من البخور ، كرة إهليلجية .
ومات الإيقاع على الفور ، واختنقت صيحة فؤاده . وبدأت شفتاه تهملان
الأشعار الأولى مراراً وتكراراً ، ثم انتقل منها متعثراً في أنصاف أشعار ،
مترنحاً محبطاً ، ثم توقف . لقد اختنقت صيحة فؤاده .

ومرت الساعة النقباء التي لا ريح فيها وبدأ يتجمع نور الصباح خلف أعراس
النافذة العارية ورن جرس رنيناً واهناً بعيداً جداً . وغرد طائر ، طائران ،
ثلاثة طيور . وانقطع رنين الجرس وتفريد الطيور ، ونشر النور الأبيض السقيم
نفسه شرقاً وغرباً ، مغطياً النور الوردي الذي يغمر فؤاده .

وخاف أن يفقد كل شيء ، فنهض فجأة وارتكز على مرفقه يبحث عن ورقة
وقلم . ولم يكن أي منهما على المائدة ، بل وجد هناك طبق الحساء الذي كان
يأكل الأرز منه في العشاء ، والشمعدان بخيوط الشمع والثقب الورقي وقد تركت
ذبالة الشعلة أثرها عليه . ومد ذراعه متعباً ناحية آخر السرير ، منقباً بيده في
جيوب المعطف المعلق هناك . وعثرت أصابعه على قلم وعلبة سجائر . وتمدد
ثانية وفتح العلبة ووضع آخر سيجارة فيها على حافة النافذة وبدأ يكتب
كوبليهاث القلائيل في حروف صغيرة منمقة على سطح البطاقة الخشن .

وبعد أن كتبها رقد مرة أخرى على الوسادة الخشنة وهو يهمهم بها ثانية .
وأعادت خشونة جزز الصوف المعقودة تحت رأسه إلى ذاكرته جزز شعر الخيل
المعقودة في الأريكة التي في ردهة منزلها والتي كان يجلس عليها ، مبتسماً أو
جاداً ، سائلاً نفسه لماذا جاء ، غاضباً منها ومن نفسه ، مضطرباً من صورة القلب
المقدس على الصوان الخالي . وراها تقرب منه في هدهدة من الحديث وتطلب
منه أن يغني إحدى أغانيه العجيبة . ثم رأى نفسه جالساً إلى البيان القديم ،
يضرب الأوتار برقة على مفاتيحه الرقطاء ويغني وسط الحديث الذي ارتفع ثانية
في الغرفة ، يغني لها تلك التي المُنحت إلى جانب المدفأة أغنية حلوة من العصر

الأليزابيتي ، شكوى حزينة عذبة من الفراق ، أنشودة انتصار أجينكورت ، ولازمة جرينسليف المرححة . وبينما كان يغني وهي تنصت أو تتظاهر بالإنصات كان قلبه هادئاً ، ولكن حين انتهت الأغاني القديمة وسمع الأصوات ثانية في الغرفة تذكر ما كان يقوله ساخراً من أن هذا هو المنزل الذي يدعى فيه الشبان بأسمائهم الأولى بعد فترة أقصر من اللازم .

وكانت عيناها تبدوان في لحظات معينة على وشك أن تثقا فيه ، ولكنه انتظر دون جدوى . وعبرت الآن ذاكرته متراقصةً في خفة كما كانت تلك الليلة في حفلة الكرنفال الراقصة ، وثوبها الأبيض مرفوع قليلاً ، ورذاذ أبيض يخفق بين شعرها . ورقصت في الحلبة في خفة . كانت ترقص متجهة نحوه ، وكانت عيناها تعرضان عنه قليلاً حين تقترب منه ؛ بينما وهج واهن يلتصق فوق خديها . وعندما توقف الرقص ، وتشابكت الأيدي ، لمست يداها يديه برهة ، سلعة رقيقة .

– إنك غريب عظيم الآن .

– أجل . إنني راهب طبيعي .

– أخشى أن تكون كافراً .

– أتحشين ذلك كثيراً ؟

وردأ على سؤاله رقصت مبتعدة عنه على طول الأيدي المتشابكة ، ترقص في خفة وفي رصانة ، ولا تعطي نفسها لأحد . وخفق الرذاذ الأبيض لرقصها ، ويعمق الوهج على خديها حين تكون في الظل .

راهب ! وبرزت صورته إلى الأمام ، دنيوي داخل دير ، فرانسيسكي كافر ، يريد ولا يريد أن يخدم الدين ، ينسج مثل « جيرار دينو دابورجو سان دونينو » نسج سفسائية لينا ويهمس في أذنيها .

كلا ، لم تكن صورته . بل هي أشبه بصورة القس الشاب الذي رآها بصحبته أخيراً ، تنظر إليه بعيني يمامة وهي تعبت بصفحات كتابها عن الجمل الأيرلندية .

- أجل ، أجل النساء يقتربن منا ، أستطيع أن أرى ذلك كل يوم . النساء معنا . أفضل عون يمكن للغة أن توفره .
- وماذا عن الكنيسة أيها الأب موران ؟
- والكنيسة أيضاً تقترب منا . العمل يتقدم هناك أيضاً . لا تقلقي على الكنيسة .

هراء ! لقد أحسن صنعاً حين ترك الغرفة احتقاراً . لقد أحسن صنعاً حين لم يجيئها على درج المكتبة ، لقد أحسن صنعاً حين تركها لتغازل القس ، ولكي تعبت بكنيسة هي مثل كرار المسيحية .

وقذف الغضب الحاد البهيمي بلحظات النشوة المتلكئة الأخيرة من روحه ، وحطم صورتها الجميلة بقسوة وألقى بالحطام في كل الأنحاء . وانبعثت من ذاكرته إلى كل الأنحاء انعكاسات مشوهة لصورتها : فتاة الزهور ذات الشياب المزقة والشعر الحشن الرطب والوجه الفظ التي دعت نفسها فتاته وطلبت إحسانه ، خادمة المنزل المجاور التي تغني على انصفاق أطباقها مع ثغثة المغني الريفى الألمان الأولى من أغنية « عند بحيرات ومروج كيلارني » ؛ الفتاة التي ضحكت في بهجة حين رأته يتماثر إذ يشتبك نعل حدائه الممزق بالمشبك الحديدي في الممر عند « كورك هيل » ؛ فتاة نظر إليها وجذبه فمها الصغير الريان حين كانت خارجة من مصنع « يعقوب » للبسكويت والتي صاحت به من وراء ظهرها :

- هل يعجبك ما تراه مني ، الشعر المبسوط والحاجبان المعقودان ؟
غير أنه شعر أنه مهما سبها وسخر من صورتها، فإن غضبه هذا شكل من أشكال الخضوع . وقد ترك قاعة الدرس في ازدراء لم يكن مخلصاً تماماً وهو يشعر أنه ربما يكن سر جنسها وراء هاتين العينين السوداوين اللتين تلقي رموشها الطويلة ظللاً سريعة عليهما . لقد أخبر نفسه في مرارة ، إذ كان يجوب خلال الطرقات ، أنها شكل من أشكال جنس النساء في هذا البلد ، روح خفاشية تستيقظ على الوعي بنفسها في ظلمة وفي خفية ووحدة ، متمهلة قليلاً ، دون حب أو خطيئة ،

ومعها حبيبها الوديع ، وتتركه لكي تهمس في آذان قس عن تجاوزات بريئة .
ووجد غضبه منها متنفساً في لعنات قاسية موجهة إلى حبيبها الذي يسيء اسمه
وصوته وملاحظه إلى كبرائه المحبط ؛ ريفي قسسي ، له أخ يعمل شرطياً في دبلن
وأخ نادل حانة في « موي كولن » . سوف ترفع له النقاب عن عري روحها
الخبيل ، إلى شخص لم يتعلم سوى إلقاء الطقوس الجامدة ، ولن ترفعه له هو ،
قس الخيال الخالد ، الذي يحول خبز التجربة اليومي إلى الجسد المضيء لحياة
خالدة .

وحدث مرة أخرى صورة القربان المقدس المضيئة بين أفكاره المريرة
والبائسة ، وارتفعت صيحاتها سليمة في ترنيمة شكر .

صيحاتنا المحطومة وأغانينا المريرة

ترتفع في ترنيمة شكر واحدة

ألست متعباً من الوسائل الحارة ؟

وإذ ترتفع الأيدي المضحية

تمتلئ الكأس المقدسة لحافتها

لا تحك بعد اليوم عن الأيام الساحرة

ونطق بالأبيات من السطور الأولى حتى خضبت الموسيقى والإيقاع ذهنه ،
وحولاه إلى انغماس هادىء في الموضوع ، ثم كتبها في مشقة لكي يشعر بها أفضل
حين يراها ، ثم تمدد ثانية على الوسادة .

وغمر نور الصبح الكون . ولم يكن يُسمع من صوت ، ولكنه أدرك أن
الحياة كلها من حوله على وشك الاستيقاظ في ضجيجها العادي وأصواتها الخشنة
وصلواتها الناعسة . وتحول ناحية الحائط مجفلاً من هذه الحياة ، مغطياً رأسه
بالملاءة ومحدقاً في زهور أوراق الحائط الممزقة العظيمة الذابلة القرمزية . وحاول
أن يدفىء من بهجته الداوية في وهجها القرمزي ، وهو يتخيل ممراً وريدياً يصعد

منه إلى السماء مباشرة مبطناً كله بالزهور القرمزية . متعب ! متعب ! كان هو أيضاً متعباً من الوسائل الحارة .

وطاف به دفء تدريجي وتعب متخاذل ، ماراً عبر عموده الفقري من رأسه المغطى بإحكام . وشعر به يهبط . وابتسم حين رأى نفسه وهو يرقد . سينام حالاً .

لقد كتب فيها شعراً مرة أخرى بعد عشر سنوات . منذ عشر سنوات ، كانت ترتدي وشاحاً مشدوداً حول رأسها ، مرسله رذاذ شذاها الدافئ في هواء الليل ، تدق الأرض الزجاجية بقدمها . لقد كانت العربية الأخيرة ، وكأنا عرفت الجياد العجفاء الداكنة ذلك ، فأخذت تهز أجراسها في تلك الليلة الصافية تنبيهاً للناس . وكان قاطع التذاكر يتحدث مع السائق ويومئان مراراً على ضوء المصباح الأخضر . ووقفاً على درج العربية ، هو على الدرجة العليا وهي على السفلى . وصعدت إلى درجته مرات عديدة وعادت إلى درجتها ثانية حين كانا يتبادلان الحديث ، ووقفت مرة أو مرتين يجواره في الدرجة العليا بضع لحظات ناسية أن تنزل ، ثم تهبط ثانية . ما أهمية ذلك الآن ! عشر سنوات تفصل بين حكمة الطفولة وحماقته الحالية . وماذا لوبعث لها بالأشعار ؟ ستقرأها على الإفطار وسط قرع قشر البيض . حقاً يا لها من حماقة ! سيضحك إخوتها ويجاولون أن يتخاطفوا الورق من أحدهما بأصابعهم القوية الحادة . وسيبسط القس الدمث ، عمها ، الورقة على طول ذراعه وهو جالس في مقعده الكبير ويقرأها مبتسماً ويقرظها من حيث الشكل الفني .

كلا ، كلا ، هذه حماقة . وحتى إذا أرسل لها الأشعار فلن تريها للآخرين . كلا ، كلا ، لن تستطيع ذلك .

وبدأ يشعر أنه قد ظلمها . ودفعه إحساس ببراءتها إلى الشفقة عليها ، براءة لم يفهمها أبداً حتى بدأ يتعرف عليها عن طريق الخطيئة ، براءة لم تفهمها هي أيضاً حين كانت بريئة أو قبل أن ينزل بها إذلال طبيعتها الغريب أول مرة . وحينئذ بدأت روحها أولاً تعيش كما عاشت روحه حين أخطأ أول مرة ، وغمر

قلبه عطف رقيق حين تذكر شحوبها الواهن وعينيها ، خاضعة حزينة من عار النساء المظلم .

وحين عبرت روحه من النشوة إلى الفتور ، أين كانت هي ؟ قد يكون -
بطريقة غامضة من طرز الحياة الروحية - قد تكون روحها في نفس هذه
اللحظات واعية لخضوعه لها ؟ قد يكون .

وأشعل وهج الرغبة روحه ثانية وأشعل كل جسده وأفعمه . لا بد أنها
أحست برغبته ، وتستيقظ من النوم العاطر ، غانية أشعاره الثيلانية .
وفتحت عينيها السوداوين وفيها نظرة كلال على عينيها ، واستسلم عريها له ،
مضيئاً دفيناً عطراً ، لدن الأطراف ، وضمه كالسحابة اللامعة . وضمه كالماء ،
كحياة سيالة ، وانسابت إلى ذهنه حروف الكلم السيالة ، رموز عنصر الإنغاز ،
مثل سحابة البخار أو مثل المياه المحيطة بالفضاء .

ألست متعباً من الوسائل الحارة
يا هوى الملائكة الساقطين
لا تحك بعد اليوم عن الأيام الساحرة
لقد أشعلت عينك من الرجال القلوب
وأصبح ملكاً لك في كل شيء
ألست متعباً من الوسائل الحارة ؟
يرتفع دخان المديح فوق اللهب
من طرف المحيط إلى أقصاه
لا تحك بعد اليوم عن الأيام الساحرة
صيحاننا المحطومة وأغانينا المريرة
ترتفع في ترنيمه شكر واحدة
ألست متعباً من الوسائل الحارة ؟

وإذ ترتفع الأيدي المضحية
تلاً الكأس المقدسة لحافتها
لا تحك بعد اليوم عن الأيام الساحرة
وما زلت تحتفظين بسحرك المهيّب
بنظرة فاترة وأطراف لدنة
ألسمت متعباً من الوسائل الحارة ؟
لا تحك بعد اليوم عن الأيام الساحرة

★

أي طيور كانت ؟ وقف على درجات المكتبة ينظر إليها ، مرتكز آفي
إرهاق على عصاه . كانت تطير هنا وهناك حول طرف أحد المنازل بشارع
« مولسن ورت » . وساعد هواء مساء مارس طيرانها ، وأجسادها المظلمة
المرتعشة المنطلقة تطير في وضوح في صفحة السماء كأنما هي تمّاش ناعم من
الزرقة الحافّة الدخانية .

وراقب طيرانها ، طيراً وراء طير ، ومضة مظلمة ، مروقاً ، خفقة أجنحة .
وحاول أن يحصيها قبل أن تختفي أجسادها المنطلقة المرتعشة : ستة ، عشرة ،
أحيد عشر ؛ وتساءل عما إذا كانت زوجية العدد أم فرديته . اثنا عشر ،
ثلاث عشر ، فقد أقبل اثنان يرقان من أعماق السماء . كانت تطير عالية
ومنخفضة ولكن في خطوط مستقيمة ومتعرجة على الدوام ، تطير دائماً من
الشمال إلى اليمين ، تحوم حول معبد من معابد الهواء .

وأنصت إلى صيحاتها ، مثل صراخ الفئران وراء ألواح الخشب ، صوت
حاد مضاعف . ولكن الأصوات كانت طويلة وحادة وذات طنين ، مخالفة
لصيحات الدود ، تنطلق في ثلاثة أو أربعة وتزغرد حين تشق المناقير الطائرة

الهواء . كانت صيحاتها حادة واضحة لطيفة وتنتقل كخيوط نور حريري يتفكك عن ملفه الدوار .

وهذا الصخب الحيواني من مسامعه التي كانت تطن دوماً بنشيج والدتاه ولومها ، وهذا مشهد الأجساد المظلمة الواهنة المرتعشة تنطلق وتحقق وتمرق حول معبد هوائي في السماء الخافتة من ناظره الذي كان ما يزال عالقاً به صورة وجه أمه .

لماذا يجهلق إلى أعلى من على درجات الرواق ، يستمع إلى صيحاتها الحادة المضاعفة ويراقب طيرانها ، النبوءة حسنة أم سيئة ؟ وطافت على ذهنه عبارة من « كورنيليوس أجريبيا » ، ثم طافت هنا وهناك أفكار لا شكل لها من سويد.نبرج عن مراسلات الطيور إلى أمور الفكر وكيفية حصول المعرفة للخلوقات الهواء وإدراكهم لأوقاتهم وفصولهم ، لأنهم - على نقيض الإنسان - على طبيعة أمرهم وسجيتها ، ولم يفسدوا هذه الطبيعة بالنظام أو بالعقل .

وقد حملق الإنسان دهوراً ودهوراً إلى أعلى لمراقبة الطيور كما يفعل الآن . وبعث الرواق الذي يرتفع أمامه إلى فكره في غموض بصورة معبد قديم، والعصا التي يستند إليها بعضا متنبئ ملتوية . وتحرك إحساس بالخوف من المجهول في قرار تعب ، خوف من الرموز والنذير ، من الرجل الذي يشبه البازي والذي يحمل اسمه ينطلق من أسره على أجنحة مصنوعة من خوص الصفصاف ، من « ثوث » إله الكتّاب ، يكتب بقصبة غاب على لوح ويحمل على رأسه الضيق الطيري القمر المتوج .

وابتسم حين فكر في صورة الإله ، فقد جعلته يفكر في قاضٍ بشعره المستعار وأنفه القاروري ، يضع الفواصل في وثيقة يرفعها على امتداد ذراعه ، وأدرك أنه لو لم يكن إسم الإله يطابق قسماً أيرلندياً لما أمكنه أن يتذكره . كان ذلك حقاً . ولكن ، أمن أجل تلك المحاقة يوشك الآن أن يترك إلى الأبد موطن الصلاة والبصيرة الذي ولد فيه ونظام الحياة الذي نتج عنه ؟

وعادت الطيور ثانية بصيحاتها الحادة على أطراف المنزل تطير مظلمة عبر الهواء الداوي . أي طيور كانت ؟ أعتقد أنها طيور الخطاف وقد عادت من الجنوب . ثم كان عليه أن يرحل ، لأنها كانت طيوراً تذهب وتجيء على الدوام ، تبني دائماً أعشاشاً غير دائمة تحت أطراف منازل الإنسان وترحل دائماً عن الأعشاش التي بنتها لكي تجول .

إحنيا وجهيكما يا أونا ويا أليل
أحملق فيها كما يحملق الخطاف
في العش تحت طرف البيت
قبل أن يجول في المياه الصاخبة .

وانبثقت في ذاكرته بهجة رقيقة سيالة مثل صخب مياه دفاقة ، وشعر في فؤاده بالهدوء الرقيق السلمي للفضاءات الساكنة ، للسماء الداوية الخافتة فوق المياه ، للسكون المحيطي ، للخطافات تطير عبر غبشة البحر فوق المياه الدافقة .

وظافت بهجة رقيقة سيالة خلال الكلمات التي تهب فيها الحروف المتحركة الطويلة الرقيقة دون صخب ثم تسقط ثانية ، منثنية ، ثم تتدفق ثانية وتهز أبدأ أجراس موجاتها البيضاء ، في رنين أخرس وصلصلة خرساء وصيحة غاشية رقيقة خفيفة . وشعر أن النبوءة التي نشدها في الطيور المنطلقة السارية وفي فضاء السماء الشاحب فوقه قد انبثقت من فؤاده مثل إنبثاق الطير من أحد أبراجه ، في هدوء وفي خفة .

رمز الرحيل أم رمز العزلة ؟ ورننت الأشعار في آذان ذاكرته وهي تشكل أمام ناظره المتذكر منظر الردهة في ليلة افتتاح المسرح الوطني . كان وحيداً في جانب البلكون ، ينظر من عيون خابية إلى ثقافة دبلن وهي تجلس على المقاعد وإلى ملابس التمثيل المبهرجة والعرائس الآدمية التي تحيط بها الأضواء الباهرة على المسرح . وكان خلفه رجل شرطة ينضح عرقاً ويبدو كل لحظة وكأنه

سيقوم بوظيفته . وملاً القاعة المواء والأزيرن وصيحات السخرية في هتافات حادة من زملائه الطلبة :

- قذف في حق أيرلندا !

- صنع في ألمانيا .

- كفر .

- لم نبع ديننا أبداً .

- لم تفعل امرأة أيرلندية هذا من قبل أبداً .

- لا نريد كفاراً هواة .

- لا نريد بوذيين جدداً .

وترامى إليه أزين من النافذة وأدرك أن المصاييح الكهربية قد أضيئت في قاعة القراءة بالمكتبة . وتحول إلى ردهة الأعمدة وقد أضيئت الآن إضاءة هادئة ، وصعد إلى الطابق الأعلى ومر من الحاجز الدوار الدقاق .

كان كرانيي يجلس بالقرب من القواميس ، وأمامه على اللوح الخشبي كتاب سميك مفتوح على الرسم الأمامي . وانحنى إلى الخلف في مقعده ، ضاغطاً أذنه كما يفعل المعترف نحو وجه طالب الطب الذي كان يقرأ له إحدى مسائل الشطرنج من صفحة إحدى الصحف . وجلس ستيفن على يمينه . وأغلق القس الذي يجلس على الجانب الآخر من المنضدة نسخة « اللوح » بدقة غاضبة ونهض .

وتطلع كرانيي خلفه في بلادة وغموض . واستمر طالب الطب في قراءته في صوت أكثر رقة :

- البيدق إلى خانة الملك الرابعة .

فقال ستيفن محذراً : أفضل لنا أن نذهب يا ديكسون ، فقد ذهب يشكونا .

وطوى ديكسون الجريدة ونهض في هزيمة قائلاً :

- وعادت قواتنا إلى مقرها سالمة .

فأضاف ستيفن وهو يشير إلى عنوان كتاب كرانيي الذي كتب عليه « أمراض

الثيران « : محملين بالبندق والماشية .

وبينما كانوا يعبرون صفوف الموائد قال ستيفن :

– أود أن أتحدث معك يا كرانلي .

ولم يحب كرانلي أو يستدر . ووضع كتابه على المكتب وخرج وقدماه
المغطاتان بالصوف تدقان في فتور على الأرض . وتوقف أسفل الدرج وحلق في
ذهول إلى ديكسون وردد :

– البيدق إلى خانة الملك الرابعة اللينة .

فقال ديكسون : كما تريد .

كان صوته هادئاً لا نغمة فيه وأخلاقه مهذبة ويرتدي في إصبع من أصابع
يده النظيفة السمينة خاتماً منقوشاً باسمه . وحين كانوا يعبرون الردهة اتجه نحوهم
رجل ذو بنية قرمزية . وبدا وجهه غير الحليق يبتسم في سرور تحت قبة قبعته
الدقيقة ، وسمعوا همهاته . وكانت عيناه كئيبتين كعيني القرد .

قال الوجه الشانك القردى : مساء الخير يا سادة .

فقال كرانلي : جو دافىء بالنسبة لشهر مارس . لقد فتحوا النوافذ في
الطابق الأعلى .

وابتسم ديكسون وأدار خاتمه . ولوى الوجه الأسود ذو التجاعيد القردية
فمه الآدمي في سرور رقيق وبدأ صوته يهر : جو بهيج في مارس ، بهيج للغاية .

قال ديكسون : هناك آنستان لطيفتان أتعبهما الانتظار في الطابق الأعلى
يا كابتن .

فابتسم كرانلي وقال في عطف : للكابتن غرام واحد فقط : السير « وولتر
سكوت » . أليس كذلك يا كابتن ؟

فسأل ديكسون : ماذا تقرأ الآن يا كابتن : « عروس لامرمرور » ؟

فقال الشفتان المرتنان : إني أحب سكوت القديم ، أعتقد أنه كتب أشياء
جميلة . ليس هناك من كاتب يقارن بسير « وولتر سكوت » .

ولوح في الهواء في رقة بيده النحيلة المتقلصة البنية ليؤكد مديحه بينما تخفق رموشه النحيلة السريعة على عينيه الحزينتين .

وكان حديثه أشد بعثاً للحزن في قلب ستيفن ؛ لهجة مهذبة ، خفيضة ندية مملوءة بالأخطاء . وتساءل وهو يستمع إليه هل حقاً ما يشاع عن أن الدم الذي يسري في جسده المتقلص دم أزرق نتج عن حب بين المحارم ؟ كانت أشجار المنتزه مثقلة بالمطر ، والمطر ما يزال يتساقط على الدوام في البحيرة التي تتبسط مثل الدرع . وعبر فيها سرب من البجع ، وتمكرت المياه والساطع من حائط النور الضيق الخضم صر : كانا يتعانقان في رقة ، دعاهما إلى ذلك العناق النور الرمادي الممطر ، والأشجار المبتلة الصامتة ووجود البحيرة التي تشبه الدرع ، والبجعات . كانا يتعانقان دون لذة أو عاطفة ، وذراعاه حول رقبة أخته . وكانت عباءة صوفية رمادية ملفوفة عليها من الكتف حتى الحصر وكان رأسها منحنيًا في خجل إرادي . وكان شعره مرسلًا أحمر بنيًا ويده رقيقتي التكوين قويتين . ووجهه ؟ لم يكن يرى له وجه . كانت وجه الأخت منحنيًا على شعرها الجميل المحمل بالمطر . وكانت اليد المنمشة القوية الرقيقة المهدهدة هي يد دافن .

وعبس في غضب من أفكاره ومن القزم المنكسر الذي بعثها في ذهنه . وقفز إلى ذاكرته مراح والده مع جماعة « البانثري » . وأبعدها عن ذهنه وعكف يفكر في قلق على فكرته السابقة مرة أخرى . لما إذا لم يكونا يدي كرانلي ؟ هل آلمته بساطة دافن وبراءته في خفية أكثر ؟ وسار عبر الردهة مع ديكسون ، مخلفين كرانلي للاستئذان في براءة من القزم .

وعند الأعمدة كان « تمبل » واقفًا وسط مجموعة صغيرة من الطلاب . وصاح واحد منهم :

— تعال يا ديكسون لكي تسمع ، إن تمبل في أحسن مزاج .

وأدار « تمبل » عينيه السوداوين العجريتين نحوه وقال :

– إنك منافق يا « أو كيف » ، وديكسون بشوش . بحق الجحيم ، أعتقد أن هذا تعبير أدبي طيب .

وضحك في خبث ، وهو ينظر في وجه ستيفن ويردد :

– بحق الجحيم ، إني أحب هذه الصفة ، بشوش .

وقال طالب بدين كان يقف تحتهم على الدرج : عد إلى حكاية المشيقة يا تمبل . نريد أن نسمعها .

فقال تمبل : كان له واحدة . وكان فوق ذلك متزوجاً . وكان جميع القسس معتادين على الغداء هناك . بحق الجحيم ، أعتقد أنهم يفعلون ذلك كلهم .

فقال ديكسون : نحن ندعو ذلك « ركوب الحمار لتوفير الجواد » .

فقال « أو كيف » : اخبرنا يا تمبل كم من أرباع الجالونات من البيرة السوداء يحتويها بطنك ؟

فقال تمبل في ازدراء واضح : إن روحك المفكرة كلها في هذه العبارة يا أو كيف .

وسار في عرج خفيف حول المجموعة وتحدث إلى ستيفن وسأله :

– هل علمت أن آل فورستر هم ملوك بلجيكا ؟

وأقبل كرانلي من باب مدخل الردهة وقبعته ملقاة على قذاله وهو ينظف أسنانه بعناية .

وقال تمبل : وما هو المتفلسف . هل تعلم ذلك عن آل فورستر ؟

وصمت انتظاراً للرد . وأزاح كرانلي بذرة تين من بين أسنانه بطرف عود سواكة وحلق فيها في إمعان .

قال تمبل : تنحدر أسرة فورستر من بولدوين الأول ملك الفلاندرز ، وكان يدعى فوربستر . وفوربستر وفورستر هما نفس الاسم . واستقر سليل لأسرة بولدوين الأول وهو الكابتن فرانسيس فورستر في أيرلندا وتزوج ابنة آخر عميد

لأسرة كلانبراسيل . ثم هناك آل بليك فورستر ، وهم فرع آخر .
فردد كرانلي وهو ينبش في إصرار مرة أخرى في أسنانه اللامعة المكشوفة :
- من بولدهيد ^(١) ، ملك الفلاندرز .

وسأل « أو كيف » : من أين لك كل هذه المعلومات التاريخية ؟
فقال تمبل وهو يستدير إلى ستيفن : إني أعلم التاريخ الكامل لعائلتك أيضاً .
هل تعلم ماذا يقول « جيرالدوس كامبرنسس » عن عائلتك ؟
فسأل طالب طويل مصدور له عينان سوداوان : أهو سليل بولدين أيضاً ؟
فردد كرانلي وهو يمتص فجوة ما بين أسنانه : بولدهيد .

فقال تمبل لستيفن : *Pernobilis et pervetusta Familia* ^(٢) .
وأطلق الطالب البدن الذي يقف تحتهم على الدرج ريحاً خفيفاً . وتحول
ديكسون نحوه وقال في صوت رقيق :
- هل يتكلم أحد الملائكة ؟

وتحول كرانلي أيضاً نحوه وقال في حدة ولكن بدون غضب :
- جوجنز ، أتعلم أنك أكثر الشياطين الذين قابلتهم ناريةً وقدارة .
فأجاب جوجنز في ثبات : لقد قلت ما كنت أفكر فيه . إني لم أصب أحداً
بضرر ، أليس كذلك ؟

فقال ديكسون بدمائة : نأمل ألا تكون من ذلك النوع المعروف باسم
Paulo Post Futurum ^(٣) .

فقال تمبل وهو يلتفت بمنبة ويسرة : ألم أقل لكم أنه بشوش . ألم أطلق عليه

(١) معناها « الرأس الأصلع » وهي تورية على كلمة « بولدين » .

(٢) « أسرة شهيرة جداً وعريقة جداً » .

(٣) « بعد المستقبل بقليل » .

هذه الصفة ؟

فقال المصدر الطويل : أجل قد فعلت ذلك . لسنا أصميين . وكان كراني لا زال عابساً في وجه الطالاب البدين الذي يقف تحتهم ، ثم دفعه أسفل الدرج في عنف وهو يطلق خوار ازدراء . وقال له في حدة : إبتعد عن هنا . إذهب أيها النتن . وإنك لنتن حقاً .

وقفز جوجنز إلى أسفل حتى وصل إلى الرمال ثم عاد على الفور إلى مكانه في مزاج حسن . وإلتفت إلى ستيفن وسأله : هل تؤمن بقانون الوراثة ؟ فسأله كراني وهو يواجهه بتمبير تعجب : أنت مثل أو ما أنت أو ماذا تحاول أن تقول ؟

فقال تمبل في حماس : إن أكثر العبارات المكتوبة عمقاً هي العبارة التي في آخر كتاب علم الحيوان ؛ إن التوالد هو بداية الموت . ولمس ستيفن في وجل عند مرفقه وقال له في لهفة :
- هل تشعر كم هي عميقة بما أنك شاعر ؟
وبسط كراني سبابته الطويلة نحوه وقال للآخرين في ازدراء :
- انظروا إليه . انظروا إلى أمل أيرلندا !

وضحكوا من كلامه وإشارته . والتفت تمبل نحوه بشجاعة قائلاً :
إنك تسخر مني دائماً يا كراني . إنني أدرك ذلك . ولكني لا أقل عنك شيئاً بأي حال . هل تدري بماذا أفكر فيك الآن عند مقارنتك بي ؟

فقال كراني في أدب : يا رجلي العزيز ، أتدري إنك لا تقدر ، لا تقدر أبداً على التفكير .

فاستمر تمبل يقول : ولكن أتدري بماذا أفكر فيك وفي نفسي عند المقارنة بيننا ؟

وصاح الطالاب البدين من على الدرج : علينا بها يا تمبل . قلها لنا كلمة كلمة !

والتفت تمبل يئمة ويسرة وهو يقوم بإشارات واهنة مفاجئة وهو يتحدث .
وقال وهو يهز رأسه في يأس : إنني مغفل . إنني كذلك وأنا أعرف ، وأعترف
أنني كذلك .

وربت ديكسون على كتفه بلطف وقال في وداعة :

— وهذا ما يزيدك شرفاً يا تمبل .

فقال تمبل وهو يشير إلى كرانلي ، غير أنه هو مغفل كذلك مثلي . ولكن
الفرق أنه لا يعرف ذلك . وهذا هو الفارق الوحيد الذي أراه .

وغطت موجة من الضحك على كلماته . ولكنه التفت ثانية إلى ستيفن وقال
في لهفة مفاجئة : هذه الكلمة غاية في العجب . إنها العدد الزوجي الانجليزي
الوحيد . أتعلم ذلك ؟

فقال ستيفن في غموض : أحقاً ؟

كان يلحظ وجه كرانلي ذا الملامح الثابتة وهو يقاسي ، وقد أضاعته الآن
إبتسامة اصطبار زائف . لقد مر اللقب الجارح عليه مثل إنصباب الماء القدر
على تمثال قديم من الحجر ، مصطبراً على المكاره . وإذا كان يلحظه ، رآه يرفع
قبعته محيياً ويكشف شعره الأسود الذي يقف عند جبهته متصلباً مثل التساج
الحديدي :

عبرت ممر المكتبة وانحنت تجاه ستيفن رداً على تحية كرانلي. أهو أيضاً ؟ ألم
يجل إحمرار خفيف على وجنة كرانلي ؟ أم هل كان ذلك راجعاً إلى كلمات تمبل ؟
لقد ذوى الضوء . لم يعد باستطاعته أن يرى .

أهذا يفسر صمت صديقه الفاتر ، وتعليقاته الجارحة ، وإدخاله المفاجيء
للعبارات الجافة التي كان يحطم بها إعتراقات ستيفن الحارة العنيدة ؟ وقد غفر
ستيفن له بسخاء لأنه وجد نفس الغلظة في نفسه هو أيضاً . وتذكر الأمسية التي
ترجل فيها من على دراجة قديمة مستعمارة لكي يصلي إلى الله في إحدى الغابات

بالقرب من « مالاheid » . لقد رفع ذراعيه وتكلم في نشوة إلى محور الأشجار المعتم وهو يعلم أنه يقف على أرض مقدسة وفي ساعة مقدسة . وحين ظهر جنديان عند منحى الطريق الكثيب قطع صلاته وأخذ يصفر عالياً بأحد ألحان التمثيلية الحركية الأخيرة .

وبدأ يضرب طرف عصاته المتآكل على أرضية أحد الأعمدة . ألم يسمعه كرانلي ؟ ومع ذلك فبإمكانه أن ينتظر . وانقطع الحديث الدائر حوله لحظة وسمع حفيف خفيف مرة أخرى من نافذة الطابق العلوي . ولكن لم يكن من صوت آخر في الهواء ، ونامت الخطاطيف التي كان يراقب طيرانها بعيون فائترة .

لقد مرت خلال العتمة . وعلى ذلك فإن الهواء ساكن إلا من حفيف خفيف واحد . وعلى ذلك فقد سكنت الألسنة من حوله عن هذرها . كانت الظلمة تسقط .

الظلمة تساقط من الهواء .

ولعبت بهجة مرتعدة كالمضيف السحري من حوله ، براقعة كالنور الواهن . ولكن لماذا ؟ أمن أجل مرورها خلال الهواء المعتم أو الشعر بجروفه المتحركة السوداء ورنته العريضة الغنية التي تشبه رنة العود ؟

وسار في بطاء ناحية الظلال الأكثر عمقاً عند نهاية الرواق ، يضرب الأحجار بعصاه في رفق لكي يخفي إستغراقه في الفكر عن الطلبة الذين غادرهم ، وسمع لذهنه أن يستحضر عصر « داولاند » « وبيرد » « وناش »^(١) .

عيون تتفتح من ظلمات الرغبة ، عيون أظلمت شروق الفجر . ما طلاوتها المتراخية إلا رقة مصطنعة ، وما تألقها إلا تألق الرغوة التي تغطي بالوعة بلاط الملك ستيوارت المهذار . وذاق من خلال لغة الذاكرة الأنبذة المعنبرة ، الخفقات

(١) من شعراء العصر الاليزابيتي في إنجلترا .

الأخيرة للأحان العذبة ، الرقصات المزهوة ؛ ورأى بعيني الذاكرة السيدات المهذبات العطوفات في « كوفنت جاردن » يتوددن من مقاصيرهن بشفاه إمتصاصية ، وصبايا الحانات ذوات البثور والزوجات الشابات يستسلمن للغواة يداعبوهم مراراً ومرات .

ولم تبعث فيه الصور التي استدعاها لذهنه أي مسرة . كانت صور خفية ملهبة ولكن صورتها لم تكن مشتبكة بها . ليست هذه بالطريقة التي يجب أن يفكر بها فيها ، بل ليست بالطريقة التي فكر فيها قبل ذلك . ألا يثق ذهنه بنفسه إذن ؟ عبارات قديمة ، ليست بالجميلة إلا الجمال الذي يكشف عن الخبوء مثل بذور التين التي ينزعها كرانلي عن أسنانه اللامعة .

لم تكن بأفكار أو رؤى ، رغم أنه يعلم علماً مبهماً أن شخصها يتجه إلى المنزل خلال المدينة . وشم جسدها بغموض أولاً ثم بحدة أكثر . وغلى قلق واء في دمائه . أجل ، هو جسدها الذي إشتهم ، رائحة جاححة كليلة ، الأطراف اللينة التي طافت موسيقاه عليها في اشتياق والكتان الخفي اللين الذي يستقطر جسدها عليه العبير والطل .

وزحفت قملة على قذاله ، فهدس إبهامه وسبابته بخفة تحت ياقته المفتوحة وأمسك بها . وضغط على جسدها الرقيق الشائك مثل حبة الأرز بين الإبهام والإصبع برهة ثم تركها تسقط ، وتساءل عما إذا كانت ستموت أم تحيا بعد ذلك . وقفزت إلى ذهنه عبارة غريبة « لكورنيلوس آلابيد » يقول فيها إن القملة التي تنتج عن العرق الآدمي لم يخلقها الله مع الحيوانات الأخرى في اليوم السادس . ولكن دغدغة جلد عنقه جعل ذهنه فجاً متوهجاً . وجعلته حياة جسده السيء الملبس ، السيء المطعم ، الذي يطأه القمل ، يغلق جفنيه في دفعة يأس مفاجئة ؛ ورأى في الظلمة أجسام قمل مضيئة تسقط من الهواء وتستدير غالباً قبل أن تسقط . أجل ، ولم تكن الظلمة ما يسقط من الهواء ، بل الضياء .

الضياء يساقط من الهواء .

لم يكن قد تذكرِ شعر « ناش » تذكرأ صحيحاً . وكل ما أثارته الكلمة السابقة كانت صوراً زائفة . إن ذهنه يولد الدود . أفكاره قملة تولدت عن عرق الكسل .

وعاد مسرعاً على طول الرواق نحو جماعة الطلبة . حسناً ، لتذهب وعليها اللعنة ! فلتحب أحد الرياضيين النظيفين ، يغسل نفسه كل صباح حتى الحاصرة ولديه شعر أسود على صدره . فلتفعل ذلك .

وكان كرانلي قد تناول تينة جافة أخرى من الخزن في جيبه وأخذ يأكلها في بطء وبصوت مسموع . وجلس تمبل على قاعدة العمود ، منحنياً إلى الخلف ، وقبعته تغطي عينيه الناعستين .

وخرج شاب مكتنز من المر وقد ثبت تحت إبطه محفظة جيب جلدية ، وسار ناحية الجماعة وهو يضرب البلاط بكعب حذائه وبالحلقات الحديدية لمظلمته الثقيلة . ثم رفع المظلة محيياً وقال موجهاً حديثه للجميع :

— مساء الخير يا سادة .

وضرب البلاط ثانية وابتسم ابتسامة متكلفة بينما رأسه يهتز في حركات عصبية خفيفة . وكان الطالب المصدر الطويل و«ديكسون» وأوكيف يتحدثون بالآيرلندية ولم يردوا عليه . فقال وهو يلتفت إلى كرانلي :

— مساء الخير ، خصيصاً لك .

ولوح بمظلمته تعبيراً عن ذلك وابتسم ثانية في تكلف . ورد عليه كرانلي الذي كان ما يزال يمضغ التين بحركات عالية من فكيه :

— خير ؟ أجل أنه مساءً خير .

ونظر إليه الطالب المكتنز في جدية وهز مظلمته في لطف ولوم . قال :

— أستطيع أن أدرك أنك على وشك أن تدلي ببعض الملاحظات .

فرد كرانلي : « ها » وهو يخرج بما تبقى من نصف التينة الممضوغ ويهزها

تجاه فم الطالب المكتنز بجرعة تدل على أنه يجب أن يأكلها .
ولم يأكلها الطالب المكتنز بل سدر في مزاجه الخاص وقال في رزانة وهو
ما يزال يبتسم في تكلف وينخس عبارته بمظلمته : هل تقصد ذلك ...؟
وقطع حديثه ، وأشار في بلادة إلى لباب التينة الممضوغ وقال بصوت مرتفع :
أعني هذا .

فعاد كرانلي يقول : ها .
فقال الطالب القصير : هل تعني ذلك كحقيقة واقعة أو - فلنقل - مجرد
كلام ؟

وتحول ديكسون عن جماعته قائلاً :
- كان جوجنز بانتظارك « يا جلن » وقد ذهب إلى « أدلفي » ليبحث عنك
وعن « موينيهان » .

ثم سأل وهو يربت على المحفظة التي تحت ذراع « جلن » : ماذا عندك هنا ؟
فرد جلن : أوراق امتحانات ، إنني أعقد لهم امتحانات شهرية لأرى ما إذا
كانوا يستفيدون من دروسي الخصوصية .

وربت هو أيضاً على المحفظة وسعل في رقة وابتسم .
فقال كرانلي في غلظة : - دروس خصوصية ! أعتقد انك تعني الأطفال
الحفاة الذين يدرسههم قرد لعين مثلك . ليساعدهم الله !

وقضم بقية التينة وألقى بالعنقود بعيداً .
وقال « جلن » في ود : إنني أدعو الأطفال الصغار لكي يأتوا إليّ . فردد
كرانلي بإصرار : قرد لعين ، قرد لعين كافر !

ونفض تمبل وأبعد كرانلي ثم خاطب « جلن » قائلاً :
- إن العبارة التي قلتها الآن مأخوذة من العهد الجديد عن قول المسيح :
أدعو الصغار يأتون إليّ .

فقال « أو كيف » : - عد إلى النوم ثانية يا تمبل .
فاستطرد تمبل وهو ما زال يخاطب « جلن » : - حسناً جداً إذن . وإذا
كان يسوع سيدعو الصغار للذهاب إليه فلماذا ترسل بهم الكنيسة جميعاً إلى
الجحيم إن ماتوا دون تعميد ؟ لماذا هذا ؟

فسأله الطالب المصدر . وهل مُعدت أنت نفسك يا تمبل ؟
فقال تمبل وعيناه تجوسان في عيني « جلن » : ولكن لماذا يُرسلون إلى الجحيم
ويسوع يقول إنهم كلهم سيأتون إليه ؟
فسعمل جلن وقال في لطف وهو يمسك بصعوبة الضحكة العصبية في صوته
ويهز مقلته عند كل كلمة :
- إذا كانت الحالة كما تقول ، فإني أتساءل تساؤلاً مبرماً من أين نشأت هذه
الحالة ؟

فقال تمبل : لأن الكنيسة قاسية مثل جميع الخطاة الكبار .
فقال ديكسون في دماعة : هل أنت أرثوذكسياً مثالياً في هذه النقطة
يا تمبل ؟

فرد تمبل : ويقول القديس « أوغسطين » نفس الشيء عن ذهاب الأطفال
غير المعمدين إلى الجحيم لأنه كان خاطئاً كبيراً قاسياً كذلك .
فقال ديكسون : إنني أنحني لك ، ولكن يخامرني إحساس بأن أليمبوس^(١)
قد وجد من أجل مثل هذه الحالات .
فقال كرانلي في وحشية : لا تناقش معه يا ديكسون . لا تتحدث إليه أو
تنظر إليه ، بل قده باللجام إلى منزله كما تفعل بالماعز الثاغية .
وصاح تمبل : أليمبوس ! إنه إختراع عظيم أيضاً . مثل الجحيم .

(١) الطرف الأقصى من الجحيم ، وهو مقام الأرواح التي كانت عادلة من غير المسيحيين
والأطفال الذين لم يعمدوا .

فقال ديكسون : ولكنه خال من المزعجات .

وتحول مبتسماً نحو الآخرين وقال :

- أعتقد أنني أردد آراء كل الحاضرين بكلامي هذا .

فقال جلن في لهجة حازمة : أجل . في هذه النقطة أيرلندا متحدة .

وضرب الحلقات الحديدية في مظله على أرض الرواق الحجرية .

قال تمبل : يا للبحيم ، إني أستطيع أن أحترم إختراع امرأة الشيطان الرمادية ، الجحيم روماني ، مثل جدران الرومان القوية القبيحة . ولكن ما هو اليمبوس ؟

وصاح أو كيف : أعده إلى عربية الأطفال يا كرانلي .

وخطا كرانلي خطوة سريعة نحو تمبل ثم توقف ودق قدمه وصاح كأننا

يخاطب دجاجة : « هس » !

وابتعد تمبل من أمامه في خفة .

وصاح : ألا تعرف ما هو اليمبوس ؟ أتعرف ماذا نسوي مثل هذه الفكرة

عندنا في « روسكومون » ؟

وصاح كرانلي وهو يصفق بيديه : هس ، لعنك الله !

فصاح تمبل في إزدراء : لا عبرا ولا نفيرا ، هذا هو اليمبوس كما أسميه .

فقال كرانلي : اغطني هذه العصا .

وجذب العصا في خشونة من يد ستيفن وهبط الدرج قافزاً ، ولكن تمبل

سمعه يتجه نحوه فاخفى في العتمة كالحيوان البري ، خفيفاً سريع القدمين .

وسمعوا حذاء كرانلي الثقيل يطارده في صخب عبر الفناء المربع ؛ ثم عاد

مشتاقلاً ، مهزوماً ، وهو يدفع الحصباء عند كل خطوة من خطواته .

كانت خطواته غاضبة ، ودفع العصا ثانية إلى يد ستيفن بحركة غاضبة

مفاجئة . وشعر ستيفن أن لغضبه سبباً آخر ، ولكنه تظاهر بالصبر ولمس

ذراعه برفق وقال في هدوء : كرانلي ، لقد أخبرتك أنني أريد التحدث إليك .
تعال .

ونظر إليه كرانلي بضع لحظات ثم سأله : الآن ؟

فقال ستيفن : أجل الآن . لا نستطيع الحديث هنا . لنعصِ .

وغادرا الفناء المربع معاً في صمت . وتبعتهما من درج المر صيحات الطائر
من أغنية سيجفريد تتردد في صفير رقيق . والتفت كرانلي ، وصاح بهما ديكسون
الذي كان يصفر قائلاً :

— ألى أين تذهبان ؟ ماذا عن تلك اللعبة يا كرانلي ؟

وتباحثا عن طريق الصيحات عبر الهواء الساكن عن لعبة بلياردو ستقام
في فندق « أدلفي » . وسار ستيفن وحده وخرج إلى هدوء شارع كلوار أمام
فندق « مابل » وتوقف منتظراً في صبر مرة أخرى . وأثار فيه إسم الفندق
وخشبه اللامع الذي لا لون له وواجهته التي لا لون لها وخزة كأنها هي نظرة
احتقار مؤدب . وأعاد النظر في غضب إلى غرفة الاستقبال المضاءة إضاءة خفيفة
حيث تخيل الحياة الملساء لطبقة الأشراف في أيرلندا وقد سكنت في هدوء ،
يفكرون في لجان الجيش ووكلاء الأراضي ، والفلاحين يحيونهم على طول
الطرق في الريف ، ويعرفون أسماء أطعمة فرنسية معينة ويصدرون الأوامر
إلى سائقي العربات في أصوات ريفية عالية النبرات تخترق حجب لهجاتهم .

كيف يمكنه أن يصل إلى ضمائرهم ، أو كيف يعرض ظله على خيالات بناتهم ،
قبل أن يتناسل منهن أقاربهم من الأشراف ، حتى ينجبوا جنساً أقل خسة من
جنسهم ؟ وشعر تحت وطأة الغبشة المتزايدة بأفكار ورغبات الجنس الذي ينتمي
إليه تترق كالحفافيش خلال حوار الريف المظلمة ، تحت أشجار تقع على حواف
الجداول وقرب المستنقعات المرقشة . كانت إحدى النساء تقف على الباب حين
مر « دافن » في الليل وقدمت له كوباً من اللبن ثم دعتة إلى فراشها ؛ فقد كان
« لدافن » عينان وديعتان تثنان عن شخص يكتم السر . ولكن لم تدعه عيننا

إمرأة قط .

وقبضت يد قوية على ذراعه وقال صوت كرانلي :

- فلنزع وجودنا من هنا .

وسارا جنوباً في صمت . ثم قال كرانلي :

- هذا المهذار الأبله تمبل - أتعرف - أقسم - بموسى أنني سأكون السبب

في موت هذا الشخص يوماً .

ولكن صوته لم يكن غاضباً وتساءل ستيفن هل كان يفكر في تحيتها له

عند المر .

واستدارا إلى اليسار وسارا كما كانا قبل ذلك . وبعد مدة من الوقت قال

ستيفن :

- لقد تشاجرت مشاجرة عنيفة هذا المساء يا كرانلي .

فسأل كرانلي : مع أسرتك ؟

- مع أمي .

- حول الدين ؟

فرد ستيفن : أجل .

فسأل كرانلي بعد صمت :

- ما عمر والدتك ؟

فقال ستيفن : ليست عجوزاً . إنها تريدني أن أؤدي طقوس عيد الفصح .

- وهل ستفعل ؟

فقال ستيفن : لن أفعل .

فقال كرانلي : ولم لا ؟

فرد ستيفن : لن أخدم^(١) .

(١) هذه العبارة قالها «لوسيفر» (إبليس) عند تمردده وسقوطه .

فقال كرانلي في هدوء : لقد قبلت هذه الملاحظة قبل ذلك .
فقال ستيفن في حرارة : وها أنا أقولها الآن بدوري .
وضغط كرانلي ذراع ستيفن قائلاً :
- على رسلك يا رجلي العزيز . أتعرف أنك رجل لعين سريع الغضب .
وضحك في عصبية إذ هو يتحدث وتطلع إلى وجه ستيفن بعينين ودودتين
متأثرتين وقال :

- هل تعرف أنك رجل سريع الغضب ؟
فقال ستيفن وهو يضحك كذلك : أظن أنني كذلك .
وبدا كما لو أن عقليهما اقتربا فجأة بعد أن إغتربا عن أحدهما الآخر في المدة
الأخيرة .

وسأل كرانلي : هل تؤمن بالقران المقدس ؟
فقال ستيفن : كلا .
- هل تكفر به إذن ؟
فرد ستيفن : إنني لا أؤمن به ولا أكفر به .
فقال كرانلي : لكثير من الناس شكوكهم ، حتى الدينيين منهم ، ورغم
ذلك فهم يقهرونها أو يزيحونها . هل شكوكك في هذا المجال قوية جداً ؟
فرد ستيفن : إنني لا أريد أن أقهرها .

وأفحم كرانلي برهة ، فتناول تينة أخرى من جيبه وكان على وشك أن
يأكلها حين قال ستيفن :
- لا تفعل أرجوك . إنك لا تستطيع مناقشة هذه المسألة وفمك مملوء بالتين
المضوغ .

وفحص كرانلي التينة تحت نور مصباح توقف تحته ، ثم قسمها وألقى بالتينة
في غلظة إلى المجاري وخاطبها في مرقدها هناك قائلاً :
- إغربي عني أيتها الملعونة إلى جهنم الأبدية .

ثم تناول ذراعي ستيفن ومضى معه ثانية وقال :
— ألا تخشى أن تُردد تلك الكلمات على مسامعك في يوم الحساب ؟
فسأله ستيفن : وماذا يقدمون لي في الجانب الآخر ؟ أبدية من السعادة في
صحبة عميد الدراسات ؟

فقال كرانلي : تذكر أن المجد سيكون من نصيبه .
فقال ستيفن في شيء من المرارة : آه ، مضيء ، لا يضار ، وفوق كل شيء ،
ماكر .

فقال كرانلي في غير حرارة : أتعلم ، إنه شيء عجيب ، كيف أن عقلك
مشبع بالدين الذي تقول إنك تكفر به . هل كنت تؤمن به حين كنت في المدرسة ؟
أراهن أنك كنت تؤمن به ؟
فرد ستيفن : كنت أوؤمن به .

فسأله كرانلي في لطف : وهل كنت أكثر سعادة آنذاك ؟ أكثر سعادة مما
أنت الآن مثلاً ؟

فقال ستيفن : كنت سعيداً حيناً وغير سعيد حيناً . كنت شخصاً مختلفاً
آنذاك .

— كيف كنت شخصاً مختلفاً ؟ ماذا تعني بهذه العبارة ؟
فقال ستيفن : أعني أنني لم أكن أقرب إلى نفسي مثلما أنا الآن ، وكما يجب
أن أصبح .

فردد كرانلي : لست كما أنت الآن ، ولست كما يجب أن تصبح . دعني
أسألك سؤالاً ، أتحب أمك ؟

فهب ستيفن رأسه في بظء . وقال : لست أدري ماذا تعني بذلك ؟
فسأل كرانلي : ألم تحب أحداً على الإطلاق ؟
— أتعني من النساء ؟

فقال كرانلي في لهجة أكثر بروداً : إنني لا أتحدث عن ذلك . إنما أسألك

ألم تشعر بحب تجاه أي شخص أو أي شيء ؟
وسار ستيفن إلى جانب صديقه وهو يتطلع في كتابة إلى الطريق .
وقال أخيراً : لقد حاولت أن أحب الله . ويبدو الآن أنني قد فشلت .
إن ذلك صعب جداً . لقد حاولت أن أوحد إرادتي مع إرادة الله لحظة بلحظة .
ولم أفسل دائماً في هذا الجانب . وربما استطعت أن أستمر في ذلك ...
وقاطعه كرانلي بالسؤال : أكانت أمك سعيدة في حياتها ؟

فقال ستيفن : وأنى لي أن أعرف .

— كم طفلاً لديها ؟

فرد ستيفن : تسعة أو عشرة ، مات بعضهم .

— وهل كان والدك ...

وقطع كرانلي حديثه برهة ثم قال : لا أود أن أُنَبِّش في شؤونك العائلية ،
ولكن هل كان والدك ما تدعوه ميسور الحال ؟ أعني ، حين كنت طفلاً ؟
فقال ستيفن : أجل .

فسأل كرانلي بعد صمت : وماذا كان يعمل .

وبدأ ستيفن يحصي بذلاقة أعمال والده .

طالب طب ، ضارب بالمجذاف ، مغني « تينور » مثل هاو ، سياسي فصيح ،
مالك أرض صغير ، مستثمر صغير ، سكير ، رفيق طيب ، قاص حكايات ،
سكرتير فلان ، موظف في معمل تقطير ، جامع ضرائب ، مفلس ، والآن
مشيد بماضيه .

وضحك كرانلي وهو يشدد قبضته على ذراع ستيفن وقال :

— معمل التقطير وظيفه حسنة .

فسأل ستيفن : أهناك شيء آخر تريد معرفته ؟

— هل ظروفك حسنة في الوقت الحاضر ؟

فسأل ستيفن في فتور : هل يبدو عليّ ذلك ؟
فاستطرد كرانلي متأملاً : إذن فأنت قد ولدت وفي فمك ملعقة من ذهب .
وقال هذه العبارة في اتساع وصوت مرتفع كعادته دائماً عند استخدام
الأساليب الفنية ، كأنما يود لسامعه أن يفهم أنه يستخدمها دون اقتناع .
ثم قال : لا بد أن والدتك قد مرت بظروف قاسية . ألا تحاول أن تنقذها
من معاناة أكثر حتى ولو ... أو هل تقبل ذلك ؟

فقال ستيفن : لو استطعت ، فذلك لن يكلفني إلا أقل المشقات .
قال كرانلي : إذن إفعل ما تريده منك ؛ وماذا يعني ذلك بالنسبة لك ،
إنك لا تؤمن به ، وهو شيء شكلي ليس إلا ، وسوف تريح قلبها .
وتوقف عن الكلام وبقي صامتاً حين لم يرد ستيفن . ثم قال كأنما ينطق ما
يتردد في فكره :

— مهما كان أي شيء في هذا العالم النفاية القدر غير مؤكد ، فإن حب الأم
ليس كذلك . الأم تجلب ابنها إلى الدنيا بعد أن تحمله في جوفها . ماذا نعلم عما
تشعر به ؟ ولكن مهما كان ما تشعر به فلا بد أن يكون حقيقياً على أقل تقدير .
لا بد من ذلك . ما هي أفكارنا ومطامحننا ؟ هراء . أفكار ! حتى هذا التيس
الشاغي اللعين « تمبل » لديه أفكار . و « ما كان » لديه أفكار أيضاً . كل غبي أحرق
يذرع الطرقات يظن أن لديه أفكاراً .

فقال ستيفن في عدم اكتراث مفتعل بعد أن أنصت إلى المعنى الذي يختفي
وراء حديث صديقه :

— إن باسكال — إن لم تخني الذاكرة — لم يكن يسمح لأمه أن تقبله لأنه
كان يخشى الاتصال بجنسها .

فقال كرانلي : كان « باسكال » خنزيراً .
فقال ستيفن : أعتقد أن « الويسيوس جونزاجا » كان فيه نفس هذا الطبع .

فقال كرانلي : إذن يكون هو الآخر خنزيراً .
فاعترض ستيفن : ولكن الكنيسة تدعوه قديساً .
فقال كرانلي في بلاذة وغلظة : لا يهمني ذرة واحدة ما يقوله عنه أي شخص .
إني أدعوه خنزيراً .

واستطرد ستيفن وهو يعد الكلمات في ذهنه في دقة .
- ويبدو كذلك أن يسوع قد عامل أمه في العلن بحفاوة قليلة ، ولكن
« سواريث » وهو لاهوتي جزويتي وسيد أسباني قد اعتذر عنه .
فسأل كرانلي : هل خطرت لك فكرة أن يسوع لم يكن حقاً ما كان
يتظاهر به ؟

فرد ستيفن : أول شخص خطرت له هذه الفكرة هو يسوع نفسه .
فقال كرانلي وهو يخشن من كلامه : أعني هل خطرت لك فكرة أنه كان
نفسه منافقاً واعياً ، « ضريحاً خاوياً » كما كان يرمي يهود عصره ؟ أو ، كي
أوضح لك الفكرة ، أنه كان دجالاً ؟

فرد ستيفن : لم تخطر لي هذه الفكرة مطلقاً . ولكنني أتلف على معرفة إذا
كنت تحاول أن تجعل مني مهتدياً أو تجعل من نفسك مارقاً ؟

والتفت إلى وجه صديقه ورأى فيه ابتسامة فجأة جاهد بقوة إرادته لكي
يجعل منها شيئاً ذا معنى . وسأل كرانلي فجأة في لهجة بسيطة مرهفة :
- اصدقني ، هل صدمك ما قلته لك ؟

فقال ستيفن : إلى حد ما .

وألح كرانلي في نفس الالهجة : ولماذا صدمت إذا كنت تشعر شعوراً مؤكداً
أن ديننا زائف وأن يسوع لم يكن ابن الله ؟
فقال ستيفن : إني غير متأكد تماماً . إنه أقرب إلى أن يكون ابن الله عن
أن يكون ابن ماري .

فسأل كرانلي : ولأجل هذا لن يتناول القربان المقدس ، لأنك غير واثق

من هذا أيضاً ، لأنك تشعر أن القربان كذلك قد يكون دم وجسد ابن الله وليس مجرد رفاقة من الخبز؟ ولأنك تخشى أن يكون الأمر كذلك؟ فقال ستيفن في هدوء : أجل ، إني أشعر بذلك وأخشاه أيضاً . فقال كرانلي : فهمت .

وأعاد ستيفن فتح باب المناقشة على الفور وقد أخذ بلهجة صديقه الجازمة وقال : إني أخشى أشياء كثيرة : الكلاب والحياد والأسلحة النارية والبحر والعواصف الرعدية ، والآلات ، وطرقات الريف في الليل . - ولكن لماذا تخشى قطعة من الخبز؟

فقال ستيفن: إني أتصور أن هناك شيئاً من الضغينة يكمن خلف الأشياء التي أقول إني أخشاها .

فسأل كرانلي : أتخشى إذن أن يرديك إله الروم الكاثوليك صريعاً ويلعنك إذا ارتكبت خطيئة تدنيس المقدسات؟

فقال ستيفن : يستطيع إله الروم الكاثوليك أن يفعل ذلك الآن . إني أخشى أكثر من ذلك التفاعل الكيميائي الذي يمكن أن يحدث في روحي نتيجة خضوع زائف لرمز يتجمع خلفه عشرون قرناً من السلطة والتبجيل .

فسأل كرانلي : وهل ترتكب - تحت ظروف الخطر العظيم ، هذا التدنيس المعيب للمقدسات؟ مثلاً ، إذا كنت تعيش في عصور العقاب؟

فرد ستيفن : لا يمكنني أن أبرر الماضي . ربما كنت أفعل .

فقال كرانلي : إذن فأنت لا تنوي أن تصبح بروتستانتياً؟

فرد ستيفن : لقد قلت إنني فقدت أيماني ولم أقل إنني فقدت إحترامي لنفسي . أي حرية تكون هذه، أن أهجر عبناً منطقياً متمسكاً وأقبل عبناً غير منطقي مفكك؟

كانا قد وصلا إلى مجلس « ببروك » البلدي . وهدأت الأشجار والأنوار المتناثرة في الفيئات من فكرهما إذ كانا يسيران ببطء على طول الطرقات ؛ وبدا

جو الثراء والراحة المنتشر حولهما يهدد من حاجتهما. والتمتع نور في نافذة مطبخ
وراء سور من نبات الغار وسمعا صوت خادمة تغني وهي تشهد السكاكين .
وكانت تغني في نفحات قصيرة متكسرة :

روزي أوجرادي

وتوقف كرانلي ليستمع قائلاً : Mulier Cantat (١) .

ولمس الجمال الناعم للكلمة اللاتينية ظلمة المساء لمسة ساحرة، لمسة أشد نعومة
وأكثر إغراء من لمسة الموسيقى أو لمسة يد امرأة . لقد خمد صراع ذهنيها .
وعبرت صورة امرأة على الهيئة التي تظهرها في طقوس الكنيسة الدينية خلال
الظلمة ، صورة مكسورة بشباب بيضاء ، صغيرة نحيلة كالصبي ، وذات نطاق
متهدل . وارتفع صوتها واهناً عالياً كصوت الصبي ، يغني وسط جوقة بعيدة
الكلمات الأولى للشخصية النسائية ، يخترق جهامه أول ترنيم للعاطفة وصخبها :

et tu Cum Jesu Galilaeo. (٢)

واهتزت الأفئدة كلها والتفتت إلى صوتها، المضيء كالنجم الشاب، والتمتع في
وضوح أكثر حين ترنم الصوت باللهجة الحادة ، ووهن أكثر حين مات الإيقاع .
وتوقف الغناء . وسارا معاً ، وكرانلي يردد نهاية اللازمة في إيقاع جد
مشدد :

وحين نكون قد تزوجنا
ما أشد ما سنكون سعداء .
فإني أحب روزي أوجرادي الحلوة
وروزي أوجرادي تحبني .

(١) « امرأة تغني » .

(٢) « وأنت كنت مع يسوع الجليلي » .

قال : هذا شعر صحيح ، به حب حقيقي .

ونظر جانباً إلى ستيفن بابتسامة غريبة وقال :

– هل تعتبر هذا شعراً ؟ أو هل تعرف ماذا تعني هذه الكلمات ؟

فقال ستيفن : أريد أن أرى روزي أولاً .

فقال كرانلي : من السهل العثور عليها .

كانت قبعته قد هبطت على جبهته . وأعادها إلى الوراء ؛ ورأى ستيفن وجهه الشاحب في ظل الأشجار تحيط به الظلمة ، وعينيه الكبيرتين السوداوين . أجل . إن وجهه وسيم وجسده قوي صلب . لقد تحدث عن حب الأم . كان يشمر وقتها بمعاونة النساء وضعف أجسادهن وأرواحهن ، وكان مستعداً أن يحميهن بذراعه القوية الجامدة وأن يطوِّع فكره لهن .

هروباً إذن ، لقد حان أوان الرحيل . وتحدث صوت رقيق إلى قلب ستيفن الوحيد ، طالباً منه الرحيل ومنبئاً إياه أن صداقته على وشك الانتهاء . أجل ، سيرحل . لا يمكنه المجاهدة ضد آخر . إنه يعرف نصيبه .

قال : ربما رحلت إلى الخارج .

فسأل ستيفن : إلى أين ؟

فقال ستيفن : إلى أي مكان أستطيع الرحيل إليه .

قال كرانلي : أجل ، قد يكون من الصعب عليك الحياة هنا الآن ؛ ولكن

أهذا ما يملكك على الرحيل ؟

فرد ستيفن : يجب أن أرحل .

فاستطرد كرانلي : لأنك لا حاجة بك أن ترى نفسك مغلوباً على أمرك إن لم تشأ أن ترحل أو كافرأ أو خارجاً على القانون . هناك الكثير من المؤمنين يفكرون على طريقتك . أيدعشك هذا ؟ ليست الكنيسة هذا المبنى الحجري ولا القسس وعقائدهم الصارمة . إنها مجموع من ينشأ تحت ظلها . إني لا أعرف

ماذا تريد أن تفعل في هذه الدنيا ، أهو ما سبق أن أخبرتني به تلك الليلة حين
كنا نقف خارج محطة هار كورت ستريت ؟

قال ستيفن وهو يبتسم على الرغم منه من طريقة كرانلي في تذكر الأفكار
فيما يتصل بالأماكن :

— أجل ؛ الليلة التي قضيت فيها نصف ساعة تتصارع مع دوهرتي فيما يختص
بأقصر طريق من « ساليجاب » إلى « لاراس » .

قال كرانلي في ازدراء هادىء : أخرق ! ماذا يعرف عن الطريق من
ساليجاب إلى لاراس ؟ أو ماذا يعرف عن أي شيء من هذه الأمور ؟ يالرأسه
من وعاء أخرق !

وانفجر في ضحكة عالية طويلة .

قال ستيفن : حسناً ؟ هل تذكر البقية ؟

قال كرانلي : بقية ما قلته ؟ أجل أذكره . نكتشف نمطاً للحياة أو للفن
تستطيع روحك بواسطته التعبير عن نفسها في حرية غير مقيدة .
ورفع ستيفن قبعته موافقاً .

وردد كرانلي : حرية ! ولكنك لست حراً بعد إلى حد أن ترتكب خرقاً
للمقدسات . أخبرني هل تسرق ؟

فقال ستيفن : أفضل لي أن أشحد قبل ذلك .

— فإذا لم تحصل على شيء ، هل تسرق ؟

فأجاب ستيفن : أنت تريدني أن أعترف أن حقوق الملكية هي حقوق
مؤقتة ، وأن السرقة لا تصبح غير قانونية في ظروف معينة . قد يتصرف كل
شخص وفقاً لهذه العقيدة ، ولذلك لن أرد عليك بهذا الجواب . وهذا ينطبق
على اللاهوتي الجزويتي « خوان ماريانا دي تالافيرا » الذي يشرح لك أيضاً
الظروف التي تدعوك لقتل الملك قانونياً وعمماً إذا كان من الأفضل لك أن تناوله
السم في قده أو تلتطخ به رداءه أو سرج جواده . اسألني بدلاً من ذلك هل أدع

الآخرين يسرقونني ، أو هل أطبق عليهم إن فعلوا بي ذلك ما أعتقد أنه يدعى بالقصاص الدنيوي ؟

– وهل تفعل ذلك ؟

فقال ستيفن : أعتقد أن ذلك يؤلمني بنفس القدر الذي يؤلمني به أن يسرقونني .

فقال كرانلي : فهمت .

وأخرج عود ثقاب وأخذ ينظف به فجوة بين سنين من أسنانه ، ثم قال

بعدم إكتراث :

– اخبرني مثلاً ، هل تفض عذرية فتاة ؟

فقال ستيفن في أدب : عذراً ، أليس هذا هو مطمح أكثر الشبان المهذبين ؟

قال كرانلي : ما هي وجهة نظرك إذن ؟

وأثارت عبارته الأخيرة بما فيها من فتور للهمة ورائحة حريفة تماثل دخان

الفحم النباتي ذهن ستيفن الذي بدا كما لو يعكف على دخانه .

قال : إسمع يا كرانلي . لقد سألتني ماذا أفعل وما لا أفعل . سأخبرك ما

سأفعل وما لن أفعله . إنني لن أخدم شيئاً لم أعد أو من به سواء كان ذلك منزلي ،

أو بلدي أو كنيسة . وسأحاول أن أعبر عن نفسي في الحياة أو في الفن على

أكثر الأشكال حرية وكالاً ، مستخدماً للدفاع عن نفسي الأسلحة الوحيدة التي

أسمح لنفسي باستخدامها : الصمت ، النفي ، المقدرة .

وقبض كرانلي على ذراعه وأداره جانباً كأنما يقوده خلفاً ناحية «ليزون بارك» .

وضحك فيما يشبه الحبث وهو يضغط ذراع ستيفن في ود الشخص الأكبر سنناً .

قال : مقدرة حقاً ! أهذا أنت ؟ أيها الشاعر المسكين ، أنت !

قال ستيفن وقد أثارت له لمسته : لقد جعلتني أعترف لك كما اعترفت لك

بكثير من الأشياء ، أليس كذلك ؟

فقال كرانلي وهو ما يزال على مرحه : أجل يا صغيري .

– لقد جعلتني أعترف لك بمخاوفي . ولكنني سأخبرك أيضاً عما لا أخافه .

لاني لا أخشى أن أصبح وحيداً أو أن أزدري أو أهجر ما يجب عليّ أن أهجره . كما لا أخشى أن أرتكب خطأ ، ولو كان خطأ كبيراً ، خطأ يدوم العمر كله ، وربما كان دوامه دوام الأبدية أيضاً .

وأبسطاً كراني من خطواته وقد عاد رزينا ثانية وقال :

— وحيداً ، وحيداً تماماً . إنك لا تخشى ذلك . وهل تدري معنى هذه الكلمة ؟ لن تكون بعيداً عن كل الآخرين فقط ، ولكن لن يكون لك ولا صديق واحد .

فقال ستيفن : سوف أركب هذه المخاطرة .

فقال كراني : ولا يكون لك صديق واحد ممن هم أكثر من أصدقاء ، أكثر من أنبل وأصدق أصدقاء لدى أي إنسان .

وبدت كلماته كما لو تضرب وترأ عميقاً في طبيعته . هل كان يتحدث عن نفسه ، عن نفسه كما كان أو كما يرغب أن يكون ؟ وراقب ستيفن وجهه لحظات في صمت . كان يغمره حزن بارد . لقد تحدث عن نفسه ، عن وحدته التي يخافها . وسأله ستيفن أخيراً : عنم تتحدث ؟ ولم يجب كراني .



٢٠ مارس

حديث طويل مع كراني حول موضوع تمردي . هو بأخلاقه العالية . وأنا مرن ودمث . هاجمني حول حب المرء لأمه . أحاول تصور أمه : لا أستطيع . أخبرني مرة ، في لحظة اندفاع ، أن أباه كان في الواحدة والستين من عمره حين وُلد . أستطيع أن أراه . نموذج الفلاح القوي . فراج الفلفل والملح . الأقدام المستديرة واللحية الخشنة الشهباء . ربما يواظب على حضور مصارعة الكلاب . يدفع مستحقاته بانتظام ولكن ليس بوفرة إلى الأب « دواير » في « لاراس » .

يتحدث أحياناً إلى الفتيات بعد هبوط الليل . ولكن أمه ؟ صغيرة جداً أو عجوز جداً ؟ مرجح ألا تكون الأولى . لأنه إذا كان الأمر كذلك لما تحدث كراني بهذا الحديث . عجوز إذن . ربما ، ومهمة . ومن هنا يأس كراني الروحي ، صبي الخصر الواهن .

٢١ مارس ، صياحا

فكرت في هذا في الفراش ليلة السارحة ولكنني كنت كسلاً وحرراً للدرجة لم أستطع الإضافة إليه . أجل ، حرراً . الخصر الواهن خصر اليزابت وزخاري . وعندئذ يكون البشير . مقطع : يأكل أساساً بطن لحم الخنزير وتيناً جافاً . إقرأ عن الجراد وعسل النحل البري . وأيضاً ، حين أفكر فيه أرى دائماً رأساً حاداً مفصلاً أو قناع الموت كأنما هو محفور على ستارة رمادية أو شجرة لبلاب . يسمون ذلك في الأغنام قطع الرأس . يحيرني الآن القديس يوحنا عند البوابة اللاتينية . من أرى؟ مبشر مقطوع الرأس يحاول أن يلتقط أحد الأقفال .

٢١ مارس ، ليلا

حر . حر الروح وحر الخيال . فليدفن الموتى الموتى . أجل ، وليتزوج الموتى الموتى .

٢٢ مارس

مع لينش ، تتبع ممرضة مستشفى مكتنزة . فكرة لينش . أكره ذلك . كلبا صيد أعجفان جائعان يسيران خلف بقرة .

٢٣ مارس

لم أرها منذ تلك الليلة . مريضة ؟ ربما تجلس أمام النار ووشاح الأم حول كتفها . ولكنها ليست كدرة . طبق لذيذ من الثريد ؟ ألا تريد الآن ؟

٢٤ مارس

بدأت مناقشة مع والدتي . الموضوع : العذراء المقدسة ماري . يمنعني جنسي وصغري . ولكي أهرب ، عقدت روابط بين يسوع ووالدي في مقابل

الروابط الموجودة بين ماري وإبنها . قلت إن الدين ليس مستشفى للرقاد .
الأم مهتمة . قالت إن لي عقلاً غريباً وقد قرأت أكثر من اللازم . ليس حقاً .
لقد قرأت قليلاً وفهمت أقل . ثم قالت إنني سوف أعود إلى الإيمان لأن لي عقلاً
قلقاً . وهذا يعني أن أترك الكنيسة من باب الخطيئة الخلفي وأعود إليها عن
طريق نافذة التوبة . لا أستطيع أن أتوب . أخبرتها بذلك وطلبت منها سمة
بنسات ، أعطتني ثلاثة بنسات .

ثم ذهبت إلى الكلية . منازعة أخرى مع « غيزي » ذي الرأس الصغير
المستدير والعينين اللئيمتين . وهذه المرة حول « برونو » و« نولان » . بدأت
بالإيطالية وانتهت بالإنجليزية المهجنة ^(١) . قال إن برونو كان هرطاقاً فظيماً .
قلت إنه أحرق بطريقة فظيعة . وافق على ذلك في شيء من الأسف . ثم أعطاني
وصفة لما يسميه *Risotta alla bergamasca* ^(٢) . حين ينطق حرف الـ
اللين يمد شفثيه الغليظتين الحسيتين كأنما يقبل الحرف المتحرك . أيفعل ؟ وهل
يستطيع التوبة ؟ أجل ، يستطيع ، ويبكي دمعتي لؤم مستديرتين ، دمعة
من كل عين .

عند عبور حديقة ستيفن ، أي الحديقة التي إعتدت على التريض فيها ،
تذكرت أن قومه وليسوا قومي هم الذين أبتكروا ما دعاه كرانلي الليلة الماضية
ديننا . أربعة منهم ، أربعة منهم جنود فرقة المشاة السابعة والتسعين ؛ جلسوا
أسفل الصليب وقذفوا النرد ليقترعوا على معطف المصلوب .
ذهبت إلى المكتبة . حاولت قراءة ثلاث مجلات عبثاً . لم تخرج بعد . هل
إنزعجت ؟ علام ؟ إنها لن تخرج ثانية أبداً .

(١) الإنجليزية المهجنة هي الإنجليزية مختلطة بكلمات من الصينية والبرتغالية
والمالايوية وغيرها .
(٢) اسما اطعمة ايطالية .

قال « بليك » :

أتساءل إذا كان وليام بوند سيموت
فإنه مريض جداً .

وأسفاه يا وليام المسكين !

كنت ذات مرة أمام المنظار المقرب في « الروتندا » وكانت هناك
صور رؤوس كبيرة في طرفها . وكان منها رأس « وليام إيوارت غلادستون » ،
وكان قد مات توأ أيامها . وعزفت الأوركسترا : « آه يا ويبي ، لقد افتقدناك » .
أمة من الأجلاف .

٢٥ مارس ، صباحا

ليل مزعج الأحلام ، أريد أنت أزيحها عن صدري . صالة عرض طويلة
متعرجة . تصعد من الأرض أعمدة من الأبنجرة السوداء . مليئة بصور الملوك
الخرافيين ، مقامة بالأحجار . وأيديهم مضمومة على ركبهم علامة على التعجب
وعيونهم مسودة ، فإن أخطأ الإنسان ترى أمامهم إلى الأبد على شكل
أبنجرة سوداء .

واقتربت شخوص غريبة كأنما تقترب من كهف . ليسوا في طول الرجال
ولا يبدو على أحدهم أنه يقف على مبعده ما من الآخر . وجوههم فسفورية بها
خطوط أكثر إظلاماً . ينظرون نحوي وتبدو عيونهم وكأنها تسألني شيئاً .
إنهم لا يتكلمون .

٣٠ مارس

كان كرانيلى هذا المساء في ردهة المكتبة ، يعرض مشكلة مع « دايكسون »
وأخيها . أم تركت إبنتها تسقط في النيل . ما زال يدق على وتر الأم .
وأمسك تمساح بالابنة ، وطلبت الأم استعدادتها . وقال التمساح إنه يوافق إذا
أخبرته ماذا سيفعل بالابنة ، أسياً كلها أم لن يأكلها .
لو كان « لبيدوس » لقال عن هذه العقلية إنها حقاً نتاج وحلنا بفعل شمسنا .

وعقليتي ؟ أليست هي كذلك أيضاً ؟ إذن إلى وحل النيل بها !

١ أبريل

أعارض هذه العبارة الأخيرة .

٢ أبريل

رأيتها تشرب الشاي وتأكل الكعك في محل « جونستون وموني وأدبرين » أو بالأحرى ، رأها لينش الحاد البصر ونحن نمر . أخبرني أن الأخ دعا كرانلي إلى هناك أيضاً . هل أحضر تمساحه معه ؟ أهو الآن نجم الحفل ؟ حسناً ، لقد كشفته . أوكد ذلك . يلعب في هدوء خلف مكياج نخالة « ويكلو » .

٣ أبريل

قابلت « دافن » عند محل السيجار المواجه لكنيسة « فندلاتر » . كان يرتدي قميصاً أسود ويطوح عصا في يده . سألتني إن كنت حقاً سأرحل إلى الخارج ولماذا . أخبرته أن أقصر طريق إلى « تارا » هو « هوليهيد » . وعندها حضر والدي . تعارف . الوالد مؤدب وحذر . سأل « دافن » إن كان له أن يقدم بعض المنعشات . واعتذر « دافن » ، إذ كان على موعد . وقال لي والدي حين خرجنا أن له عيناً طيبة شريفة . سألتني لماذا لم ألتحق بنادي التجديف . تظاهرت بأنني سأفكر في الأمر . أخبرني بعد ذلك كيف حطم فؤاد « بنيفيدر » يريدني أن أقرأ في القانون . يقول إنني خلقت من أجل ذلك . مزيد من الوحل ، مزيد من التماسيح .

٥ أبريل

ربيع جامع . سحب مندفعة . آه أيتها الحياة ! جدول غامض من المستنقعات الدوارة حيث تلقي أشجار التفاح بزهورها الرقيقة . أعين الفتيات بين الأوراق . فتيات يتظاهرن بالاحتشام ويخاشن في التصرف : كلهن بيضاوات أو خمريات .

ليس بينهن سمراوات . إنهن يتوددن أفضل . ها .

٦ أبريل

لا بد أنها تتذكر الماضي . يقول لينش إن كل النساء يفعلن ذلك . إذن فهي تذكر زمن طفولتها - وطفولتي ، إذا كنت طفلاً يوماً من الأيام . الماضي مدفون في الحاضر والحاضر لا يجيب إلا لأنه يجلب المستقبل . إذا كان لينش على حق فإن تماثيل النساء لا بد أن تكون مكسوة بالجوخ كلها ، وإحدى يدي المرأة تتحسس في أسف أعضائها الخلفية .

٦ أبريل ، بعد ذلك

يتذكر « ميشيل روبرتس » الجمال المنسي ، وحين يضمها بين ذراعيه فإنه يضم الجمال الذي ذوى منذ مدة طويلة من الدنيا . ليس هذا ، ليس هذا على الإطلاق . أريد أن أضم بين ذراعي الجمال الذي لم يأت بعد إلى الدنيا .

١٠ أبريل

يبدو صوت الحوافز على الطريق ، في خفوت ، وتحت ستار الليل الثقيل ، خلال سكون المدينة التي تحولت من الأحلام إلى النوم بلا أحلام ، كحبيب متعب لا تهزه المداعبات . لم تصبح على هذه الدرجة من الخفوت حين اقتربت من الجسر . وفي لحظة ، حين كانت تمر على النوافذ المظلمة ، انقطع الصمت فجأة كأنما يشقه أحد السهام . يسمع صوتها الآن بعيداً ، حوافر تضيء وسط الليل الثقيل كالجواهر ، مسرعة فيما وراء الحقول النائمة ، إلى أية نهاية للرحلة ؟ أي غاية ؟ وماذا تحمل من أبناء ؟

١١ أبريل

أقرأ ما كتبته ليلة البارحة . كلمات غامضة لعاطفة غامضة . هل ستحبها؟ أعتقد ذلك ، إذن لا بد أن أحبها أنا أيضاً .

١٣ أبريل

كلمة « الموصل » هذه ما زالت عالقة في ذهني فترة طويلة . كشفت عنها في القاموس ووجدتها الإنجليزية ، والإنجليزية صرفة قديمة أصيلة أيضاً ، اللعنة على عميد الدراسات وقمعه ! لماذا أتى إلى هنا ، ليعلمنا لغته أم ليتعلمها منا ؟ عليه اللعنة بطريقة أو بأخرى !

١٤ أبريل

عاد « جون ألفونسوس ميليرنان » توأ من غرب أيرلندا . طلب ذكر ذلك في الصحف الأوروبية والآسيوية . أخبرنا أنه قابل عجوزاً هناك في كوخ جبلي . رجل عجوز ذو عينين حمراوين وغلينون قصير . رجل عجوز يتحدث الأيرلندية . « وميليرنان » يتحدث الأيرلندية . إذا فالرجل العجوز وميليرنان يتحدثان الإنجليزية . تحدث إليه « ميليرنان » عن الكون والنجوم . وجلس العجوز وأنصت ودخن وبصق ثم قال :

— آه ، لا بد أن هناك مخلوقات فظيعة غريبة عند الطرف الأقصى من العالم .
إني أخافه . أخاف عينيه المتحجرتين ذواتي الحواف الحمراء . لا بد أن أتصارع معه طوال هذه الليلة حتى يطلع النهار ، حتى يموت ، أموت أنا أو يموت هو ، أقبض على حلقه القوي إلى أن ... إلى أن ماذا ؟ إلى أن يستسلم لي ؟ كلا . لا أريد إنزال الضرر بأحد .

١٥ أبريل

قابلتها اليوم مصادفة في طريق « جرافتون » . حملنا الزحام وجهاً لوجه توقف كلانا . سألتني لماذا لا أحضر إليهم ، وقالت إنها سمعت كثيراً من الحكايات غني . كان هذا كسباً للوقت فقط . سألتني هل أكتب شعراً ؟ سألتها عن ؟ وأصابها هذا بارتباك أكثر وشعرتُ بالأسف والضعة . وغيرت زمام هذا الموضوع

على الفور وفتحت الجهاز المبرد ذا البطولة الروحية الذي ابتكره « دانتى أليجيري » ونال امتيازه في كل البلدان . تحدثت بسرعة عن نفسي وعن مشروعاتي . وفي وسط الحديث قمت لسوء الحظ بحركة مفاجئة ذات طبيعة ثورية . لا بد أنني بدوت مثل الشخص الذي يلقي بحفنة من البازلاء في الهواء . بدأ الناس ينظرون إلينا . صافحتني بعد لحظة وقالت وهي تذهب إنها تأمل أن أنفذ ما قلته . والآن ، أسمى هذا وداً ، أليس كذلك ؟

أجل ، لقد أحببتها اليوم . قليلاً أم كثيراً ؟ لا أعرف . لقد أحببتها وبدا ذلك شعوراً جديداً مني . وإذن ، في هذه الحالة ، فكل ما عدا ذلك ، كل ما فكرت أنني فكرته ، وكل ما شعرت أنني شعرت به ، كل ما عدا الآن ، في الحقيقة ...

آه ، فلتترك ذلك يا عزيزي العجوز ! نعم عليه .

١٦ أبريل

الفرار ! الفرار !

سحر الأذرع والأصوات . أذرع الطرق البيضاء ، ووعدتها بعناق قريب ، والأذرع السوداء للسفن الطويلة التي تقف في مواجهة القمر وحكاياها عن البلاد القصية . إنها كما لو تقول : إننا وحيدان ، تعال . وتقول الأصوات معها : إننا أقرباؤك . والهواء مثقل برفقتهم حين يدعونني ، أنا قريبيهم ، ويستعدون للرحيل ، يهزون أجنحة شباههم البهيج المرعب .

٢٦ أبريل

والدتي تصلح ثيابي القديمة . إنها تصلي الآن ، كما تقول ، لكي أتعلم في حياتي الخاصة وبعيداً عن البيت والأصدقاء ما هو القلب وما هي مشاعره . آمين . فليكن كذلك . مرحباً أيتها الحياة ! إنني ذاهب لكي أقابل للمرة المليون

حقيقة التجربة ولكي أصنع في مصهر روحي الضمير الذي لم يخلق لعنصري .

٢٧ أبريل

أيها الأب القديم ، أيها الصانع القديم ، فلتعضدني الآن وإلى الأبد بروح
من عندك .

دبلن ١٩٠٤

تريستا ١٩١٤

* * *

مؤسسة مواد الطباعة والتصوير
مكتف: ٨٢٠٩٤٢ - مكتبات: ١٥٤٤٤٤



هزار الكتاب

يعتبر جيمس جويس واحداً من اكبر عباقرة الرواية العالمية في القرن العشرين (توفي في زوريخ عام ١٩٤١). وقد عبر في رواياته تعبيراً غنياً جداً عن الهموم والعذابات التي لاقتها نفسه في حياته المضطربة ، وتعمق ذاته تعمقاً لم تبلغه الا القلة النادرة من الروائيين .

وقد انفجرت عبقريته الخيالية واللغوية في اول رواية له ، هي رواية « صورة الفنان في شبابه » التي يجدها القارئ العربي بين يديه ، والتي صدرت في نيويورك عام ١٩١٦ . وتحمل هذه الرواية ذكريات شبابه الاول في اطار من التحليل النفسي والحوار الغني يجعل « صورة الفنان » اثرأ هاماً في تاريخ الرواية الحديثة . وتعتبر هذه الرواية مقدمة لروايته الهائلة « يوليسيس » التي منعت عند صدورها بتهمة انها « داعرة » ولكنها صدرت بعد ذلك في كثير من اللغات العالمية .

